روزيلا بوستورينو

ذائقة طعام هتلر

رواية

المركز الثقافي العربي

★ الرواية الإيطالية ذات الجوائز الثماني ★

مستوحاة من قصة حقيقية

t.me/qurssan

روزيلا بوستورينو

ذائقة طعام هتلر

رواية

ترجمة: محمد التهامي العماري

المركز الثقافي العربي

t.me/qurssan

العنوان الأصلي للرواية :

Rosella Postorino
Le assaggiatrici

© 2018 Rosella Postorino
All rights reserved

الكتاب

ذائقة طعام هتلر

تأليف

روزيلا بوستورينو

ترجمة

محمد التهامي العماري

الطبعة

الأولى، 2020

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-946-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

t.me/qurssan

لا يعيش الإنسان في نهاية المطاف إلا بنسيان أنه إنسان.

برتولت بريشت، أوبرا القروش الأربعة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

القسم الأول

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

بعد ساعات من الانتظار قضيناها واقفات في الممرّ، دخلنا تباعاً الواحدة تلو الأخرى. كنّا نشعر بالحاجة إلى الجلوس. القاعة واسعة، ذات جدران بيضاء، تتوسّطها مائدة خشبية طويلة نُصبت من أجلنا. أشاروا لنا بالجلوس.

جلستُ شابكة يدَيّ على بطني وقد أخذَ منّي الجوع مأخذه، وأمامي وُضع طبق خزفيّ أبيض.

كنّا عشر نساء. فعلت الأخريات مثلي من دون ضجّة. بعضهنّ جلسن مستقيمات على نحو متصلّب، شعرهنّ مشدود تعلوه كُعيكة، بينما مضت أخريات يحدّقن حولهنّ. أمّا الفتاة الجالسة قبالتي، فراحت تقضم الجلد الميّت حول أظافرها، وتمزّقه إرباً بين قواطعها. تظهر على وجنتيها الغضتين أعراض مرض الورديّة. هي أيضاً جائعة.

كنّا نتضوّر جوعاً رغم أنّ الساعة لم تُجاوز الحادية عشرة، ليس بسبب جوّ الريف ولا بسبب السفر بالحافلة. مردّ هذا الثقب الذي نشعر به في مِعَدنا هو الخوف. مضت سنوات ونحن نعاني من الجوع والخوف. ولمّا نفذت رائحة الطعام إلى خياشيمنا، شرع الدم ينبض في صدوغنا، واللُعاب يجري في أفواهنا. نظرتُ إلى الفتاة ذات

t.me/qurssan

الوجنتين المحمرّتين، فلاحظت أن شهيّتها للطعام لا تقلّ عن شهيّتي.

كانت الفاصولياء الخضراء الموضوعة أمامي مزيّنة بقطعة زبدة، زبدة لم أذق طعمها منذ زواجي. ودغدغَت رائحة الفُلفُل المشويّ الذي يملأ صحني أنفي، فلم أستطع تحويل بصري عنه. أمّا صحن جارتي الجالسة قبالتي، فكان به أرز وبازيلاء.

سمعنا أحدهم في زاوية القاعة يقول بنبرة هي بين الدعوة والأمر: «كُلنَ!». كانت شهيّتنا للطعام بادية في عيوننا وأفواهنا المفتوحة وأنفاسنا المتسارِعة. تردّدنا. لم يتمنَّ لنا أحد شهية طيبة، ومع ذلك وددت لو أقوم فأشكرهم وأعتذر. الدجاجات سخيّة هذا الصباح، بيضة واحدة تكفيني اليوم.

أحصيت الجالسات إلى المائدة. كنّا عشراً. وجبتنا إذاً لا تشبه في شيء عشاء المسيح الأخير.

لمّا كرّروا من زاوية القاعة «كُلن!»، كنت قد مصصت حبة فاصولياء، وشعرت بالدم يتدفّق في جذور شعري وأصابع قدمي، وبدقّات قلبي تتباطأ. **أمامي نُصبَت مائدة وغريماتي جالسات قبالتي، نُصبَت مائدة خشبية عارية، من دون غطاء، عليها أوانٍ بيضاء، وحولها عشر نساء: كنّا نبدو بلباسنا الذي يخفي أجسادنا مثل راهبات منذورات للجلوس بصمت في قاعة الطعام.**

في البداية كنّا نتناول لُقيمات كما لو أنّنا لسنا مجبرات على التهام كلّ ما أمامنا، كما لو أنّنا نستطيع أن نرفض هذا الطعام، هذه الوجبة التي لم تحضّر من أجلنا، والتي فُرضت علينا بالصُدفة. الصُدفة وحدها هي التي شاءت أن تجعلنا جديرات بمقاسمته حياته

t.me/qurssan

اليومية. ثمّ ينزلق الطعام عبر الحلقوم لكي يحطّ في هذا التجويف الذي هو المعدة. وبمقدار ما كان ذلك التجويف يمتلئ ويزداد اتساعاً، كنّا نُحكم القبضة على شوكاتنا. وقد كانت فطائر التفاح من اللذّة بحيث اغرورقت عيناي بالدموع، ورحت أملأ الملعقة أكثر فأكثر، وأبلع اللُّقَم تباعاً إلى أن اضطررت، على مرأى من غريماتي، إلى التراجُع برأسي إلى الخلف والتقاط أنفاسي.

كانت أمّي تقول إنّ الإنسان يأكل لكي يقاوم الموت. كانت تردّد هذا قبل هتلر، حين كنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية الموجودة في شارع 10 برونشتاين ببرلين. كانت تعقد شريطاً حول وزرتي وتنصحني بالحذر من الاختناق في مطعم المدرسة. ذلك أنّني كنت أتحدّث طوال الوقت في المنزل، حتّى لمّا يكون فمي ممتلئاً. كانت تقول لي: يا لك من ثرثارة! فأضحك حتّى أختنق من نبرتها الحزينة ومبادئها التربوية القائمة على تخويفي من الموت اختناقاً، كما لو أنّ كل حركة نأتيها تهدّدنا بالهلاك: الحياة في نظرها محفوفة بالمخاطر، والعالم مَصيَدة كبيرة.

بعد الفراغ من الأكل، اقترب منّا عنصران من الشرطة العسكريّة، فقامت المرأة الجالسة إلى شمالي واقفة. بادرها أحدهما:

- لا تقومي! الزمي مكانك!

تركت نفسها تسقط على المقعد كما لو أنّهما عالجاها بضربة مفاجئة. انفلتت من الدبوس إحدى ضفيرتيها الملويتين في شكل كعيكة، وتهدّلت تهدُّلاً خفيفاً.

- إلزَمنَ مقاعدكنّ. ستبقين جالسات بصمت إلى إشعار آخر. إذا كان الطعام مسموماً، سيظهر مفعوله سريعاً.

t.me/qurssan

وراح عنصر الشرطة العسكرية يتفرّسنا واحدة واحدة مترصّداً ردود أفعالنا. وحين لم يلاحظ شيئاً على وجوهنا، توجّه من جديد إلى تلك التي قامت، وكانت ترتدي فستاناً تقليدياً، ربّما بغرض إظهار إذعانها، وقال:

- اطمئنّي، لن يتجاوز الأمر ساعة واحدة. بعد ساعة ستسترجعن حرّيتكنّ.

علّق حارس آخر:

- أو تفارقن الحياة.

وشعرت بضيق في صدري. ذلك أن الفتاة ذات الوجنتين المحمرّتين أخفت وجهها بين راحتيها ومضت تغالب النحيب، فنهرتها المرأة السمراء الجالسة بجانبها متوعّدة بصوت مخنوق:

- ألن تكفّي؟

لكن جميع الفتيات في تلك الأثناء كنّ يبكين مثل تماسيح متخمة. أهو الهضم؟ من يدري.

همستُ:

- هل لي أن أسألك عن اسمك؟

لكنّ الفتاة لم تنتبه إلى كلامي. مددت ذراعي ولمست برفق معصمها. جفلت، ونظرَت إليّ نظرة كابية وقد امتقع وجهها. فكرّرت سؤالي:

- ما اسمك؟

رفعت رأسها نحو زاوية القاعة حَيرَى، لا تدري ما إذا كان الكلام مباحاً. لكنّ الحراس كانوا لاهين عنّا بعد أن تسرّب إليهم بعض الفتور مع اقتراب وقت الزوال. ولـمّا لاحظت أنّهم لا يراقبونها، أجابت بصوت هامس:

t.me/qurssan

- ليني، ليني وينتر.

فقلت لها:

- أنا اسمي روزا يا ليني. سترين، لن نتأخّر في العودة إلى بيوتنا.

كانت ليني بالكاد جاوزت الطفولة، وهو أمر واضح من رسغيها الممتلئين. كانت تملك وجه فتاة لم يمسسها بشر في مخزنِ حبوب.

بعد سفر أخي فرانز سنة 1938، جاء بي غريغور إلى هنا في غروس-بارتش لكي يقدّمني إلى والديه. كان يقول معتدّاً بالسكرتيرة البرلينية التي تعلّقت به، السكرتيرة التي تزوّجت من رئيسها كما يقع في الأفلام: ستفتنينهما.

كانت تلك الرحلة نحو الشرق على درّاجة نارية ثلاثية العجلات ممتعة. هيّا إلى الشرق! كما كانت تقول الأغنية التي لم تعد تذيعها مكبّرات الصوت يوم العشرين من أبريل فحسب، أي يوم عيد ميلاد هتلر، بل كلّ يوم.

كانت تلك هي أوّل مرّة أركب فيها العبّارة، وأسافر مع رجل. أنزلتني هيرتا في غرفة ابنها بعد أن صرفته إلى العليّة. وما إن نام والداه، حتّى فتح الباب وانحشر معي في الفراش، فهمستُ: كلا، ليس هنا! فأجابني: لنذهب إلى مخزن الحبوب إذاً. قلت وأنا ساهمة: غير معقول، ماذا لو علمت أمّك بالأمر؟

لم يسبق لنا أن مارسنا الجنس. لم يسبق لي أن مارست الجنس مع أحد.

داعبَ غريغور شفتَيّ بلطف راسماً بإصبعه محيطهما، ثمّ مضى يضغط أكثر فأكثر إلى أن انكشفت أسناني وانفتح فمي. كان بإمكاني

t.me/qurssan

أن أطبق فكّي وأعضّه، وهو ما لم يخطر له على بال، لأنّه كان دائماً يثق بي.

وفي الليل، لم أستطع صبراً، فصعدت إلى العليّة. وفي هذه المرّة، أنا من دفعت الباب بينما كان نائماً. قرّبت شفتَيّ المفتوحتين من شفتيه لكي تمتزج أنفاسنا، فاستيقظ. أدخلتُ إصبعاً ثمّ إصبعَين ثمّ ثلاثة بين فكّيه، فشعرت بفمه يتّسع، ولُعابه يبلّلني. الحبّ: فم لا يعضّ أو هو إمكانية إطباق الفكّين، فيكون غادراً مثل كلب ينقلب على صاحبه.

لمّا أمسك برقبتي ونحن بالعبّارة في طريق العودة، كنت أرتدي قلادة حجر أحمر. في النهاية لم نفعل ذلك في مخزن والديه، بل في غرفة ضيّقة من دون كوّة.

همسَت ليني:

- أنا بحاجة إلى الخروج.

لم يسمعها أحد سواي.

السمراء الجالسة بجوارها ذات وجنتين بارزتين وشعر لامع ونظرة قاسية.

قلت وأنا أداعب معصم ليني:

- اسكتي.

لم تنخلع هذه المرّة. ثمّ أضفتُ:

- لم يبقَ سوى عشرين دقيقة ونغادر.

ردّت بإصرار:

- لا بدَّ أن أخرج.

نظرت إليها السمراء شزراً، وقالت وهي تهزّها بعنف:

t.me/qurssan

- ألن تصمتي؟

فندّت عنّي صرخة خافتة، وقلت:

- ماذا تفعلين؟

التفت إليّ الحراس وقالوا:

- ماذا جرى؟

لم يكونوا وحدهم من التفتوا، بل النسوة أيضاً.

قالت ليني متوسّلة:

- من فضلك.

انتصبَ أمامي أحد الحراس، أمسك بذراعها وهمسَ في أذنها بفظاظة بشيء لم أسمعه. امتقع وجهها حتى كدت لا أتعرّفها.

سأل حارس آخر:

- أليست على ما يرام؟

قفزت المرأة التي ترتدي الفستان التقليدي من مكانها واقفة، وصاحت:

- الطعام مسموم!

وبينما وقفت النساء الأخريات، فارَ القيء من فم ليني على الأرض حتّى أنّه كاد يبلّل الحارس لو لم يتراجع.

اندفع الحرّاس خارج القاعة. نادوا على الطبّاخ واستجوبوه. الفوهرر على حقّ. الإنجليز يسعون إلى تسميمه. أمّا النسوة، فتعانقن. استندَ بعضهنّ على الجدار باكيات، بينما مضت السمراء تذرع الغرفة واضعة يديها على ردفيها، مصدرة صوتاً غريباً من أنفها. دنوت من ليني لكي أتحسّس جبينها بيدي.

كانت النسوة يمسكن ببطونهنّ، ليس ألماً، بل من الشبع، وهو أمر لم يكنّ متعوّدات عليه.

t.me/qurssan

احتفظوا بنا لأكثر من ساعة. ورغم أنّ الأرضية نُظّفت بورق الجرائد وممسحة، ظلّت تملأ المكان رائحة كريهة. أمّا ليني فلم تمت. كلّ ما في الأمر أنّها كفّت عن الارتعاش، ونامت واضعة يدها في يدي، مسندة خدّها إلى ذراعي مثل طفلة صغيرة. كنت أشعر ببطني ينتفخ ويغلي، لكنّني لم أحفل به من شدّة التعب. كان غريغور قد التحقَ بالجيش.

لم يكن نازياً مثلما لم نكن نحن أيضاً نازيين. لمّا كنت مراهقة، رفضت الانتماء إلى رابطة الفتيات الألمانيات. لم أكن أحب الوشاح الأسود الذي يوضع حول طوق القُمصان البيضاء. لم أكن أبداً ألمانية صالحة.

لمّا قدّر الحراس أنّ الوقت الذي يستغرقه الهضم قد نفد، أيقظوا ليني، وقادونا مصطفّات الواحدة خلف الأخرى إلى الحافلة التي أعادتنا إلى بيوتنا. كانت معدتي قد كفّت عن الغليان: أذعنتْ للاحتلال. امتصّ جسدي طعام الفوهرر، وصار بذلك يجري في دمي. لقد نجا هتلر، أما أنا فشعرت بالجوع من جديد.

t.me/qurssan

2

صرت في ذلك اليوم، وأنا بين جدران قاعة الطعام البيضاء، ذائقة طعام هتلر.

كان ذلك في خريف سنة 1943، وكنت في السادسة والعشرين من عمري. قطعت سبعمئة كيلومتر في رحلة استغرقَت خمسين ساعة. غادرت برلين إلى بروسيا الشرقية، مسقط رأس غريغور رغم أنه لم يكن معي. جمعت متاعي قبل أسبوع ورحلت إلى غروس-بارتش هرباً من الحرب.

طرقوا باب حماي وحماتي قبل يوم من دون سابق إنذار وقالوا إنهم يبحثون عن روزا ساور. لم ألمحهم حين وصلوا لأنّني كنت في الباحة الواقعة خلف المنزل، بل لم أسمع حتّى أزيز شاحنتهم الخفيفة التي ركنوها أمام باب البيت، لكنّني لاحظت الدجاجات تندفع في صخب نحو الخُمّ.

قالت هيرتا:

- تعالي، إنّهم يبحثون عنك.

- من؟

استدارت وقفلت راجعة دون أن تجيب. ناديت على الهرّ زارت فلم يأتِ. هرّ هجين يجول كلّ ليلة على القرية. تبِعتُ هيرتا وأنا

t.me/qurssan

أتساءل عمّن يبحث عنّي. فأنا لم أصل إلى هنا إلا منذ وقت قصير ولا أعرف أحداً. يا إلهي، أهو غريغور عاد؟ سألت بصوت عالٍ:

- أعاد زوجي؟

لكن هيرتا دخلت إلى المطبخ، ووقفت مديرة ظهرها إلى الباب، حاجبة ضوء النهار. أمّا جوزيف فكان واقفاً أيضاً، مستنداً بيده على المائدة وقد مالَ بجسده إلى الأمام.

«هايل هتلر!»، مدَّ شبحان داكنان ذراعيهما في الهواء بشكلٍ مستقيم باتجاهي.

رفعت ذراعي، لكن بعد أن تجاوزت عتبة الباب. وما أن تبدّدت العتمة عن وجهَيهما حتّى استوضحت رجلَين يرتديان لباساً رمادياً ضارباً إلى الخضرة. قال أحدهما:

- أأنت هي روزا ساور؟

أومأت مؤيّدة.

- الفوهرر محتاج إليك.

الفوهرر محتاج إليّ؟ لم يسبق أن رآني لا من بعيد ولا من قريب. كيف يعقل أن يحتاج إليّ؟

مسحت هيرتا يديها بوزرتها، واستطرد الجندي النازي يخاطبني دون أن ينظر إليّ، متفحّصاً هذه العاملة ذات البنية الجسدية المتينة، والمتمتّعة بصحّة جيّدة. صحيحٌ أنّ الجوع أضعفني قليلاً، وصفارات الإنذار حرمتني من النوم ليلاً، وأذبلَ الحِرمان عينَي، لكن وجهي كان مستديراً، يعلوه شعر كثيف أشقر: فتاة آرية هدّتها الحرب، منتوج وطني مئة في المئة، سيكون اختبارها أمراً رائعاً.

غادر أحد الجنديَّين الحُجرة.

سألَت هيرتا:

t.me/qurssan

- أأقدّم لكما شيئاً؟

سؤال جاء متأخراً على نحو لا يغتفر. لكن ما قد يشفع لها هو أن سكّان الريف لا يحسنون استقبال الضيوف المميّزين. واستقام جوزيف في وقفته.

أعلن الجندي الذي ظلّ صامتاً:

- سنعود غداً على الساعة الثامنة صباحاً. كوني جاهزة.

ثمّ غادر بدوره.

أهي غطرسة أفراد الشرطة العسكرية وترفّعهم؟ أم لأنّ قهوة جوز البلوط المحمّص لا تعجبهم؟ لكن لا بدَّ أن في البيت نبيذاً. زجاجة مخبّأة في القبو من أجل الاحتفال بعودة غريغور. مهما يكن، فهُما لم يلبّيا دعوة هيرتا التي جاءت متأخّرة قطعاً. أم تُراهما ببساطة يترفّعان عن النزوات، ويكبحان جماح شهواتهما، لأنّ النزوة ضعف، بينما هما مسكونان بقوة الإرادة. جأرا **هايل هتلر!** رافعَين ذراعيهما في الهواء كما لو أنّهما يشيران إليّ.

ما كادت الشاحنة الخفيفة تنطلق حتّى دنوتُ من النافذة. كانت آثار العجلات على الحصى تشير إلى طريق إدانتي. غيّرت النافذة ثمّ الغرفة، ورحت أتنقّل في أرجاء المنزل بحثاً عن نسمة هواء، عن مخرج، وجوزيف وهيرتا يسيران في إثري. **من فضلكما دعاني أفكّر، دعاني أتنفّس.**

من زوّدهم باسمي؟ حسب زعم الجنديَّين، هو العمدة الذي لا يعرف كلّ ساكنة هذه القرية الصغيرة فحسب، بل حتّى ضيوفهم.

أمسك جوزيف بلحيته ومضى يمسح عليها كما لو أنّه سيستلّ منها فكرة، وقال:

- لا بدَّ من العثور على حلّ.

t.me/qurssan

خدمة هتلر والتضحية بالنفس من أجله، ألم يكن هذا هو قدر كلّ ألماني؟ لكن أن آكل أطعمة مسمومة، وأموت بهذا النحو، من دون طلق ناري ولا انفجار، فهذا ما لم يتقبّله جوزيف. موت جرذ لا موت بطل. النساء لا يمُتن ميتة الأبطال.

قلت وأنا ألصق وجهي بزجاج النافذة:

- ينبغي أن أرحل.

كنت أحاول أن أتنفّسَ بعُمق، لكنّني أشعر في كلّ مرّة بألم حادّ في الترقوتين يقطع أنفاسي. غيّرتُ النافذة، إلا أنّ ألماً في الأضلاع ظلّ يحبس أنفاسي.

قلت لحماي وحماتي بلهجة ساخرة تشي بالعتاب، كما لو أنّهما هما من قدّما اسمي للشرطة العسكرية:

- قصدت هذا المكان متوهّمة بأنّ حالي سيكون أفضل، لكن ها أنذا أجدُ نفسي مهدّدة بالموت سمّاً.

أعلن جوزيف:

- ينبغي أن تختبئي، أن تلجئي إلى مكان ما.

واقترحت هيرتا:

- في الغابة.

- أين سأختبئ في الغابة؟ لكي أموت من البرد والجوع؟

- سنأتيكِ بالطعام.

وأضاف جوزيف مؤمّناً على كلامها:

- نحن لن نتخلّى عنك بالطبع.

- وإذا بحثوا عنّي؟

نظرت هيرتا إلى زوجها وسألت:

- هل سيبحثون عنها في نظرك؟

t.me/qurssan

ردّ جوزيف بتحفّظ:

- لن يروقهم ذلك بالطبع...

ووجدت نفسي في موقف سخيف، فارّة من جيش لا أنتسب إليه.

ثمّ أضاف:

- لماذا لا تعودين إلى برلين؟

فقالت هيرتا مجارية:

- أجل، عودي إلى بيتك. لن يتعقّبوك حتّى هناك.

- لم يعد لي بيت في برلين. أنسيتما؟ ما كنتُ لآتي إلى هنا لو كان لي بيت في برلين!

تجمّدت ملامح هيرتا. فقد تجاوزتُ حدود الحشمة التي يفرضها دورانا، لا سيّما أنّنا بالكاد تعارفنا.

- المعذرة، لم أقصد...

- لا بأس.

صحيح أنّني أسأتُ الأدب، لكنّني فتحت بالمقابل المجال لنشوء الأُلفة بيننا. وشعرت بها قريبة منّي لدرجة أنّني وددت لو أتشبّث بأهدابها وأقول لها دعيني بجانبك، واشمليني بعنايتك.

وسألتُ:

- وأنتما؟ إن لم يعثروا عليّ، ستتّهمان بالتواطؤ معي.

أجابت هيرتا قبل أن تبتعد:

- سنعرف كيف نخلّص نفسينا من الورطة.

أزال جوزيف يده من لحيته، وسأل:

- ماذا ستفعلين؟

t.me/qurssan

أفضّل الموت في مكان بعيد على الموت في مدينتي التي لم يعد لي فيها أحد.

في اليوم الثاني من حياتي كذائقة استيقظت عند الفجر. بدأ الديك يصيح فصمتت الضفادع فجأة، كما لو أنّها غطّت جميعها في النوم دفعة واحدة. عندئذ شعرت بالوحدة بعد ليلة لم يغمض لي فيها جفن. لاحت لي الهالتان السوداوان حول عينيّ في زجاج النافذة، فتعرّفت صورتي. هاتان الدائرتان الداكنتان لم يسبّبهما الأرق أو الحرب، بل هما تعلوان وجهي دائماً. كانت أمّي تأمرني قائلة: أغلقي هذه الكُتب، فسحنتك صارت أشبه بعجين الورق. وكان أبي يسأل بقلق: ألا تعاني من نقص في الحديد، يا دكتور؟ وكان أخي يحكّ جبينه بجبيني لأنّ هذا الاحتكاك الناعم يساعده على النوم. وقد رأيت على زجاج النافذة نفس عينَي طفولتي المكدودَتين، وأدركت أنّهما نذير شؤم.

خرجت لأبحث عن الهرّ زارت الذي كان نائماً وهو متكوّم بجانب شبّاك خُمّ الدجاجات كما لو أنّه مسؤول عنها. وإذا كان هو حريص -شأن سادَة الزمن القديم- على عدم السهو عن إناثه، فإنّ غريغور، بالمقابل، تركني ورحل: اختار أن يكون ألمانياً صالحاً لا زوجاً صالحاً.

أوّل مرّة خرجنا فيها معاً، ضرب لي موعداً أمام مقهى قريب من الكاتدرائية، ووصل متأخّراً. جلسنا إلى مائدة على الرصيف في الهواء المنعش رغم الشمس الساطعة. ورحتُ أتسلّى بالبحث عن لحنٍ موسيقي في شَدْو الطيور، وعن تعبير راقص في طيرانها، تؤدّيه من أجلي أنا وحدي، من أجل هذه اللحظة التي طالما انتظرتها،

t.me/qurssan

لحظة تجسّد الحبّ كما تصوّرته في مراهقتي. وانفصلَ طائر عن السرب ليندفع بمفرده مزهوّاً كما لو أنّه يهمّ بالغوص في نهر شبريه، ملامساً صفحة الماء بجناحَيه المبسوطَين، ثمّ يصعد إلى الأعلى فوراً: لم تكن تلك سوى رغبة مفاجئة في الهرب، انفلات لا مبالٍ، حركة اندفاع تخلّقت في غمرة النشوة، وهي نشوة شعرت بها تطقطق في ربلتَي ساقَي. وأحسستُ بالانتشاء وأنا جالسة في شرفة أحد المقاهي قبالة رئيسي المهندس الشاب. ها هي السعادة تبدأ.

طلبت قطعة حلوى بالتفّاح لم ألمسها، وهو أمر انتبه إليه غريغور: ألا تعجبك؟ ضحكتُ: لا أدري. ودفعت صحني أمامه. لكنّني ما كدت أراه يلتهم اللقمة الأولى على عجل كعادته، حتّى استيقظت شهيّتي. تنازلت إذاً قطعة صغيرة، ثمّ أخرى، وألفينا نفسينا نأكل من الصحن نفسه ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ونخوض في مواضيع شتّى دون أن ينظر أحدنا في الآخر، كما لو أنّ الأُلفة بيننا قديمة، إلى أن اصطدمت شوكتانا، فتوقّفنا، ورفعنا رأسينا، وتبادلنا نظرة طويلة بينما كانت الطيور لا تزال ترفرفُ في الهواء أو تحطّ متعَبة على الأغصان والدرابزين وأعمدة الإنارة، أو تندفع، ربّما، موجِّهة منقارها نحو النهر لتغوص ولا تصعد إلى السطح أبداً. ثمّ ضغط غريغور بشوكته على شوكتي عمداً، فشعرت كما لو أنّه لمسني.

جاءت هيرتا لكي تجمع البيض في وقت متأخّر عن عادتها: لعلّها سهدت هي الأخرى هذه الليلة، فلم تستيقظ باكراً. وجدتني متسمّرة على الكرسي الحديدي الصدئ وزارت نائم على قدمي، فجلستْ إلى جواري، ونسيَت الفطور.

صرّ الباب، فسألت:

t.me/qurssan

- هل وصلوا؟

أومأ جوزيف وقد استندَ على عِضادة الباب مجيباً بالنفي. أشارَ بسبابته وقال:

- البيض.

تبعه زارت، فافتقدت دفئه.

كانت أشعّة الفجر تطلع متماوجة، كاشفةً عن سماء شاحبة منهكة. ومضت الدجاجات تقيق والطيور تزقزق والنحل يطنّ ضدّاً على هذا الضوء الذي يصيبك بالصداع. لكن ما إن سمعت صرير عجلات سيارة تتوقّف حتى لذتُ بالصمت. وسمعنا أحد أفراد الشرطة العسكرية يقول:

- هيا، انهضي يا روزا ساور!

قمنا أنا وهيرتا بقفزة واحدة، بينما مضى جوزيف حاملاً البيض دون أن ينتبه إلى أنّه ضغط بشدة على إحداها فتكسّرت: تصدّعت فاندلقَ بين أصابعه سائل لزج ذو لون برتقالي برّاق. لم أستطع أن أحوّل عنه بصري. يسيل على البشرة ثمّ يسقط بلا صوت على الأرض.

صاح حرّاس الشرطة العسكرية:

- أسرعي يا روزا ساور!

دفعتني هيرتا من الخلف فتقدّمت.

كنت أفضّل أن أنتظر عودة غريغور، وأصدّق بأنّ الحرب ستنتهي. كنت أفضّل أن آكل.

صعدت إلى الحافلة، ألقيت نظرة خاطفة وجلست في أحد المقاعد الأولى الفارغة بعيداً عن النساء الأخريات. كنّ أربع،

t.me/qurssan

جلست اثنتان معاً بينما جلست الأخريان متباعدتين. لم أكن أعرف أسماءهنّ. لا أعرف سوى اسم ليني التي لم تكن قد ركبت بعد.

لم تردّ أيّ منهنّ تحيّتي، ورحت أنظر إلى هيرتا وجوزيف من خلال النافذة التي تناثرت عليها قطرات من المطر. رغم التهاب مفاصلها، كانت تقف عند الباب وتلوّح بذراعها، بينما يمسك جوزيف في كفّه البيضة المكسورة. ورست عيناي على المنزل، على قرميده الذي سوّدته الطحالب وطلائه الوردي ودغل نبات الناردين المزهر على أرضه العارية إلى أن اختفى عند المنعطف. كنت أنظر إليه كلّ صباح كما لو أنّني أراه لآخر مرّة. ثمّ تبدّد الجزع.

كان مركز القيادة العامة برازتنبورغ يبعد بثلاثة كيلومترات عن غروس-بارتش، متوارياً بين الأشجار بحيث لا يظهر من الجوّ. يحكي جوزيف أنّه حين شُرع في بنائه، تساءل الناس عن دوريات الحافلات والشاحنات التي كانت تجوب المكان. ورغم أنّ السوفييت لم ينجحوا قطّ في اكتشاف هذا الموقع، إلا أن الناس كانوا يعلمون أنّ هتلر موجود هناك، وأنّه ينام على مقربة منهم، وأنه خلال الصيف يتقلّب بلا شكّ في فراشه، يطارد البعوض الذي يفسد عليه نومه. هو أيضاً يمعن في حكّ البثور الحمراء وقد توزّعته الرغبتان المتناقضتان اللتان تنتابان من لُسع: لا يحتمل رؤية بشرته مرقّطة بالبثور، لكنه يستطيب الحكّ مع علمه أنّه يمنع الشفاء.

كانوا يسمّونه «وكر الذئب»، لأنّ القائد كان يلقّب بـ«الذئب». ورغم أنّني لم أكن أقلّ ذكاء من ليلى في قصة ليلى والذئب، فقد ألفيت نفسي في بطنه. ثمّة جيش من الصيّادين يسعون للقضاء عليه، ولبلوغ مرماهم لن يتردّدوا في قتلي أنا أيضاً.

t.me/qurssan

3

بعد وصولنا إلى كراوزندورف، أمام مدرسة مشيّدة من القرميد الأحمر حُوِّلت إلى ثكنة، أمرونا بالنزول والاصطفاف الواحدة خلف الأخرى، والسير في نظام. اجتزنا الرَّدهة كبقرات طيّعة، وحين بلغنا الممرّ، أوقفونا وشرعوا في تفتيشنا. كم كان شعورنا بغيضاً ونحن نحسّ بأيديهم تتوقّف طويلاً لتحسّس أردافنا وتحت آباطنا دون أن نستطيع شيئاً سوى قطع أنفاسنا.

نادوا بأسمائنا، وعلّموا عليها في سجلّ، واكتشفت أنّ السمراء التي نهرت ليني تُدعى إلفريد كون.

شرعوا يدخلوننا مَثْنَى مَثْنَى إلى حُجرة تفوح برائحة الكحول، بينما تركوا الأخريات ينتظرن دورهنّ في الخارج. وضعت مرفقي على طاولة مدرسيّة، فحزم رجل بوزرة بيضاء رباطاً حول ذراعي، وربت على بشرتي بطرف سبابته وإبهامه. أيقنت أنّ أخذ عيّنة من دمنا يحوّلنا على نحو لا رجعة فيه إلى فئران تجارب. إذا كان اليوم السابق قد بدا كما لو أنّه بروفة، فلن نستطيع ابتداء من هذا اليوم التنصّل من وظيفتنا كذائقات.

لمّا وخزَت الإبرة وريدي، أشحت بوجهي. كانت إلفريد بجواري تتأمّل الحقنة التي تمتصُّ دمها، وتمتلئ بسائل تشتدّ حمرته أكثر فأكثر. ما استحملت يوماً النظر إلى دمي: رؤية هذا السائل

t.me/qurssan

القاني خارجاً منّي، تصيبني بالدوار. لذلك رحت أحدّق فيها، ،هيئتها المتصلّبة، وسحنتها اللامبالية، وحدست جمال هذه المرأة .ون أن أراه، كقانون رياضي ما زال بحاجة إلى برهنة.

ودون أن أنتبه، تحوّلت صورتها إلى وجه قاسٍ يرشقني بنظراته. وبينما نفخت منخاريها كما لو أنّ الهواء نفد، فتحتُ فمي لكي اتنفّس دون أن أقول شيئاً.

ضغط الشخص ذو الوزرة البيضاء قطعة قطن على ذراعي وقال:

- أمسكيها!

سمعت فرقعة الرباط وهو يحرّر إلفريد، وصرير المقعد وهو يكشط الأرضية، فقمت واقفة أنا أيضاً.

حين أدخلونا إلى قاعة الطعام، انتظرت أن تجلس الأخريات. عاد معظمهنّ إلى الأماكن نفسها التي شغلنها في اليوم السابق. وبما أنّ الكرسي المواجه لليني ظلّ فارغاً، قعدتُ عليه.

بعد طعام الفطور، وهو عبارة عن لبن وفواكه، قدّموا لنا طعام الغداء. كان من نصيبي بَرنيّة من حساء نبات الهليون. وقد فهمت مع مرور الزمن أنّهم تشديداً للمراقبة، يشكّلون تشكيلات من الأطعمة، ويوزّعونها على مجموعات متباينة.

رحتُ أتأمّل القاعة بنوافذها وشبابيكها الحديدية، والباب المفضي إلى الساحة التي يلازمها حرّاس على الدوام، والجدران العارية من اللّوحات، كما يتأمّل المرء مكاناً غريباً. لمّا تركتني أمّي وانصرفت يوم التحقت بالمدرسة لأوّل مرّة، حزنت من أن يصيبني مكروه في غيابها. لم يكن مصدر حزني هو التهديد الذي يمثّله لي هذا العالم بقدر ما كان عجز أمّي. ما كنت أستسيغ أن تمضي حياتي

t.me/qurssan

في غفلة من أمّي. كنت، وأنا لا أزال في هذا السنّ، أعتبر أنّ إخفاء شيء عن أمّي، حتّى لو كان من دون قصد، يشكّل خيانة. مضيت أبحث وأنا في الصفّ عن صدع في الجدار أو عن نسيج عنكبوت أو أيّ شيء آخر يمكن أن أعدّه سرّاً من أسراري. جالت عيناي في الحُجرة التي بدت لي بالغة الشساعة، ولاحظتُ أنّ قطعة من إزار الجدار منزوعة، فهدّأ ذلك من روعي.

كان إزار الجدران في قاعة كراوزندورف سليماً. انتابني شعور بالوحدة لأنّ غريغور غائب. كان وقع أحذية الحرّاس يفرض إيقاعه على الوجبة، ويذكّرنا بالعدّ العكسي لموتنا المحتمل. **ما ألذّ هذا الحساء! لكن، هل مذاق السمّ مرّ؟** كنت ألتهم الطعام وقلبي يوشك أن يتوقّف.

كانت إلفريد تأكل الهليون مثلي وتراقبني وأنا أبالغ في شرب الماء لعلّ ذلك يذيب جزعي. ربّما فستاني هو ما أثار فضولها. كانت هيرتا على حقّ حين نبّهتني إلى أنّ زخرفة هذا الثوب ذي المربعات البيضاء والسوداء غير لائقة. فأنا لست ذاهبة إلى المكتب، وحياة برلين ولّت. نصحتني حماتي: **تجنّبي لباس المدينة وإلا نظر الناس إليك شزراً.** لم تنظر إليّ إلفريد شزراً، أو لعلّها نظرت. لكنّني اخترت الفستان الذي يريحني، والذي كنت أكثر من ارتدائه حتّى سمّاه غريغور بزّة العمل. لم أكن ألبسه لأنّه يناسبني أو يجلب لي الحظّ. كلّ ما في الأمر هو أنّني كنت أحتمي به، بما في ذلك من إلفريد التي كانت تتفرّسني دون أن تتحرّج، متفحّصة المربّعات بعنف كاد يمسحها ويفتق خياطتها، وأوشك أن يفتح سحّاب حذائي ذي الكعب العالي، ويزيل التموّج الذي يرسمه شعري على صدغي. كلّ ذلك وأنا لا أكفّ عن الشرب، شاعرة بانتفاخ مثانتي.

t.me/qurssan

لم تكن النسوة قد فرغن من الأكل، ولم أكن أعرف ما إذا كان مسموحاً لنا بمغادرة المائدة. كانت مثانتي تؤلمني مثلما كان يحدث لي في قبو بودينغاس حيث كنّا نلوذ أنا وأمّي وسكّان العمارة عندما كانت تدوّي صفارات الإنذار. قمت واقفة دون أن أشعر، واستأذنت بالذهاب إلى المرحاض. لم يمانع الحرّاس. وبينما رافقني أحدهم، رجل فارع، سمعت، وأنا في الممرّ، صوت إلفريد يقول: «أنا أيضاً أودّ الذهاب إلى المرحاض».

كان البلاط مليئاً بالثقوب، والوصلات بين مربّعاته مسودّة. دخلنا إلى المراحيض بينما ظلّ الجندي في الممرّ ينتظرنا. أغلقتُ عليّ في إحدى دورات المياه. لم أسمع باباً يغلق ولا صوت ماء يتدفّق. كانت إلفريد كما لو أنّها اختفت أو حبست أنفاسها. وشعرتُ بالخجل من صوت بولي في ذلك الصمت المطبق. وحين هممت بفتح الباب، تنبّهت إلى أنّها تسدّه بطرف حذائها. أمسكتْ كتفي بيدها، وثبّتتني على الجدار. كانت مربّعات البلاط تفوح برائحة موادّ التنظيف، وقرّبت وجهها من وجهي بلطف، ثمّ سألتني:

– ماذا تريدين؟

– أنا؟

– لماذا كنت تنظرين إليّ حين كانوا يأخذون عيّنة من دمي؟

حاولت أن أتخلّص من قبضتها بلا جدوى.

– أنصحك بأن تهتمّي بشؤونك. من الأفضل أن تنشغل كلّ واحدة هنا بما يعنيها.

– لا أطيق رؤية دمي.

– وتطيقين رؤية دم الآخرين؟

جعلتنا ضربة عنيفة على الباب ننخلع من مكاننا، فتراجعت إلفريد.

t.me/qurssan

سألَ الحارس من الخارج قبل أن يدخل:

- ماذا تصنعان؟

أحسست بمربّعات البلاط على الجدار مبلّلة وباردة. لا أعرف أبسبب الرطوبة أم هو العرق المتصبّب من ظهري.

- أتتآمران؟

كان ينتعل حذاءً طويلاً ضخماً يصلح لسحق رأس أفعى.

غمغمت وأنا أدعك النقطة الحمراء البارزة على الوريد المنتفخ في مرفقي:

- شعرت بوعكة، ربّما بسبب الدم الذي أُخذ منّي، وقد هبّت لمساعدتي. الآن أشعر بتحسّن.

قال لنا إنّه إن فاجأنا ثانية في وضع حميمي كهذا، سيلقّننا درساً لن ننساه، أو بالأحرى سيغتنم الفرصة. ولاحت على وجهه ضحكة غير متوقّعة.

عدنا إلى قاعة الطعام والحارس في إثرنا مترصّداً دون أن يعرف شيئاً ممّا وقع.

لم تكن العلاقة بيني وبين إلفريد علاقة حميمية، بل علاقة خوف. ورحنا نتفحّص النساء الأخريات والفضاء من حولنا بذُعرٍ لا شعوري شبيه بما يشعر به الجنين الخارج للتوّ من بطن أمّه.

وفي المساء وأنا في مرحاض حماي وحماتي، ذكّرتني رائحة الهليون المنبعثة من بولي بإلفريد. هي أيضاً ستشمّ هذه الرائحة وهي جالسة في مرحاضها، والأمر نفسه بالنسبة إلى هتلر في ملجئه الحصين في وكر الذئب. بول هتلر وبولي في ذلك المساء كانا يفوحان بالرائحة نفسها.

t.me/qurssan

4

ولدت يوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر من سنة 1917، قبل سبعة عشر شهراً من نهاية الحرب الكبرى. كنت كهدية عيد ميلاد جاءت متأخّرة عن موعدها. كانت أمّي تقول إنّ القدّيس نيكولا (بابا نويل) نسيني في عربته. ذلك أنّه لم يرني من شدّة ما كنت ملفوفة في الأغطية. ولمّا سمع صراخي، عادَ إلى برلين على مضض. كانت عطلته قد بدأت، وهذه الهديّة التي لم تكن في الحسبان أحنقته. ويقول أبي من حسن الحظّ أنّه انتبه إليّ. فقد كنتِ هديّتنا الوحيدة تلك السنة.

كان أبي موظّفاً في سكّة الحديد، وأمّي خيّاطة. كانت أرضية غرفة المعيشة مكسوّة دائماً ببكرات الخيط من كلّ الألوان. كانت تلحس طرف الخيط لتسهّل إدخاله في ثقب الإبرة، وكنت أحاكيها. أضع قطعة خيط في فمي خلسة، وأديرها في فمي متحسّسة كتلتها بلساني، ولم أكن أستطيع مقاومة فكرة بلعها واكتشاف ما إذا كانت ستقتلني حين تصل إلى معدتي. كنت أقضي الدقائق الموالية مترقّبة علامات موتي الوشيك، على أنني سرعان ما كنت أنسى الواقعة بما أنّ ذلك لا يقتلني توّاً. وفي الليل أفكّر فيها، متيقّنة من أن ساعتي الأخيرة حلّت. لقد بدأتُ لعبة الموت هذه مبكّراً جدّاً رغم أنّني لم أفضِ بها لأحد قطّ.

t.me/qurssan

كان أبي ينصت للمذياع في المساء بينما تكنس أمّي الخيوط المتناثرة على الأرض قبل أن تخلد إلى سريرها برفقة جريدة Deutsche Allgemeine Zeitung، متلهّفة لقراءة حلقة جديدة من سلسلتها المصوّرة المفضّلة. هكذا كانت طفولتي: النوافذ المطلّة على بودينغاس وزجاجها المغشّى بالبخار، جدول الضرب المحفوظ عن ظهر قلب في فترة مبكّرة، الذهاب إلى المدرسة مشياً بأحذية أكبر من مقاس قدمي أو أصغر منه، رؤوس النمل المقطوعة بين ظفرين، أيّام الآحاد في الكنيسة مع والدي ووالدتي، هي تقرأ أحد المزامير وهو رسالة بولس إلى أهل كورينثوس، وأنا جالسة على المقعد بجانبهما أنصت، موزّعة بين الزهو والملل، عيناي نصف مغمضتين من اللذّة وفي فمي قرش، بينما يَخِزُني معدنُه المالح، أدفعه بلساني إلى مدخل بلعومي محافظة عليه هناك في نوع من التوازن الحذر، مستعدّة لبلعه، ثمّ ألفظه فجأة. تتلخّص طفولتي في الكُتُب الموضوعة تحت وسادتي، وترانيم الأطفال التي كان ينشدها لي والدي، ولعبة الغميضة في الشارع وحلوى أعياد الميلاد التقليدية، والنزهات في حديقة الحيوان ببرلين، ويوم اقتربت من مهد فرانز وأدخلت كفّه بين أسناني وعضضت. استيقظ أخي صارخاً كما يفعل كلّ الرضّع، لكن لا أحد علمَ بما فعلت به.

كانت طفولة مفعمة بالأفعال الآثمة والأسرار. أسرار كان يشغلني إخفاؤها عن الاهتمام بالآخرين. لم أحفل بالكيفية التي يحصل بها والداي على اللّبن الذي كان يباع بمئات الماركات، ثمّ الآلاف، أكانا يتحدّيان الشرطة ويسرقان محلّات البقالة. ولم أتساءل لسنوات عمّا إذا كانا يشعران بالإهانة من معاهدة فرساي، وإذا كانا يكرهان الولايات المتحدة مثل جميع الناس، ويشعران

t.me/qurssan

بأنّهما أدينا ظلماً من أجل حرب شارك فيها والدي - إذ أمضى ليلة كاملة في حفرة مع أحد الفرنسيين، وانتهى به الأمر أن غفا بجانب جثته.

في هذه الفترة التي كانت فيها ألمانيا تُراكِم الجراح، كانت أمّي تبلّل إبرتها زامّة شفتيها، بحيث يبدو وجهها كوجه سلحفاة تتسلّى، وأبي ينصت، بعد العودة من العمل، للمذياع وهو يدخّن، بينما ينام فرانز في مهده طاوياً ذراعه وواضعاً يده قرب أذنه، وأصابعه الصغيرة مشدودة على راحته الغضّة.

أمّا أنا فألزم غرفتي أحصي أخطائي وأسراري دون أن يراودني أيّ شعور بالندم.

t.me/qurssan

5

قالت ليني بنبرة شاكية: «لست أفهم شيئاً». كنّا في قاعة الطعام جالستَين إلى المائدة وقد خُلِّصَت من صحون العشاء، والكُتُب مفتوحة أمامنا، وبأيدينا أقلام زوّدَنا بها الحرّاس.

- هناك الكثير من الكلمات المستعصية.

- مثل ماذا؟

- خمير، كلا، بالأحرى خريم، انتظري.

راجعت ليني إحدى الصفحات، وقالت:

- خميرة اللُّعاب، والكلمة الأخرى: بيبسين، كلا، مولد البيبسين.

في ثامن يوم على بدايتنا، قدِم الطبّاخ إلى قاعة الطعام ووزّع علينا كُتباً حول الغِذاء، وطلب منّا قراءتها. قال إنّنا نقوم بمهمة جليلة تستلزم امتلاكنا للمؤهّلات المطلوبة. قدّم لنا نفسه تحت اسم أوتو غونتر، لكنّنا كنّا نعلم أنّ الحرّاس يلقّبونه كرومل، أيّ الفُتات، ربّما لأنّه كان ضئيلاً مهزولاً. لمّا وصلنا إلى الثكنة، كان منهمكاً بهمّة مع فريقه في إعداد وجبة الفطور التي كنّا سنتناولها بعد لحظات، بينما لم يكن هتلر يجلس إلى مائدته إلّا حوالي العاشرة بعد أن يكون قد تلقى أخبار الجبهة. وفي حوالي الحادية عشرة، كنّا

t.me/qurssan

.تناول ما يمثّل وجبة غدائه. بعد انتظار ساعة، يرجعوننا إلى بيوتنا على أن يعودوا إلينا على الساعة الخامسة لكي نجرّب وجبة العشاء.

في الصبيحة التي وزّع علينا فيها كرومل الكُتب، تصفّحتْ إحدى الذائقات بعض الأوراق وتنهّدت وهي تهزّ كتفيها. كتفان عريضتان مربّعتان، غير متناسبتَين مع الكعبين الدقيقين اللذين تكشف عنهما تنورتها السوداء -كان اسمها أوغيستين- بينما شحب لون ليني كما لو أنّها أُخبِرت بفرض مدرسي هي واثقة سلفاً من الرسوب فيه. أمّا أنا، فوجدت في تلك الكتب ضرباً من العزاء، لا لإيماني بفوائد التعرّف إلى مراحل الهضم، ولا طمعاً في التألّق، بل لأنّ هذه الترسيمات والجداول يمكن ببساطة أن تشغلني، وتعيد لي الشغف بالتعلّم الذي طالما لازمني، فأتوَهّم من ثمّة بأنّ هويّتي ما زالت كما هي.

قالت ليني:

- لن أتمكن من قراءة هذا أبداً. هل تظنّين أنّهم سيستجوبوننا؟

فأجبتها وأنا أبتسم:

- هل ترين الحرّاس جالسين إلى المكاتب متأهّبين لكي يمنحونا علامات؟ فكّري قليلاً!

ابتسمت لي بدروها وقالت:

- ربّما يطرح علينا الطبيب أسئلة مفخّخة حين سيأخذون عيّنات من دمنا في المرّة القادمة؟

- سيكون الأمر مضحكاً.

- ما المضحك في الأمر؟

فقلت وقد انتابني مرح غامض:

t.me/qurssan

- يتهيّأ لي أنّني أتجسّس على أمعاء هتلر. بإمكاننا أن نعرف على وجه التقريب الوقت الذي تتمدّد فيها عضلة مؤخّرته العاصرة.

- يا للقرف!

لم يكن ذلك مقزّزاً. فهو إنسان. أدولف هتلر كائن إنساني يهضم ما يلتهم من طعام.

- ألن تكففن عن الكلام لكي تتعلّمن؟ إذا فرغت الأستاذة من الدرس، ينبغي أن تصفّقن.

أوغيستين هي من تكلّمت، المرأة ذات الكتفَين المربّعتَين، المتّشحة بالسواد. لم يكن الحرّاس يفرضون علينا لزوم الصمت: الطبّاخ هو من أراد أن تتحوّل قاعة الطعام إلى قاعة درس، وهي إرادة يلزم أن تحترم.

قلت وأنا أخفض رأسي:

- آسفة، لم أقصد إزعاجك.

- نحن نعلم أنّك درست في المدينة.

تدخّلت إيلا قائلة وهي تضحك لوحدها:

- وأنت، ماذا يعنيك من دراستها؟ هي الآن هنا، تأكل مثلنا أطباقاً لذيذة بالكاد زالت عنها شبهة السم.

كانت إيلا جميلة، بقدّها الممشوق، ونهديها النافرين، مثل قطعة حلوى شهيّة كما كان يقول الحرّاس. كانت تقصّ صور ممثّلات من صفحات المجلات، وتلصقها على كراسة، كانت تتصفّحها أحياناً، وتعلّق قائلة: انظرن إلى وجنتَي آني أندرا التي تزوّجت من ماكس شميلنغ الملاكِم، وشفتي إلسي وورنر الناعمتين الممتلئتين، المتغضّنتين بينما تصدحان في المذياع بلازمة أغنية Sing ein Lied wenn Du mal traurig bist، إذ يكفي أن يغنّي

t.me/qurssan

المرء أغنية لكي يتخلّص من الحزن والوحدة، وهو أمر كان لا بدّ أن يعرفه الجنود الألمان. لكن أثيرة إيلا هي الممثّلة سارة ليندر في فيلم «La Habanera»، بحاجبيها المقوّسين وخصلة شعرها المسطّحة على الصدغ.

قالت لي:

- أنت محقّة في ارتداء أزهى حللك وأنت قادمة إلى الثكنة.

كنت أرتدي يومذاك فستاناً أحمر زاهياً بطوق دائري أبيض وكمّين فضفاضين، خاطته لي أمّي.

ثمّ أضافت:

- على الأقل إن متّ، ستموتين وأنت في أبهى فساتينك. ستوفّرين عليهم عناء تجهيزك قبل دفنك.

فاعترضَت عليها ليني:

- لماذا تصرّين دائماً على قول الفظاعات؟

كانت هيرتا على حقّ. فمظهري يزعجهنّ. لم تكن إلفريد وحدها من تضايقت من لباسي إذاً. هي من تفرّست في اليوم الثاني مربّعات فستاني، ها هي الآن مستغرقة في القراءة مسندة ظهرها إلى الجدار، وواضعة القلم بين شفتيها مثل سيجارة. يخيّل لمن يراها أنّها تجد مشقّة في الجلوس، وأنّها متأهّبة دوماً للمغادرة.

سألتُ إيلا:

- أأعجبك هذا الفستان؟

تردّدت ثمّ أجابت:

- يبدو غير مريح، لكن طراز خياطته باريسي. هو على كلّ حال أفضل من الفستان التقليدي الذي يسعى فرو غوبلز إلى فرضه علينا.

t.me/qurssan

ثمّ خفضت صوتها وأضافت:

- كالذي تلبسه تلك.

وأومأت بعينيها إلى الجالسة بجواري، تلك التي قامت واقفة بمجرّد الفراغ من الأكل أوّل يوم. لم تسمعها غيرترود.

ضربت أوغيستين يدها على المائدة وقالت وهي تندفع مبتعدة:

- ما هذه التفاهات؟!

وحين شعرت بأنّ الكيفية التي انسحبت بها من المحادثة لا تخلو من فظاظة، اقتربَت من إلفريد، لكن إلفريد لم ترفع عينيها عن الكتاب.

كرّرتُ السؤال ثانية:

- أأعجبك إذاً أم لم يعجبك؟

وأجابت بمشقّة أنّه أعجبها، فقلت:

- حسناً، فهو لك.

سمعت صوت تمطّق فرفعت عينَيّ. كانت إلفريد قد أغلقت كتابها، وشبكت ذراعيها والقلم لا يزال في فمها. فقالت أوغيستين وهي تضحك بخبث عساها تظفر بتواطؤ إلفريد:

- والآن؟ هل ستتعرّي أمام الملأ كما فعل القديس فرانسوا، وتهدينه إياها؟

لكن إلفريد لم تحرّك ساكناً.

قلت لإيلا:

- سآتيك به غداً إن شئتِ أو بالأحرى سأغسله أوّلاً ثمّ آتيك به.

وسمعت الهمسات تسري في القاعة. ابتعدَت إلفريد من الجدار وجاءت لتجلس قبالتي. تركت كتابها يسقط في صخب، ووضعت

t.me/qurssan

أصابعها على المائدة وراحت تنقر على غطائها وهي تحدّق فيّ.
تبعتَها أوغيستين واثقة من أنّها ستنتقدني على نحو لاذع، لكن إلفريد كفّت عن النقر ولزمت الصمت. فقالت أوغيستين:

- رحلت من برلين من أجل العمل الخيري. تجمع بين دراسة البيولوجيا والإحسان المسيحي: تثابر من أجل أن تكون الفضلى بيننا.

قالت إيلا:

- أعجبني كثيراً.

فأجبت:

- سآتيك به.

تمطّقت أوغيستين. سأكتشف لاحقاً أنّ تلك هي طريقتها في التعبير عن الاستهجان.

- أفّ منكما!

قال الحرّاس بنبرة آمرة:

- اصطففن! الساعة قد انقضت.

هبّت النساء واقفات، واندفعن لغسل أيديهنّ. رغم أنّهنّ وجدن مشهد أوغيستين مسلّياً، إلا أنّ الرغبة في مغادرة المطعم كانت أقوى. ظفرن بيوم آخر. سيعدن إلى بيوتهنّ سالمات.

وبينما هممت باللحاق بالطابور، لمسَت إيلا مرفقي وهي تتجاوزني، وقالت:

- شكراً.

وقفَت إلفريد خلفي، وقالت:

- لسنا في مدرسة داخلية للبنات في برلين. نحن هنا في ثكنة.

تفاجأت من نفسي وأنا أجيبها:

t.me/qurssan

- اهتمي بشؤونك، ألم تقولي إنّ على كلّ واحدة هنا أن تهتمّ بشؤونها؟

كان جوابي أقرب إلى الاعتذار منه إلى الاستفزاز. لا أعرف لماذا كنت أميل إلى مجاراة إلفريد عوض معاكستها.

فردّت:

- على كلّ حال، لم تخطئ تلك الصبية: هذه الكُتب ليست مضحكة، اللّهم إذا كانت معرفة مختلف أنواع التسمّم تستهويك. أيروقك الاستعداد للموت؟

واصلت السير دون أن أجيب.

وفي مساء اليوم نفسه، غسلت الفستان الأحمر الزاهي لأسلّمه لإيلا. لم تكن تلك الهدية عملاً خيرياً كما لم تكن طريقة لكسب تعاطفها. لقد توخّيت منها استنبات أسلوب حياتي البرلينية في غروس-بارتش، ومن ثمّة افتقاده. إنّه ضرب من الاستسلام.

حين جفّ بعد ثلاثة أيّام، كويته ولففته في ورق الجرائد وسلّمته لها. على أنّني لم أرَه عليها قطّ في المطعم.

أخذت هيرتا مقاساتي، وعدّلت بعض ملابسها لكي أستطيع ارتداءها. ضيّقتها عند الحزام، وقصّرتها قليلاً بإلحاح منّي. قلتُ شارحة إنّها الموضة، فردّت والدبابيس في فمها مثل أمّي: موضة برلين. لكنّك لا تعثر في بيت هذه المرأة القروية على قطعة خيط مرميّة على الأرض.

وضعتُ الفستان ذا المربعات وكذا جميع بدلات العمل في الخزانة حيث كان يضع غريغور ملابسه، واحتفظتُ بالحذاء.

t.me/qurssan

اعترضَت هيرتا: إلى أين أنت ذاهبة بهذين الكعبَين؟ إنّهما يساعداني على السير بثبات من جديد بعد أن صارت خطواتي متردّدة. كثيراً ما كنت أرتدي ملابسي، في بعض الصباحات التي يغشاها ضباب كثيف، وأنا في منتهى الغضب. ما الداعي لكي أذوب في هذه الجماعة التي لا يجمعني بها شيء. لماذا كلّ هذا الحرص على استرضائها حتّى تقبلني؟

ثمّ أرى الهالتَين السوداوين المحيطتَين بعينَي في المرآة، فيستحيل غضبي يأساً. أترك الفستان ذا المربعات يقبع في ظلمة الخزانة، وأغلق الباب. هاتان الهالتان كانتا إنذاراً بأنّني لم أحسن الإنصات لكي أحزّر ما يخبّئ لي القدر، فأعترض طريقه. الآن وقد حصل ذلك الانهيار الذي طالما خشيته، بدا لي بوضوح أنّه لم يعد ثمّة وجود للطفلة الصغيرة التي كانت تُنشد في جوقة المدرسة، وتتزلّج مع صديقاتها عصراً، وتمدّهم بإجابات فروض الهندسة، مثلما لم يعُد وجود للسكرتيرة التي دوّخت رئيسها. عوضها حلّت امرأة أهرمتها الحرب فجأة، وهو أمر كان مقدّراً عليها ومكتوباً في دمها.

في تلك الليلة من سنة 1943 التي زاغ فيها قدري عن سكّته، دوّت صفّارة الإنذار كما يحدث دائماً، وبينما خرجت أمّي من سريرها، نادتني: «القصف بدأ، انهضي يا روزا».

منذ وفاة والدي، شغلت مكانه في السرير حتّى أكون قريبة منها. كنّا امرأتين راشدتَين، خبرتا معاً عشرة فراش الزوجية ثمّ افتقدتاها. وكانت تفوح من جسدينا بين الأغطية رائحة متشابهة تشي بالخلاعة. لكنّني كنت حريصة على أن أؤانسها حين تستيقظ في جوف الليل حتّى دون أن تدوّي صفارة الإنذار. أو لعلّي كنت أخاف

t.me/qurssan

من النوم بمفردي. هذا هو ما حملني على إخلاء الشقّة التي كنا نكتريها أنا وغريغور في ألتوميسيفيك بعد انصرافه، وعدت إلى بيت والدَيّ. وجدت نفسي، وأنا لا أزال أتمرّن على الحياة الزوجية، مجبرة على العودة إلى حياة المرأة العازبة.

قالت حين رأتني أبحث عن لباس أرتديه: «أسرعي». أما هي فكانت ترتدي معطفها فوق لباس النوم، تنتعل الشبشب وتنزل مسرعة.

لم يكن هذا الإنذار مختلفاً عن الإنذارات الأخرى: جئير طويل يتعالى شيئاً فشيئاً كما لو أنّه سيدوم إلى الأبد، ثمّ يأخذ في الخفوت بعد إحدى عشرة ثانية حتى يتضاءل ثمّ ينطلق من جديد.

لم نعرف حتئذ سوى الإنذارات الزائفة. كلّما سمعناها كنّا نندفع في السلّم وقد أشعلنا مصابيحنا اليدوية رغم الأمر بإطفاء الأنوار. كنّا نخشى إن نزلنا في الظلمة التعثّر أو الاصطدام بجيراننا النازلين مثلنا إلى القبو برفقة أطفالهم، محمّلين بالأغطية وقِرَب المياه، أو دون أن يحملوا شيئاً من فرط ذهولهم. كنّا نعثر في كلّ مرّة على حيّز ضيّق نجلس فيه على الأرض تحت مصباح متدلٍّ من السقف. كانت الأرضية باردة، والمكان مزدحم، والرطوبة تنفذ إلى عظامك.

لقد بكينا، نحن سكّان 78 بودينغاس، ونحن مكدّسون بعضنا فوق بعض، وصلّينا وابتهلنا إلى الله أن يساعدنا. تبوّلنا في سطل على مرأى من الآخرين، أو حبسنا البول حتّى كادت مثاناتنا تنفجر. أخرج طفل تفاحة، وما كاد يقضمها حتى نشلها منه آخر وقضم منها بملء فمه قبل أن تُنزع منه ويُصفع. كنّا نشعر بالجوع، ونقضي الليل في صمت، أو كنّا ننام إلى أن يطلع الفجر، فنخرج بوجوه كالحة.

t.me/qurssan

وعدونا بأنّ واجهة العمارة الفخمة الواقعة في ضواحي برلين ستكتسي قريباً حلّة برّاقة جديدة، لكن حين تحوّلت إلى ملجأ نتحصّن به، تبدّد ذلك البريق، ولم نعد نعيره اهتماماً.

بينما كنت أنزل السلّم تلك الليلة ممسكة بذراع أمّي، تساءلت عن النغمة التي يستضمرها الإنذار الجوي. ذلك أنّني شاركت في جوقة المدرسة لمّا كنت صغيرة، وقد هنّأتني المعلّمة على حسّي الإيقاعي، وعلى جرس صوتي. بيد أنّني لم أتعلّم الموسيقا، ولم أكن أستطيع قراءة النوتات. ومع ذلك حين كنت آخذ مكاني بجانب فرو رايناخ ذات الوشاح البني، وأنظر إلى حذاء فرو برايس المعوجّ بسبب تورّم إبهام قدمها، وإلى الشعر البارز من أذن هير هولر، وإلى قاطعتي أنطون الصغيرتين، وإلى ولد آل سميث، وحين أمتعض من رائحة نفس أمّي وهي تهمس لي: **غطّي نفسك من البرد**، وهي الرائحة الوحيدة البغيضة التي أتشبّث بها، لا يعود شيء يعنيني باستثناء نغمة صفارة الإنذار التي لا تنتهي.

وفي لمح البصر، طرد هدير الطائرات كلّ هذه الأفكار من ذهني. شدّت أمّي على يدي، فكشطت أظافرها بشرتي. قامت بولين التي كانت قد أكملت سنتها الثالثة من مكانها، فحاولت أمّها، آن لانغانز، أن تسحبها إليها، لكن الطفلة أفلتت منها بكلّ ما أوتيت من عناد. ثنت رقبتها ومضت تنظر إلى الأعلى وتدير رأسها كما لو أنّها تبحث عن مصدر هذه الضوضاء، أو تتابع مسار الطائرة.

ثمّ اهتزّ السقف فجأة. اهتزّت الأرض من تحتنا وسقطت. غمرَ المكان صفير حادّ حجب حتّى صراخنا وعويلنا. انطفأ المصباح، وتهادت الجدران، ورمى بنا الانفجار من جانب إلى الجانب الآخر. وفي غمرة دوي الانفجارات، راحت أجسادنا تتصادم فيما بينها،

t.me/qurssan

وينحشر بعضها في بعض وتنزلق، بينما مضت الجدران تتصدّع ويتساقط منها الحطام.

وحين كفّ القصف، بلغت إلى طبلات آذاننا الجريحة صرخات مخنوقة. دفع أحدهم باب القبو، فوجده مسدوداً. شرعت النساء في العويل، أمّا الرجال القليلون الحاضرون فانهالوا عليه بالركل إلى أن انفتح.

صُمّت آذاننا، وعُميت أبصارنا، وغيّر الغبار ملامحنا إلى حدّ أن آباءنا لم يعودوا قادرين على تعرّفنا. كنّا نبحث عنهم وننادي: بابا، ماما، وهي الكلمات الوحيدة التي كنّا نستطيع نطقها. لم أكن أرى غير الدخان، ثمّ لاحت لي بولين: كان صدغها ينزف. مزّقت بأسناني حاشية تنورتي وشرعت أمسح الدم، ثمّ لففت رأسها بالثوب، ومضيت أبحث عن أمّها وأمّي، لكنّني لم أكن قادرة على معرفة أحد من الحاضرين.

عند إخلاء الجميع، بزغت الشمس. لم تتهدّم عمارتنا، لكن ظهر في سقفها ثقب ضخم. أمّا العمارة المقابلة، فانهار أعلاها. وفي الشارع اصطفّ طابور من الموتى بينما أسند من ما زالوا على قيد الحياة ظهورهم على الجدران محاولين عبثاً التقاط أنفاسهم. فقد ألهب الغبار حناجرهم، وسدّ أنوفهم. فقدت فراو رايناخ وشاحها فبدا شعرها كحزمة من سخام، أو كدثّل غطّى رأسها، بينما كان هير هولر يعرج. توقّف نزيف بولين. أما أنا فلم أفقد شيئاً من جسدي، ولم يكن شيء يؤلمني، لكنني فقدت أمّي.

t.me/qurssan

6

أعلنت غيرترود وعيناها نصف مغمضتين لكي تضفي مسحة من المهابة على ما تقول: «أسترخص حياتي في سبيل الفوهرر». وهزّت أختها سابين رأسها مؤيّدة. لم أستطع، بسبب ذقنها المنسحب معرفة ما إذا كانت هي الكُبرى أم الصُّغرى. كانت المائدة قد خُلّصت ممّا عليها من أطباق، ولم يعد يفصلنا عن موعد المغادرة سوى نصف ساعة. لاحت لي في فتحة النافذة هيئة ذائقة أخرى على خلفية سماء رصاصية. إنّها تيودورا.

قالت سابين مؤيّدة:

- أنا أيضاً مستعدّة للتضحية بحياتي من أجله. فهو بمثابة أخينا الأكبر. الأخ الذي لم يعُد لنا سواه.

فعلّقت تيودورا مازحة:

- أمّا أنا، فأودّ لو أتّخذه زوجاً.

غضّنت سابين حاجبيها كما لو أنّ تيودورا قلّلت الحياء على الفوهرر. استندت أوغيستين على إطار النافذة فجأة، وقالت:

- لا داعي لأن تجهرن بمشاعركنّ نحو هذا الذي يبعث المواساة في أنفسكنّ. هو يرسل إخوانكنّ وآباءكنّ وأزواجكنّ إلى

t.me/qurssan

التَّهلُكة، لكن لا بأس إن هلكوا، ستجدن فيه الأخ الرحيم، أليس كذلك؟ أو ربّما الزوج الرؤوف.

مسحت أوغيستين بسبّابتها وإبهامها زبد اللعاب الأبيض المتراكم في زوايتي فمها، وقالت:

- يا لتفاهتكنّ!

بادرتها غيرترود:

- ابتهلي لربّك ألا يكون أحد سمع كلامك!

ثمّ أضافت وقد استشاطت غضباً:

- أو تريدين أن أنادي على الحرّاس؟

وقالت تيودورا:

- لو كان بوسع الفوهرر تجنُّب الحرب، لما تردّد. لكن ليس أمامه خيار آخر.

- حسبتكنّ تافهات، أمّا الآن، فثبَتَ أنكنّ مسعورات!

لم أعلم بتلقيب غيرترود وشلّتها منذئذ بـ«المسعورات» إلّا لاحقاً. اكتشفت ذلك من أوغيستين التي كانت ناقمة. أخبرتني ليني أنّ زوجها سقط في الجبهة، لذلك كانت تتّشح دائماً بالسواد.

لقد نشأت هؤلاء النسوة في القرية نفسها، وتردّدن على المدرسة نفسها، وبذلك فهنّ يعرفن بعضهنّ بعضاً، على الأقلّ بالنظر، باستثناء إلفريد. فهي ليست من غروس-بارتش ولا من ضواحيها. أكّدت لي ليني أنّها لم ترَها قطّ قبل أن تصبح ذائقة. جاءت مثلي من مكان بعيد، ومع ذلك لم يكن يتحرّش بها أحد. لم تكن أوغيستين تتجرّأ على إزعاجها كما كانت تفعل معي، لا لأنّني أتيت من العاصمة، بل لأنّ رغبتي في الاندماج لفتت الأنظار إليّ، وفضحَت نقطة ضعفي. لم أسأل إلفريد، مثلما لم تسألها الأخريات، عن

t.me/qurssan

المدينة التي قدِمت منها، وهي لم تفصح عن ذلك. كان تحفّظها يبعث فينا الهيبة.

وددتُ لو أعرف ما إذا كانت هي أيضاً فرّت إلى الريف، وما إذا كانوا قد جنّدوها للخدمة مثلي فور وصولها، وعلى أيّ أساس جرى انتقاؤنا؟ حين صعدتُ إلى الحافلة لأوّل مرّة، توقّعت أن أعثر على جماعة من النازيات المتحمّسات، يصدحن بالأناشيد ويلوّحن بالأعلام، لكنّني سرعان ما أدركت أنّ معيار الانتقاء لم يكن هو الإيمان بمبادئ الحزب باستثناء مجموعة المسعورات ربّما. أتراهم اختاروا الأشدّ فقراً وعوزاً؟ الأمّهات اللواتي لديهنّ أفواه ينبغي إطعامها؟ فقد كنّ دائمات الحديث عن أطفالهنّ، باستثناء إيلا وليني، الأصغر سنّاً، وكذا إلفريد. لم يكن لديهنّ أطفال مثلي. كنّ عازبات على الأرجح، إذ لم أرَ في أصابعهنّ خواتم زواج، بينما كنت أنا متزوّجة منذ أربع سنوات.

ما كدت أتجاوز عتبة الباب حتّى طلبت منّي هيرتا مساعدتها في طيّ الأغطية. بالكاد حيّتني، بدت متلهّفة، كما لو أنّها انتظرت عودتي لساعات قبل أن تهبّ لجمع النشير الجاف، وهي مصمِّمة على ألا تضيع دقيقة أخرى بعد وصولي.

- خذي السلّة من فضلك.

كانت تسألني في العادة عن العمل، وتقول لي: اذهبي لترتاحي، استلقي قليلاً، أو كانت تعدّ لي شاياً. لذلك ضايقني فتورها. حملت السلّة إلى المطبخ، ووضعتها على المائدة. قالت هيرتا:

- هيّا، ينبغي أن نسرع!

سحبتُ ذيل ثوب بحركة خرقاء محاذرة من أن أقلب السلّة وأنا

t.me/qurssan

أخرجه من بين الملابس المتشابكة. وبينما كنت أسحب بقوّة لكي أخلّص الغطاء، تطاير من وسط الكومة مثلّث أبيض. ظننته منديلاً، وأن سقوطه على الأرض سيُحنق حماتي. انتظرت ريثما حطّ على الأرض فتنبّهت إلى أنّه ليس منديلاً، بل رسالة، ورحت أنظر إلى هيرتا.

قالت وهي تضحك:

- عجباً، ظننتك لن تعثري عليها!

ومضيت أضحك أنا أيضاً من الذهول والامتنان.

- ماذا دهاك؟ ألا تلتقطينها؟

وبينما أحنيت لألتقطها، همست:

- اقرئيها في غرفتك إن شئتِ، لكن لا تتأخّري، أنا متلهّفة لمعرفة أخبار ابني.

عزيزتي روزا،

ها قد واتتني الفرصة أخيراً لكي أردّ على رسالتك. لقد قطعنا مسافة طويلة جدّاً ونمنا في الشاحنات، ولم ننزع بزّاتنا العسكرية منذ أسبوع. كلّما عبرنا شوارع هذا البلد وقُراه، لا يُطالعنا سوى الفقر في كلّ مكان. الناس يعلوهم الوهن، والمنازل صارت أشبه بالأكواخ، والواقع أبعد ما يكون عن نعيم البلاشفة، وجنّة العمّال... أمّا الآن، فقد توقّفنا: ستجدين أسفله عنواني الجديد حيث يمكن أن تبعثي رسائلك. أشكرك على الرسائل الكثيرة التي تبعثينها لي، واعذريني إن لم أكن أكتب لك بالوتيرة نفسها. ذلك أنني أكون منهكاً في نهاية النهار. قضيت صبيحة البارحة في إزالة الثلج من الخندق، ثمّ قضيت أربع ساعات من الليل في الحراسة

t.me/qurssan

(لا ألبس غير قميصَين تحت البزّة) بينما كان الثلج يسقط ويملأ الخندق من جديد.

وحين سنحت الفرصة لكي أرتمي فوق فراش القشّ، حلمت بك. كنتِ نائمة في شقّتنا بـ«ألتوميسيفيك». الحقيقة أنّني خِلتها تلك الشقة رغم أن الغرفة مختلفة. الأمر الغريب هو وجود كلب عند قدم السرير، من نوع كلب الراعي الألماني. كان نائماً هو أيضاً. لم أتساءل عن سبب وجود كلب في بيتنا، وما إذا كان كلبك. كلّ ما تبادر إلى ذهني هو أنّني ينبغي ألا أوقظه لأنّه خطير. رغبت في الاستلقاء بجانبك. اقتربت منك إذاً بهدوء حتّى لا أوقظ الكلب، لكنّه استيقظ مع ذلك وشرع يزمجر. كنت تغطّين في النوم ولم تسمعي شيئاً. رحت أناديك وأنا خائف من أن يعضّني، وما لبث أن شرع ينبح عالياً، انقضَّ عليّ فاستيقظتُ. تكدّر مزاجي لفترة طويلة، ربّما لأنّ بالي كان منشغلاً بسفرك. أمّا الآن وأنت في غروس-بارتش، فقد اطمأننت. فوالدَيّ سيعتنيان بك.

كان وجودك بمفردك في برلين بعد كلّ ما وقع، يعذّبني. وتذكّرت من جديد شجاراتنا قبل ثلاث سنوات لمّا قررت الالتحاق بالجيش. كنت أقول لك إنّ المرء لا ينبغي أن يكون أنانياً وجباناً، وأنّ الدفاع عن أنفسنا مسألة حياة أو موت. ما كان يشغل بالي هي فترة ما بعد الحرب، وليس أنت. كنت لا تزالين صغيرة آنذاك، أمّا أنا فلا أزال أذكر تلك المرحلة البئيسة. كان شعبنا ساذجاً حين استسلم لإهاناتهم. لكن آن الأوان لكي نبدي الصلابة. كان عليّ أن أقوم بالواجب، حتّى إن اضطرّني ذلك إلى الابتعاد عنك. أمّا اليوم، فالتبست عليّ الأمور.

t.me/qurssan

الفقرات اللاحقة كانت مشطوبة، تشطيب جعل من المتعذّر قراءة ما كُتب. حاولت عبثاً أن أفكّ رموز تلك الأسطر. كتب غريغور: أمّا اليوم، فالتبست عليّ الأمور. هو يتجنّب عادة الجُمل التي تدعو للشبهة خشية أن تكون الرسائل تُفتح وتخضع للرقابة، حتّى أنّ رسائله كانت موجزة وفاترة أحياناً. لعلّ هذا الكابوس هو الذي خفّف حذره، ولم يجد بدّاً بعد ذلك من أن يمعن في التشطيب حتّى ثقب الورقة في بعض المواضع.

لم يكن غريغور يحلم في السابق، حسبما كان يقول. وكان يسخر من الأهمية البالغة التي أوليها لأحلامي، وأتعامل معها كما لو أنّها نبوءات. لا بدَّ أنّه قلق عليّ، وهذا ما جعله يكتب رسالة بكلّ هذه السوداوية. وخالجتني فكرة خاطفة بأنّ الجبهة ستعيد لي رجلاً مختلفاً، وتختبر ما إذا كنتُ سأتحمّله. كنت قد أغلقت على نفسي في الغرفة التي حلم فيها وهو صغير، بيد أنّني لم أطّلع على أحلام طفولته. ولم يكن وجودي وسط هذه الأشياء التي هي أشياؤه كافياً ليشعرني بأنّه قريب منّي. لم يكن الأمر مثلما كنّا ننام معاً في الشقة التي استأجرناها، هو مستلقٍ على جنبه، ويده تمسك بمعصمي، بينما أقلّب أنا الأوراق -وكنت شغوفة بالقراءة في السرير- بيَدٍ واحدة لكي لا ينقطع الاتصال بيننا. وكان خلال نومه ينخلع من مكانه، فتضغط أصابعه على يدي كما لو أنّ زُنبُرُكاً يحرّكها، ثمّ ترتخي. فبمن عساه يتشبّث الآن؟

وذات ليلة شعرت بتصلّب مفاصل يدي، فأردت أن أغيّر الوِضعة. خلّصت يدي بلطف محاذرة من أن أوقظه، ورأيت أصابعه تنغلق مثل كمّاشة على لا شيء، ممسكة بالفراغ. وشعرت بكلّ ما أكنّه له من حبّ يصعد إلى حنجرتي.

t.me/qurssan

راودني شعور غريب حين علمت بأنّك مستقرّة في منزل والدَيّ. لست من النوع الذي تستبدّ به العواطف، لكنّها صارت تتملّكني هذه الأيام حين أتخيّلك تتجوّلين في تلك الغُرف، وتلمسين الأثاث القديم، وتحضّرين المربّى مع أمّي (أشكرك على ما أرسلت لي منه، قبّلي أمّي وسلّمي على والدي).

عليّ أن أخلد للنوم الآن، سأستيقظ على الساعة الخامسة صباحاً. قذائف الكاتيوشا تنفجر طوال الليل، لكنّنا تعوّدنا عليها. البقاء على قيد الحياة هنا يا روزا يتوقّف على الصُّدفة، لكن لا تخشي عليّ، صرت قادراً على أن أخمّن من صفير الرصاص ما إذا كان سيمرّ قريباً منّي أو بعيداً. ثمّ هناك ذلك المعتقد الذي اكتشفتُه في روسيا. هم يعتقدون أنّ الجندي الذي تخلص له زوجته لا يموت. باختصار، لا يسعني إلا أن أعوّل عليك!

لكي أكفّر عن صمتي الذي طال، كتبتُ لك رسالة طويلة، ولم اترك لك ذريعة لكي تعتبي عليّ. احكي لي عمّا تفعلين في نهاراتك. أجدُ صعوبة في تخيُّل حياة امرأة مثلك في الريف. سترين، ستتعوّدين في نهاية المطاف، وسيعجبك الأمر. حدّثيني من فضلك أيضاً عن هذا العمل الذي يروقك. قلت لي إنّك ستشرحين لي حين نلتقي، وتفضّلين ألا تفعلي ذلك عبر المراسلة. أينبغي أن أقلق؟

تركت أجمل أخباري للخاتمة: سآتي في إجازة خلال أعياد الميلاد، وسأقضي حوالي عشرة أيّام، وبذلك سنحتفل معاً لأوّل مرّة في المكان الذي نشأت فيه. أنا متلهّف لتقبيلك.

نزلتُ من السرير والورقة بين يدَي، وأعدت القراءة. ليس خيالاً، بل حقيقة: كتب غريغور حقّاً أنّه قادم إلى غروس-بارتش!

t.me/qurssan

أنظرُ إلى صورتك كلّ يوم حتى أنّها تكمّشت من شدّة ما تلازم جيبي. هناك طيّة تشطر وجهك نصفين. ستعطيني صورة أخرى حين أعود، لأنّك تظهرين في هذه أكبر من سنّك. ولكن، صدّقيني، كم أنت جميلة حتّى وأنت متقدّمة في السنّ!

غريغور

ناديت: «هيرتا!» وأنا أغادر الغرفة ملوّحة بالرسالة، ثمّ مددتها لها وأنا أقول:

- اقرئي ها هنا!

أشرت إلى الأسطر التي يتحدّث فيها عن الإجازة. اقرئي هنا فقط، الباقي لا يهمّ أحداً سوانا.

قالت وهي لا تكاد تصدّق:

- سيقضي أعياد الميلاد هنا؟!

كانت متلهّفة لعودة جوزيف لكي تزفّ له الخبر.

تلاشى القلق الذي كان يجثم على صدري قبل دقائق، وطغى الفرح على ما سواه من المشاعر. سأعتني به، وسننام معاً من جديد، وسأحضنه بقوّة تبدّد كلّ مخاوفه.

t.me/qurssan

7

جلسنا قرب المدفأة، ورحنا نتخيّل وصول غريغور.

كان جوزيف ينوي ذبح ديك لإعداد وجبة أعياد الميلاد، وتساءلت أنا عمّا إذا كنت سآكل في المطعم ذلك اليوم. ماذا سيفعل غريغور خلال غيابي في الثكنة؟ لديه والدان سيمكث معهما. رغبطتُ هيرتا وجوزيف على الوقت الذي سيمضيانه معه من دوني.

- بإمكانه ربّما أن يأتي إلى كراوزندورف. مهما يكن، فهو جندي في الفيرماخت.

اعترضَ جوزيف:

- كلا، لن تسمح له القوات الخاصة بالدخول.

وجرّنا الحديث إلى تذكّر طفولته، وهو أمر كثيراً ما كان يحدث. حكت حماتي أنّه ظلّ بديناً إلى حدود السادسة عشرة من عمره.

- كانت وجنتاه محمرّتان على الدوام. يبدو كما لو أنّه احتسى خمراً.

وأضاف جوزيف:

- ثمّ إنّه ثمل ذات يوم.

هتفت هيرتا:

t.me/qurssan

- صحيح! ما أغرب هذه الذكريات التي تحفظها ذاكرتك. . . اصغ إلى هذا يا روزا. كان في السابعة من عمره تقريباً، وكان الفصل صيفاً. عدنا من الحقل فوجدناه مستلقياً على الصندوق -وأشارت إلى صندوق خشبي يحاذي الجدار- هناك مبتهجاً، وقال: كم هو لذيذ العصير الذي صنعت.

وقال جوزيف موضّحاً:

- كانت على المائدة زجاجة نبيذ مفتوحة فرغَ نصفها. سألته: «يا إلهي! لماذا شربت منها؟»، فأجابَ: «لأنّني شعرت بعطش شديد»، وانفجر ضاحكاً.

ضحكت هيرتا أيضاً إلى أن سالت دموعها. ورأيت يديها اللتين شوّههما التهاب المفاصل تُجفّفان عينَيها، وفكّرت في عدد المرّات التي داعبتا فيها غريغور عند استيقاظه، وأزاحتا الشعر عن عينيه بينما يتناول فطوره، وفي المرّات التي تلذّذتا فيها بطيّات جسده القذرة، عندما كان يعود منهكاً من المعارك التي يخوضها بجانب المستنقع، والمقلاع يتدلّى من جيبه. فكّرت في عدد المرات التي ضرَبَته فيها على رأسه، وكم جلست في غرفتها تدعو بالبتر على اليد التي تسبّبت له في الأذى: يا لها من فضيحة! كيف تضرب كائناً هو في الحقيقة قطعة منها؟

وقال جوزيف:

- ثمّ كبر دفعة واحدة. طالت قامته في ليلة واحدة، كما لو أنّ رجليه كانتا مغطوستين في الماء.

تخيّلت غريغور مثل شجرة حور باسقة، مثل تلك الأشجار التي تحفّ بالطريق إلى كراوزندورف، بجذوعها العريضة المستقيمة، ولحائها الفاتح المرقّط، ووددت لو أحضنه.

t.me/qurssan

كنت أعدُّ الأيّام وأعلّم في الرزنامة على كلّ يوم يمضي، وكانت تلك علامة تقلّص الانتظار قليلاً. ولكي أتلهّى، عوّدت نفسي على مجموعة من العادات.

قبل وصول الحافلة بعد الظهر، دأبتُ على مرافقة هيرتا لجلب الماء من البئر. وعند العودة كنت أُحضِر معي الطعام للدجاجات. أضع لها العَلَف في الخُمّ، فتتسابق مناقيرها لالتقاطه بحركات سريعة قلقة. كانت توجد دائماً دجاجة لا تنجح في التسلّل بين المجموعة، فتروح تحرّك رأسها يَمنة ويَسرة من الذهول أو الخوف. كانت همجمتها المهزولة تثير انتباهي. تتجوّل وهي تصدر قرقرة مكتومة، ، تنتهي بأن تفسح لنفسها مكاناً بالقوّة بين دجاجتين، مزيحة إحداهما بعيداً، ويستمرّ التدافع. كان الطعام كافياً، لكنّ الدجاجات تظلّ غير واثقة من أنها ستنال حظّها.

كنت أراقبها وهي تحضن بيضها مبهوتة، بمناقيرها التي تهتزّ، وأعناقها المرفوعة تارة، المخفوضة أخرى، تُميلها بحركة فجائية إلى هذا الجانب طوراً، وإلى الجانب الآخر طوراً آخر. وتبدو هذه الأعناق كما لو أنّها تتكسّر بغتة وهي تصرخ صرخة مخنوقة فاتحة مناقيرها وعيونها المدوّرة الزمرديّة. وكنت أتساءل عمّا إذا كانت تئنّ من الألم، وما إذا كان وجع المخاض هذا يرهقها، وعن الذنب الذي ارتكبت حتّى تكفّر عنه بذلك. أو لعلّه صراخ يدلّ بخلاف ذلك على النصر، لأنها تشهد كلّ يوم المعجزة التي لم أنجح أنا قطّ في إتيانها.

وقد فاجأت ذات يوم صُغراها تنقر بيضة بالكاد باضتها. ركلتها، لكن ركلتي لم تزدها إلا عناداً، إذ سارعت إلى التهام البيضة بكاملها.

t.me/qurssan

قلت لهيرتا بقلق:

- لقد أكلت صغيرها.

شرحت لي حماتي بأنّ ذلك أمر معهود. فالدجاجات قد تكسّر بيضة عن خطأ، فتدفعها الغريزة إلى تذوّقها. وبما أنّها تجد مذاقها لذيذاً، لا تتردّد في أكلها.

حكت سابين لأختها غيرترود وتيودورا في قاعة الطعام كيف أنّ ابنها لمّا كان صغيراً، سمع هتلر يتحدّث في المذياع، فتملّكه الخوف. ارتعشَ ذقنه، وارتسمت فيه نقرات صغيرة، وأجهش بالبكاء. قالت له أمّه: هذا زعيمنا، فلِمَ تبكي؟ علّقت تيودورا: مع أنّ الفوهرر يحبّ الأطفال كثيراً.

كان الألمان يحبّون الأطفال، بينما تأكل الدجاجات صغارها. وأنا لم أكن قطّ ألمانية صالحة، ترعبني الدجاجات أحياناً، بل كلّ الكائنات الحيّة.

ذهبت ذات يوم مع جوزيف لنجلب الحطب من الغابة. كان صفير الأشجار يتردّد مثل عزف جَوقة موسيقية. حملنا على عربة جذوعاً وأغصاناً كوّمناها في المخزن حيث كان يُحفظ تبن الدواب سابقاً. ذلك أنّ جدّيْ غريغور كانا يحرثان الأرض ويربّيان البقرات والثيران، مثل أسلافهم. ثمّ باع جوزيف كلّ شيء من أجل دفع مصاريف دراسة غريغور، وعثر على عمل كبستاني في قصر ميلدرنهاغن. سأله ابنه: لماذا فعلت هذا؟ فأجابه: الواقع أنّنا هرمنا الآن، ولسنا بحاجة إلى شيء كثير في معاشنا. فقد كان غريغور وحيد والديه: ولدتْ أمّه طفلين آخرين، لكنّهما ماتا معاً، ولم

t.me/qurssan

يعرفهما. وقد رُزِقاه بالصُّدفة بعد أن رضيا بأن يشيخا وحيدَين.

حين أعلن عن نيّته في السفر إلى برلين لمتابعة الدراسة، أصيب أبوه بالخيبة، لا لأنّ هذا الولد الذي رُزقه بعد يأسٍ كبر بسرعة، في المهلة واحدة، فحسب، بل لأنّه يفكّر في تركهما كذلك.

أسرّ إليّ جوزيف:

- تشاجرنا. لم أفهم قراره، واستشطت غضباً. قلت له إنّني لن أتركه يذهب، لن آذن له.

- وماذا وقع بعد ذلك؟

- صمت غريغور عن هذا الأمر، ولم يحدّثني عنه قطّ.

- لا أظنّه لاذَ بالفرار؟

أوقف جوزيف العربة، وتقلّصت عضلات وجهه، ثمّ مسّد أسفل ظهره وقال:

- كلا، لم يهرب.

- أتشعر بالألم؟ اتركني أدفع عنك.

فردّ:

- قد أكون هرمت، لكن ليس إلى هذا الحدّ!

استأنف السير واستطرد يقول:

- جاءني أحد المدرِّسين. جلسنا إلى المائدة، أنا وهو وهيرتا. شرحَ لنا أن غريغور تلميذ ممتاز وجدير بالتقدير. وغاظني أن يعرف شخص غريب ابني أفضل منّي. بغضتُ ذلك المدرِّس، وصرفته. ثمّ لما خلوت إلى هيرتا في الاسطبل، أعادتني إلى رُشدي، وشعرت بنفسي غبيّاً.

بعد زيارة الأستاذ، قرّر جوزيف أن يتخلّص من مواشيه، باستثناء الدجاج. وهكذا رحل غريغور إلى برلين.

t.me/qurssan

- درس بجدّ، وحقّق ما كان يصبو إليه. مهنة ممتازة.

وتراءى لي غريغور في مكتبه جالساً على مقعد عالٍ بلا ظهر ولا مسندَين أمام لوحة الرسم: يحرّك المسطرات على الورقة، ويحكّ رقبته بالقلم. كنت أحبّ أن أراقبه وهو يعمل، أراقبه كلّما استغرق فيما يفعل ناسياً كلّ ما حوله، حتّى أنا. أتراه يظلّ كما هو حين أغيب عنه؟

«ليته لم يذهب إلى الحرب...»، توقّف جوزيف من جديد، لا ليدعكَ أسفل ظهره، بل لينظر ساهماً دون أن ينطق، كما لو أنّه بحاجة إلى أن يستعيد من جديد شريط الأحداث. لقد أحسن الاختيار بالنسبة إلى ابنه، لكن حسن الاختيار لم يكن كافياً.

رتّبنا الحطب في المخزن بصمت. لم يكن صمتاً كئيباً. فقد كنّا كثيراً ما نتحدّث عن غريغور الذي يمثّل الشيء الوحيد المشترك بيننا، وكنّا بحاجة إلى لحظة صمت بعد هذه المحادثة.

لمّا دخلنا إلى المنزل، أخبرتنا هيرتا بأنّ الحليب قد نفد، فاقترحت أن أذهب لجلبه بعد ظهر اليوم الموالي. فقد صرت أعرف الطريق.

عرفت من رائحة الروث أنّني وصلت إلى الضيعة حتّى قبل أن أبصرَ النساء المصطفّات في طابور وهنّ يحملن زجاجاتهنّ الفارغة. وقد جلبتُ معي سلّة مليئة بالخُضر لأقايضها بالحليب.

دوّى هدير في الضيعة أشبه باستغاثة يائسة أو بصوت صفارة إنذار. وكنت الوحيدة التي شعرت بالقلق، بينما كانت الأخريات يتقلمن وهنّ يتجاذبن أطراف الحديث أو صامتات، ممسكات بأيدي أطفالهنّ أو ينصتن لندائهم إن كانوا بعيدين عنهنّ.

t.me/qurssan

أبصرت امرأتَين خارجتَين بدت لي هيئتاهما مألوفتَين. ولمّا اقتربتا منّي، تنبّهت إلى أنهنّ من الذائقات. كان شعر إحداهما مقصوصاً مثل الأولاد، وبشرة وجهها ذابلة، تدعى بيت، بينما كانت الأخرى ترتدي سترة ضيّقة وتنورة تبرزان صدرها وردفيها الواسعَين، ذات وجه مسطّح، تدعى هايكي. هممتُ بتلقائية أن أحيّيهما بإشارة من يدي، لكنّني أعرضت. لم أكن أعرف ما إذا كانت مهمتنا سرّية، وما إذا كان علينا أن نخفي معرفة بعضنا ببعض. فأنا لست من القرية، ولم ألتقِ بهما قطّ في الضيعة. ثمّ إنّنا لم نتبادل الكلام أبداً في قاعة الطعام، وبذلك لم يكن على الأرجح من اللائق تحيّتهما. وحتى لو فعلت، ما كانتا ربّما لتردّا تحيّتي.

مرّتا بمحاذاتي دون أن تكترثا بي. كانت عينا بيت محمرّتين، وقالت لها هايكي:

- لنقتسم هذا، وفي المرّة القادمة، أعطني قليلاً ممّا لديك.

شعرت بالحَرَج وأنا أسمع عن غير قصد الكلام الدائر بينهما. ألم يكن مع بيت مال لتدفع ثمن الحليب؟ لم نكن قد توصّلنا بأوّل راتب. كنّا سنتوصّل به قريباً حسبما قال الحرّاس، بيد أنّهم لم يذكروا المبلغ. على أنّ الشكّ ساورني في أن تكونا من الذائقات حين اقتربتا منّي بعد هنيهة، ورأيتهما بوضوح. كيف يُعقل ألا تتعرّفاني؟ تابعتهما ببصري آملة أن تلتفتا، لكنّهما لم تفعلا. ابتعدتا ثمّ اختفتا شيئاً فشيئاً. بعد ذلك بقليل حلَّ دوري.

في طريق العودة، شرع المطر يهطل. لصق شعري على صدغي من كثرة الماء، وتبلّل معطفي، ورحت أرتعدُ من البرد. كانت هيرتا قد نصحتني بأن آخذ وشاحاً، لكنّني نسيت. كما أنّ حذاء المدينة الذي انتعلت زلق، بحيث أوشكت غير ما مرّة على السقوط في

t.me/qurssan

الوحل. علاوة على هذا كنت مهدّدة بأن أضلّ الطريق بسبب المطر الغزير وعدم وضوح الرؤية. انطلقتُ أجري رغم كعبَيّ العاليين، وما إن وصلت قرب الكنيسة حتّى لمحتُ هيئتَي المرأتين تسيران وقد شبكتا ذراعيهما. عرفتهما من تنورة هايكي الضيّقة، أو ربّما من خلال الظهرين اللذين كنت أبصرهما كل يوم في طابور المطعم. لو أنّهما فتحتا وشاحَيهما، لاحتمينا ثلاثتنا من المطر. ناديتهما، لكنّ هزيم الرعد في تلك الأثناء حجب صوتي. وناديتهما مرّة ثانية، فلم تلتفتا. قد لا تكونان من ظننت. ربّما أخطأت. حثثت الخطى ثمّ توقفت وتسمّرت تحت المطر.

حين عطست في اليوم الموالي في قاعة الطعام، قال صوت على يميني: «رحمك الله!».

كان صوت هايكي، وقد تعجّبت من أنّني عرفتها دون أن أراها لأنّ جسد إيلا الجالسة بيننا يحجبها عنّي.

- أأصبت أنت أيضاً بنوبة برد؟

لقد رأياني إذاً. وأجبت:

- أجل، زكمني البرد.

ألم تسمعا ندائي؟

قالت بيت بتردّد كما لو أنّها كانت تنتظر الإذن من هايكي لكي تكلّمني:

- اشربي حليباً دافئاً بالعسل، ستشفين على الفور.

بمرور الأسابيع، بدأ حذرنا من الطعام يضعف، مثل رجل يغازلك فتسمحين له بأن يتجرّأ على حميميتك أكثر فأكثر. صرنا نأكل، نحن الخادمات المتواضعات، بنهم واستمتاع، لكن سرعان

t.me/qurssan

ما يفتر حماسنا بعد انتفاخ بطوننا، كما لو أنّ ما يثقل المعدة يثقل القلب أيضاً. وكان هذا الغموض يضفي مسحة من اليأس على الساعة التي تلي الوليمة.

كنّا جميعاً ما زلنا نخشى التسمُّم، وهو أمر كان يحدث كلّما حجبت سحابة فجأة أشعّة شمس الزوال العَمودية، أو في الثواني القلقة التي تسبق الغروب. ومع ذلك لم تكن أيّ منّا تخفي انتشاءها بحساء السميد الذي يذوب في الفم، أو النشاط الذي تبعثه اليخنة، رغم خلوّها من لحم الخنزير أو العجل أو حتى من لحم الدجاج. ذلك أنّ هتلر كان يمقت اللَّحم، ويحثّ مواطنيه في المذياع على أكل اليخنة بالخُضر مرّة في الأسبوع على الأقل. لا بدَّ أنّه كان يتوهّم أنّ العثور على الخُضر في المدن خلال الحرب أمر سهل، أو لعلّ الأمر لم يكن يعنيه: الألماني لا يموت جوعاً، فإذا مات، فهو ليس ألمانياً قحّاً.

تذكّرت غريغور، ومسحت على بطني بعد أن امتلأت ولم أعد قادرة على التهام المزيد. كان رهان المعركة من الجدّية بحيث تثبت ساقاي ولا ترتعشان كلّما نسفت التخمة دفاعاتي، فأروح أبتهل في سرّي: **اللهمّ احفظني إلى أن تحلّ أعياد الميلاد**، وأرسمُ الصليب في الهواء بسبّابتي خلسة عند المكان الذي ينتهي فيه المَرِيء، أو حيث أعتقد أنّه ينتهي، متخيّلة جسدي من الداخل توليفاً من عناصر رمادية اللون، كتلك التي رأيتها في كتاب كرومل.

وشيئاً فشيئاً بدأنا نجد الدموع كثيبة، بما في ذلك ليني. صرت أشدّ بيدي على يدها كلّما تملّكها الرعب، وأداعب وجنتيها المحمرّتين. أمّا إلفريد فلا تبكي أبداً. كنت أسمع خلال ساعة الانتظار التي تعقب الوجبة تنفّسها الصاخب. وحين تشرد، تفقد

t.me/qurssan

نظرتها قسوتها المعهودة، فتبدو جميلة، بينما تستغرق بيت في المضغ بهمّة كما لو أنّها تغسل أغطية، وقبالتها تجلس هايكي. منذ طفولتهما وهما تسكنان منزلَين متجاورَين حسبما أخبرتني ليني. بينما كانت تسحب بيدها اليسرى سمكة سلمون مرقّط مطبوخة بالزبد والبقدونس، رفعت مرفقها فضربت بقوّة مرفق إيلا. لكنّ إيلا لم تنتبه إلى ذلك. كانت منهمكة في لحس زاويتَي فمها. ولعلّ هذه الحركة الصبيانية المتكرّرة على نحو آلي كانت تسلّي الحراس. جُلت بعينَيّ على الصحون فوق المائدة، فلمحت صحن الذائقة التي تلقّت الطبق نفسه الذي كان من نصيبي يومئذ. انتابني شعور بأنّها غدت أعزّ من أقرب أقربائي. وأحسست بحنان مفاجئ نحو البثر الظاهر على وجنتها، ونحو الحماس أو الفتور الذي تغسل به وجهها صباحاً، والجوارب الصوفية القديمة التي ترتديها ليلاً قبل أن تخلد إلى سريرها. لم يكن بقاؤها يقلّ أهمّية بالنسبة إليّ عن بقائي. المصير نفسه يجمعنا.

وبمرور الأيام، خفّت فظاظة الحرّاس. حين يروق مزاجهم، يستغرقون خلال الوجبة في الحديث بينهم، فلا ينتبهون إلينا، ولا يفرضون علينا الصمت. أمّا إذا تكدّر مزاجهم، فلا يحوّلون عنّا أعينهم، ويراقبون كلّ حركاتنا وسكناتنا. ينظرون إلينا مثلما ننظر نحن إلى الطعام، كما لو أنّهم يهمّون بالتهام لحومنا. يتجوّلون بين المقاعد غير عابئين بترك مسافة بيننا وبينهم حتّى أنّنا نرتعب حين تلامس مسدّساتهم المدسوسة في غمدها ظهورنا. وفي بعض الأحيان ينحنون على إحدانا، وغالباً ما تكون إيلا، ويشيرون بأصابعهم إلى صدرها هامسين: **لقد لطّخت ملابسك**، فتتوقّف عن الأكل، فنفعل مثلها جميعاً.

على أنّ ليني كانت هي الأثيرة لديهم، لأنّ عينيها الخضراوين

t.me/qurssan

الامعتين وبشرتها الشفّافة أرفع من أن تخفي الحيرة التي يبعثها العالم فيها. هذا علاوة على أنّها كانت طيّعة. قرصَ حارسٌ ذات يوم وجنتها وقال لها بصوت متكلّف: **يا لهما من عينَين فاتنتَين!** ابتسمت ليني ابتسامة لم تكن تدلّ على الاستهجان. كانت تظنّ أنّ الحنان الذي تثيره في الآخرين يحميها. وهي مستعدّة لدفع ثمن ضعفها، وهو أمر لم يكن خافٍ على الحرّاس.

كانت حياتنا في ثكنة كراوزندورف مهدّدة كلّ يوم، لكن ليس اكثر من حياة أيّ كائن حيّ. بينما كانت أسناني تسحق الهندباء الهندية، والفضاء تملؤه رائحة قرنبيط توحي ببيت مطمئنّ، قلت في نفسي: **إنّ أمّي لم تخطئ بخصوص هذه النقطة.**

t.me/qurssan

8

أعلن كرومل هذا الصباح بأنّه سيدلّلنا. وظّف لفظة دلّل وهو يخاطبنا نحن من كنّا نظنّ بأنّ الدلال لم يعد من حقّنا. قدّم لنا بُقسُماطاً قال إنّه خارج لتوّه من الفرن، وهو يريد أن يفاجئ به زعيمه. «من شدّة عشقه للبسقماط كان يهيّئه في الخنادق خلال الحرب».

فعلّقت أوغيستين متهكّمة:

- كيف كان يعثر على المكوّنات من زبدة وعسل وخميرة في الجبهة؟ أكان يصنع كلّ ذلك من عرقه؟

من حسن حظّها لم يسمعها الحرّاس، وكرومل كان قد اختفى في المطبخ مع مساعديه.

ضحكت إلفريد ضحكة سُمِع لها صوت أخنّ. لم أسمعها تضحك قطّ، وتفاجأت من أنّني شعرت بالرغبة في الضحك أنا أيضاً. حاولت أن أتمالك نفسي، لكنّني سمعت من جديد ذلك النخير، فهزّتني ضحكة مكتومة. بادرتني قائلة:

- ماذا أصابك أيتها البرلينية! ألا تستطيعين تمالك نفسك؟

عندئذ سمعت شهيق الأخريات وهنّ يقاومن الضحك، ثمّ انفجرن مقهقهات بينما مضى الحرّاس ينظرون إليهنّ في استغراب.

t.me/qurssan

ضرب أحد الحرّاس بقبضته على المائدة ويده الأخرى على محمد المسدس، وقال:

- ما المضحك في الأمر؟ ماذا أصابكنّ؟ هل ترغبن في أن أستأصل منكنّ الرغبة في الضحك؟

عمَّ الهدوء، فصاح:

- انضباط!

لكن ما وقع كان قد وقع: لأوّل مرّة نضحك معاً.

كان البُقسُماط هشّاً وشهيّاً، فرُحت أتلذّذ بهذا الامتياز الذي حظيت به، بحلاوته القاسية. أمّا كرومل فبدا راضياً. وقد اكتشفت مع مرور الوقت أنّه دائم الرضا، وأنّه يعتبر ذلك مسألة كبرياء مهني.

ينحدر هو أيضاً من برلين، وقد بدأ حياته المهنية في ميتروبا، الشركة الأوروبية التي كانت تدير عربات النوم والمطاعم. وقد اختاره الفوهرر سنة 1937 لكي يدلّله خلال سفراته على متن قطاره الخاص. قطار مجهّز ببطارية مضادّة للطائرات تمكّنه من الردّ على الغارات الجوية، ويحتوي على أجنحة أنيقة، كما كان يقول كرومل، إلى حدّ أنّ هتلر كان يصفها بأنّها «فندق رئيس الرايخ». وقد كان هذا القطار يدعى أميركا، على الأقل إلى أن دخل الأميركيون الحرب. ثمّ فقد منزلته حين سُمّي براندنبورغ، اسم بدا لي أقلّ ملحميّة من الأوّل. على أنّني لم أفصح عن هذا الرأي لأحد. أمّا كرومل، فيقيم الآن في وكر الذئب، ويطبخ أكثر من مثتي وجبة في اليوم، يدلّلنا بها نحن أيضاً.

لم يكن يسمح لنا بالدخول إلى مطبخه مثلما لا يسمح له هو

t.me/qurssan

أيضاً بمغادرته إلا لضرورة، كإبلاغنا بشيء، أو إذا استدعاه الحرّاس، كما حصل حين أعلنت هايكي أنّ للماء طعماً غريباً، وأيّدت بيت قولها. فقفزت النسوة من مقاعدهنّ، وبدأن يشتكين من الصداع والغثيان وهنّ يشهقن من الجزع. لكن تبيّن في الأخير أنّ الأمر يتعلّق بـ«فاشنيجن»، ماء الفوهرر المفضّل! وكانوا يسمّونه «ماء الهناء»، فكيف يمكن أن يكون ضارّاً؟

وذات ثلاثاء تغيّب مساعدان من مساعدي كرومل بسبب حمّى شديدة ألمّت بهما، فجاء إلى قاعة الطعام، ودعاني للمساعدة. لا أعرف لماذا قصدني أنا بالذات، ربّما لأنّني كنت الوحيدة التي أقبلت على قراءة كُتُب التغذية بلا ملل، أو ربّما لأنّني أنحدر من برلين مثله.

حين اختارني، بدا التذمّر واضحاً على وجوه «المسعورات»: إن كان من الضروري أن تساعده إحدى النسوة في المطبخ، ينبغي أن تكون منهنّ، لأنهنّ ربّات بيوت مثاليات. وقد سمعت ذات يوم غيرترود تقول لأختها:

- هل قرأتِ قصّة تلك الشابة التي دخلت إلى متجر أحد اليهود؟ قبضوا عليها دون أن يتركوا لها الفرصة لتستغيث.

فسألت سابين:

- كلا، أين كان ذلك؟

استرسلت غيرترود تقول:

- تصوّري، أخذها التاجر بالتواطؤ مع يهود آخرين إلى الكنيس عبر نفق يوجد في خلفية المتجر، وهناك اغتصبوها جماعة.

أغلقت سابين أذنيها كما لو أنّها تشهد الاغتصاب:

- صحيح يا غيرترود؟

t.me/qurssan

فأجابت أختها:

- صحيح طبعاً. يغتصبوهنّ ثمّ يقدّموهنّ قرابين.

سألت تيودورا:

- هل قرأت هذا في جريدة Der Stürmer؟

فأجابت غيرترود:

- عرفته وكفى. انطلاقاً من الآن، لم تعد ربّات البيوت مثلنا بمأمن حتّى في الأسواق.

فقالت تيودورا:

- هذا صحيح. من حسن الحظ أنّهم أغلقوا تلك المتاجر.

كانت مستعدّة للدفاع عن المرأة الألمانية النموذجية أمّاً وربّة بيت بكلّ ما أوتيت من شراسة، ومن شدّة تباهيها بأنّها تمثّل هذا النموذج، طلبت التحدّث إلى كرومل. شرحَت له أنّ أُسرتها كانت تشرف على تسيير مطعم قبل الحرب، وأنّها طبّاخة ماهرة، وتريد أن تثبت ذلك، فاقتنع.

سلّمنا وزرة وقفّة خضار.. غسلتُ الخضار في حوض المطبخ الكبير بينما راحت تيودورا تقطّعها على شكل مكعّبات أو دوائر. لم تكلّمني في اليوم الأوّل إلا لتعيب عليّ الطين الذي تركته عالقاً بالخضار، أو كمّية الماء الكبيرة التي أرقتها في المكان الذي كنّا نشتغل فيه. أمضت وقتها تراقب ما يفعل المساعدون كما لو أنّها تتعلّم المهنة، وتلتصق بهم حتّى أنها كانت تعيق حركتهم.

قال لها كرومل آمراً بعدما تعثّر بقدمها وكاد يسقط:

- ابتعدي قليلاً!

فاعتذرت قبل أن تضيف:

t.me/qurssan

- الحرفة ليست شيئاً يُتعلَّم، بل يُسرق! لا أستطيع أن أصدّق بأنّني أشتغل جنباً إلى جنب مع طبّاخ من مستواك!

- ماذا تقولين؟ جنباً إلى جنب؟ قلت لك ابتعدي!

لكن بعد أن اقتنعت في الأيّام الموالية بأنّها صارت عضواً كامل العضوية في الفريق، قرّرت، بوازع أخلاقيات المهنة، أن تتكفّل بي. مهما يكن، فأنا أيضاً معاوِنة، بل إنّ جهلي الواضح بالمهنة يجعل منّي مرؤوستها. هكذا حدّثتني عن مطعم والديها. محلّ صغير بالكاد يضمّ عشر موائد، «لكنه كان ساحراً للغاية». وقد اضطرتهما الحرب إلى إغلاقه، وهي تنوي إعادة فتحه عندما يعود السِّلْم، كما تنوي توسيعه. كانت التجاعيد تضيف إلى الزاويتين الخارجيتين لعينيها زعنفة ذيلية تمنحهما شكل سمكة صغيرة. وقد كان حلمها أن تصبح صاحبة مطعم يُلهب حماسها. وحين كانت تستبدّ بها الإثارة، تختلج الزعنفتان على وجهها حتى ليُخيَّل إليّ أنّ عينيها ستقفزان وترسمان دائرة صغيرة قبل أن تغوصا في الإناء المليء بالماء المغلي.

وقالت:

- إن وصل البلاشفة، فوداعاً. لن نغامر بفتح مطعم. سينتهي كلّ شيء.

وتجمّدت الزعانف فجأة، ولم تعد عيناها تتقافزان كالماء الجاري، وتحوّلتا إلى أحفورتين ضاربتين في القِدَم. كم كان عمر تيودورا؟

وجازفت بالقول:

- أتمنى ألا تكون النهاية. لست متأكّدة بأنّنا سنكسب هذه الحرب.

- لعلّك سمعت ما قال الفوهرر؟ إذا انتصر الروس، سيكون

t.me/qurssan

،صيرنا الدمار والاستعباد. سيُقاد الرجال مشياً في طوابير طويلة نحو «وندرا.

كلا لم أسمعه.

أذكر أنّ غريغور كان جالساً على الأريكة التي اشتريناها من بائع الأثاث القديم في صالون شقتنا بألتوميسيفيك. هبّ واقفاً ودنا من النافذة وهو يتنهّد وقال: «الجوّ أشبه بجوّ الروس!» ثمّ أضاف شارحاً إنّ الجنود يردّدون هذه العبارة فيما بينهم لأن الروس يهاجمون حتّى في أسوأ الأحوال الجويّة: «لا شيء يوقفهم».

عادَ إلى البيت في إجازة، وحدّثني عن الجبهة، وهو أمر قلّما كان يحدث. حكى لي مثلاً عن مورغنكانزيرت أو حفل الصباح، يقصدون بها معزوفة الطلقات النارية التي كان الروس يحرصون عليها كلّ صباح عند استيقاظهم.

وأعلن ذات مساء ونحن في السرير:

- إن وصل الروس، فلن يشفقوا على أحد.

- كيف عرفت هذا؟

- الألمان لا يعاملون الأسرى السوفييت مثل الآخرين. يُسمح للفرنسيين والإنجليز بتلقّي طرود من الصليب الأحمر، بل قد يؤذن لهم بلعب كُرة القدم في فترة بعد الظهر، بينما يُجبر السوفييت على حفر الخنادق تحت مراقبة عساكر من جيشهم.

- من جيشهم؟

- نعم، أشخاص يُغرون بقطعة خبز صغيرة أو مغرفة حساء إضافيّة، فيتنكّرون لبني جلدتهم. إن عاملونا بمثل ما عاملناهم به، سيكون الأمر فظيعاً.

t.me/qurssan

مكثت أتقلّب في الفراش طويلاً لا أستطيع النوم، وانتهى الأمر بغريغور أنّ ضمّني بين ذراعَيه.

- اعذريني، ما كان عليّ أن أخبرك بهذه الفظاعات. ما كان ينبغي أن تعرفيها، فيمَ ستفيدك؟

غطّ في النوم، وبقيت أنا مستيقظة.

وقلت في نفسي: «نستحقّ كلّ ما قد يفعلونه بنا».

نظرَت إليّ تيودورا بازدراء مستاءة، وتجاهلتني من جديد. أثّر فيّ عداؤها وإن لم يكن ثمّة داعٍ للتأثُّر. فهي ليست ممّن كنت أحرص على أن يجمعني شيء بهنّ، بل لم يكن ثمّة في الواقع ما يمكن أن يجمعني بغيرها من الذائقات أيضاً، سواء أوغيستين التي لا تكفّ عن مناوشتي والتنغيص عليّ: أعثرت على صديقة جديدة؟ ولا بليني التي كانت تبالغ في الثناء على الطعام كما لو أنّني أنا من طبخته. لم يكن ثمّة شيء يجمعني بهؤلاء النسوة باستثناء هذا العمل الذي لم يخطر لي على بال يوماً. ماذا ستشتغلين حين تكبرين؟ ذائقة طعام هتلر.

ومع ذلك ضايقني عداء المسعورة، بحيث صارت حركاتي في المطبخ أكثر خرقاً. ومن شدّة شرودي، أحرقت رسغي، فصرخت.

لمّا رأت تيودورا بشرتي تتغضّن من حول المكان الذي احترق، تخلّت عن صمتها وأمسكت بذراعي ثمّ فتحت الصنبور وهي تقول:

- ضعي رسغك تحت الماء البارد.

وبينما واصل الطبّاخون الآخرون عملهم، قشّرت هي حبّة بطاطس ونشّفت يدي بقطعة ثوب، ثمّ وضعت قطعة البطاطس النيّئة على البشرة المحروقة.

t.me/qurssan

- سيخفّ ألمك، سترين.

وقد تأثّرت كثيراً لهذه العناية الأموميّة.

وبينما كنت واقفة في ركن من المطبخ، رأيت كرومل يلقي بشيء في الحساء ويضحك خلسة. وحين لاحظ أنّني رمقته، وضع سبابته على فمه وقال:

- من غير المحمود الاستغناء عن اللحم تماماً. لعلّك اطّلعت انت أيضاً على هذه الحقيقة في الكتب التي وزّعتها عليكنّ. أليس كذلك؟ إذا كان هو يعاند ويرفض التسليم بهذا الأمر، فأنا أضع في حسائه خلسة قليلاً من لحم الخنزير المقدّد. لا يمكن أن تتصوّري مقدار حنقه إن علم بذلك! لكنّه لن يعلم أبداً.

وأضاف باغتباط:

- لكنّه حين يقتنع بأنّ وزنه قد زاد، سيرفض أن يأكل مهما فعلت.

اقتربَت منّا تيودورا التي كانت تصبّ الطحين في زبدية، فقال الطبّاخ وهو ينظر إليها:

- لا شيء، صدّقيني. السباغيتي بالجبن الطري؟... إنه يهضمها جيداً، ومع ذلك هو لا يرغب فيها. أحبّ شيء إلى نفسه حلوى التفاح البافارية: تصوّرا، اعتدت أن أقدّمها له مع شاي الليل بعد آخر اجتماع، لكنّه مذ شرع في الحمية، لم يعد يلمسها. صدّقاني، في غضون أسبوعَين، يستطيع أن يفقد حتى سبعة كيلوغرامات.

سألته المسعورة:

- ماذا تقصد بشاي الليل؟

t.me/qurssan

- يشرب الزعيم في وقت متأخّر من الليل مع أصدقائه شاياً أو مشروب شوكولاتة ساخناً. هو مغرم بالشوكولاتة بينما يحتسي الآخرون مشروبات مسكّرة، كأس من هنا وكأس من هناك. لا يمكن القول إنّ ذلك يروقه، لكنّه لا يمانع. لم يغضب إلا مرّة واحدة، وكان ذلك بسبب هوفمان المصوّر، وهو رجل سكّير. وإجمالاً، لا يعير الزعيم اهتماماً لذلك. يُغمض عينيه ويروح ينصت لأوبرا تريستان وإيزولت. هو يقول دائماً: لو قيّض لي أن أموت، أتمنّى أن تكون آخر شيء تسمعه أذناي.

كانت تيودورا في منتهى الانتشاء. أزالت قطعة البطاطس عن رسغي. كانت الرقعة المحروقة قد اتسعت. أردت أن أريها إيّاها، وتوقّعت أن تستشيط غضباً، وتعيد القطعة إلى مكانها: اتركيها في مكانها وكُفّي عن هذه التصرُّفات الصبيانية. وشعرتُ فجأة بالشوق إلى أمّي. لكنّ المسعورة كانت مستغرقة في الإنصات لكلام كرومل، ولم تعبأ بي. توحي الكيفية التي يتحدّث بها الطبّاخ عن هتلر بأنّه يعزّه، وأنه لا يشكّ في أنّنا نعزّه، في أنني أعزّه أيضاً. ألا أعرّضُ نفسي للموت من أجل الفوهرر؟ في كلّ يوم يستدعي صحني، صحوننا العشرة المصطفّة، حضوره مثلما يستحضر المسيحيون روح المسيح عبر القربان المقدّس، لكن من دون طمع في الأبدية. كلّ ما نتلقّاه نظير ذلك مئتي مارك في الشهر.

كانوا قد سلّموها لنا في مظروف ذات مساء قبل أيّام بينما كنّا نتأهّب لنغادر. حشرنا المظروف بسرعة في جيوبنا أو حقائبنا، ولم تجرؤ أيّ منا على فتحه في الحافلة والاطّلاع على محتواه. ولم أتفحّص مذهولة حزمة الأوراق النقدية إلا عندما أغلقت على نفسي في غرفتي: كان المبلغ أعلى ممّا كنت أكسبه في برلين.

t.me/qurssan

رميتُ قطعة البطاطس في سطل القمامة.

- يدّعي الزعيم أنّه يتعرّق إن أكلَ اللحم أو شربَ النبيذ. أما أنا فاجيبه أنّ سبب التعرّق هو شدّة القلق. لا يتعب كرومل من الحديث عنه. انظر إلى الخيل أو الثيران، فهي حيوانات عاشبة، لكنّها قوية ومتينة. انظر بالمقابل إلى الكلاب: بمجرّد ما تجري قليلاً، تتدلّى ألسنتها.

فتعلّق تيودورا:

- هذا صحيح. لم يخطر لي على بال. إنه عين الصواب.

- الواقع أنّني لست متأكّداً ممّا إذا كان على حقّ. مهما يكن، فهو يقول أيضاً إنّه لا يطيق وحشيّة المسالخ.

لم يعد كرومل يتوجّه بالحديث إليها.

تناولتُ قطعة خبز من سلّة كبيرة، ونزعت القشرة لأحتفظ باللُّب.

- حكى لضيوفه ذات يوم خلال العشاء أنّه زار مسلخاً، وكيف أنه ما زال يذكر ضجّة الجراميق وهي تخوض في الدم الطازج، فما كان من المسكين ديتريش إلا أن أبعد صحنه... إنّه شخص مرهف الإحساس.

ضحكت المسعورة من صميم قلبها. أمّا أنا فرُحت أبرم اللُّب بين أصابعي وأصنع منه حلقات وضفائر صغيرة. وما كاد كرومل ينتبه إلى ما صنعت حتى عاتبني على هذا التبذير.

فقلت:

- صنعتها لك. إنّها مثلك، يا «فتات».

راح يحرّك الحساء دون أن يجيب، وطلب من تيودورا أن تراقب اللّفت الموضوع في الفرن.

t.me/qurssan

استطردتُ أقول:

- التبذير هو سيّد المكان هنا. ألسنا، نحن الذائقات، محض تبذير؟ لن يستطيع أحد تسميمه مع نظام المراقبة الصارم هذا. إنّه العبث.

سألت المسعورة:

- لم أكن أعلم أنّك عارفة بأنظمة المراقبة. لعلّك ضليعة أيضاً في الاستراتيجية الحربيّة؟

فصاح بنا كرومل مثل أبٍ ينهر طفلتيه المتشاحنتين:

- كفى!

قلت وأنا أتوخّى استفزازها:

- ماذا كان يصنع قبل تشغيلنا؟ ألم يكن يخاف التسميم؟

في تلك الأثناء دخل أحد الحرّاس إلى المطبخ ونبّهنا إلى أنّ وقت الأكل قد حان، وأنّ علينا الالتحاق بالمائدة. فتركت تلك الأشياء التي صنعت من اللُّب تجفّ على طاولة المطبخ الرخامية.

في اليوم الموالي بينما كنت منهمكة أعمل تارة مع الطبّاخين المساعدين الذين يشتغلون في تناسُق بديع، وأخرى مع المسعورة المتحمّسة، قدّم لنا كرومل هديّة غير متوقّعة: أعطانا خلسة، أنا وتيودورا، فواكه وجُبناً. حشرها بنفسه في حقيبتي، الحقيبة الجلدية التي كنت أحملها إلى المكتب في برلين. سألته:

- لماذا؟

فقال:

- أنتما تستحقّان هذه الهدية.

أخذت كل ما أعطاني إلى البيت. وحين فتحت هيرتا العلبة لم تصدّق عينيها. ستتعشّى عشاء فاخراً، وهذا بفضلي، بفضل هتلر.

t.me/qurssan

9

قطعت أوغيستين الممرّ داخل الحافلة بسرعة فائقة ووضعت يدها على مسند المقعد بحيث لامست شعر ليني، وقالت لها:

- هل تسمحين بأن نتبادل؟ هذا اليوم فقط.

كان الظلام دامساً في الخارج. نظرت إليّ ليني متردّدة، ثمّ قامت وجلست في مقعد فارغ، فقعدت مكانها أوغيستين.

قالت:

- حقيبتك مليئة.

لم تكن ليني وحدها التي تراقبنا، بل بيت وإلفريد أيضاً. أمّا المسعورات فكنّ جالسات في المقاعد الأمامية، خلف السائق مباشرة.

تشكّلت بين الذائقات مجموعات على نحو عفوي، ليس بحثاً عن الحنان قطعاً، بل لأنّ تصدّعات وتقاربات لا تقلّ عن عنف تزحزح القارّات، حصلت بيننا. بالنسبة إليّ، جعلتني حاجة ليني إلى الحماية، البادية في كلّ رمشة من عينيها، أتحمّل مسؤولية الدفاع عنها. أمّا إلفريد، التي دفعتني في المراحيض، فكنت ألمس في حركاتها الخوف نفسه الذي يتملّكني. كانت واقعة المراحيض محاولة للاتّصال. لم يخطئ الحارس ربّما: محاولة لا تخلو من

t.me/qurssan

حميمية. لقد تعمّدت إلفريد المواجهة، مثل أولئك الصبيان الذين يلجؤون إلى العراك لاكتشاف الصديق الذي يمكن أن يثقوا فيه. لم يتركنا الحارس نشتبك، وبذلك بقي بيننا حساب بحاجة إلى تسوية، إلى احتكاك جسدي يولّد بيننا حقلاً مغناطيسياً.

- هل حقيبتك مليئة؟ أجيبي.

استدارت تيودورا بحركة آلية عند سماع صوت أوغيستين الأبحّ.

كانت قد أعلنت قبل بضعة أسابيع أنّ الفوهرر اندفاعي، وأنّه يتصرف في الحال من دون تروٍّ. فعلّقت غيرترود وهي تضع دبوسَيْ شعر في فمها، ومن دون أن تنتبه إلى أنّها تناقض صديقتها:

- أجل، إنّه نابغة.

ثمّ استرسلت تقول بعد أن أدخلت الدبوسَين في ضفيرة ملفوفة على جانب رأسها:

- أنت تعلمين أنّهم يخفون عنه أشياء كثيرة. لا يخبرونه بكلّ ما يقع، ومن ثمّة فهو ليس مسؤولاً دائماً عن الأخطاء.

وتظاهرت أوغيستين بالبصق عليهما.

ها هي الآن جالسة بجواري، شابكة ساقيها، إحدى ركبتيها ملتصقة بالمقعد الموجود أمامها.

- منذ بضعة أيام يسلّمك الطباخ بقايا طعام تحملينها إلى البيت.

- نعم.

- حسناً، نحن أيضاً نريد نصيبنا منها.

من تقصد بـ«نحن»؟ لم أعرف كيف أجيبها. فالتضامن لم يكن شائعاً بين الذائقات. كنّا أشبه بكُتل طين تطفو أو تتصادم، تنجرف معاً إلى الساحل أو تتباعد.

t.me/qurssan

- لا أظنك أنانية. هو يؤثرك، اطلبي منه المزيد.

قلت وأنا أمدّ لها حقيبتي:

- خذي ما في الحقيبة.

- هذا لا يكفيني. نحتاج إلى الحليب، زجاجتين على الأقل: لدينا أطفال، وهم يحتاجون الحليب.

لم تكن المسألة مسألة عوز، فقد كنّ يتلقّين راتباً أعلى من راتب العمّال. لو أنّني جهرت بهذه الملاحظة لردّت: ولماذا تحصلين على شيء لا نحصل نحن عليه؟ وكنت سأجيبها حينها متحدّية: اسألي تيودورا. كانت متيقّنة من أنّ تيودورا لن تقبل، فلماذا توقّعت منّي أنا القبول؟ أنا لست صديقتها، لكنّها استشعرت حاجتي القلقة إلى الوفاق. تفطّنت لذلك منذ البداية.

كيف تنشأ الصداقة؟ الآن وقد تعلّمت كيف أفكّ شفرة سحنات رفيقاتي، وصرت قادرة على التكهّن بها، أخذَت تبدو لي وجوههنّ مخالفة للصورة التي رأيتها يوم لقائنا الأوّل.

يحدث هذا في المدرسة أو في المعمل، أيّ في الأماكن التي يقضي فيها المرء ساعات طوالاً من حياته، بحيث تُفرض عليه الصداقة فرضاً.

- حسناً يا أوغيستين، سأطلب منه ذلك غداً.

في اليوم الموالي أخبرنا كرومل أنّ مساعديه عادا، وأنّه سيستغني عن خدمتنا. شرحتُ ذلك لأوغيستين والأخريات اللواتي تتحدّث بلسانهنّ، لكن هايكي وبيت لم تتقبّلا الأمر. ليس من العدل أن تستفيدي من أشياء إضافية ولا نستفيد منها نحن. نحن لدينا أطفال، وأنت، من لديك؟

t.me/qurssan

لم يكن لديّ أطفال. كنت كلّما فاتحت غريغور في الموضوع، يجيب بأنّ وضعنا لا يسمح. فهو منشغل بالحرب، وأنا أعيش بمفردي. كان قد التحق بالجيش سنة 1940، أيّ بعد سنة على زواجنا، ووجدت نفسي من دونه في الشقّة التي أثّثناها بما اشتريناه من بائع أثاث قديم كنّا نتردّد عليه صباح كلّ سبت، وإن كنّا لا نذهب أحياناً إلّا لتناول الفطور في المخبز المجاور: فطائر حلزونية بالقرفة أو بحبوب الخشخاش، نأكلها معاً ونحن نمشي في الشارع، لُقمة له ولُقمة لي. هكذا ألفيت نفسي وحيدة من دونه ومن دون أطفال، في شقّة مليئة بالتُّحف الرخيصة.

الألمان يحبّون الأطفال، والفوهرر يداعب خدودهم خلال الاستعراضات، ويحثّ النساء على الإنجاب. ومع أنّ غريغور كان يتوق ليكون ألمانياً صالحاً، لم يقتنع بهذه الفكرة. كان يقول إنّ المرء حين ينجب طفلاً، فهو يحكم عليه بالموت. كنت أعترض قائلة: ولكن الحرب لا بدَّ أن تضع أوزارها يوماً، فيردّ: أنا لا أقصد الحرب، بل الحياة: كلّ البشر إلى فناء. فأقول عاتبة: ماذا أصابك؟ ألا تلاحظ أنّك صرت سوداوياً منذ التحقت بالجبهة؟ فيغضب.

حين سيعود خلال أعياد الميلاد، لربّما استعنت بهيرتا وجوزيف لإقناعه.

لو حبلت، لكنت غذّيت الجنين في أحشائي من وجبات المطعم، مع أنّ امرأة حبلى ليست فأر تجارب مثالياً، لأنّها قد تزيّف نتائج التجربة. على أنّني سأخفي الأمر عن الحرّاس، على الأقل طالما لم تفضحني التحاليل أو محيط خصري.

قد يتسمّم الجنين، فنموت معاً. وقد يحيا. ذلك أنّ عظامه

t.me/qurssan

الهشّة وعضلاته الغضّة ستغذّى من طعام هتلر. سيكون طفل الرايخ قبل أن يكون طفلي. مهما يكن، لا أحد يأتي إلى هذا العالم منزّهاً من الأخطاء.

قالت أوغيستين:

- ما عليك إلا أن تختلسي. اذهبي إلى المطبخ، وخوضي في الحديث مع الطبّاخ: حدّثيه عن برلين وعن خرجاتك إلى الأوبرا، من أشياء من هذا القبيل، وبمجرّد ما يسهو عنك، اخطفي علبة حليب.

- أجننت؟ لا أستطيع.

- الحليب ليس حليبه. فأنت لن تحرميه من شيء.

- ولكنه عمل منكر. هو يثق بي ولا يستحق ذلك.

- لماذا يا روزا؟ وهل نستحقّ نحن هذا الوضع؟

كان الضوء ينعكس على رخام طاولة المطبخ الصقيلة من شدّة ما يمسحها الطبّاخون المساعدون.

قال كرومل:

- سيستسلم السوفييت عاجلاً أم آجلاً، سترين.

كنّا بمفردنا، ذلك أنّ كرومل أرسل مساعديه لكي يفرغوا المؤن التي وصلت عبر القطار إلى محطة فولفشانزي، بعد أن وعدهم بأنّه سيلحق بهم بعد حين. ولكي أؤخّره قليلاً بعد أن أعيتني الحيلة، طلبت منه توضيحات حول أحد فصول كتاب الطبخ الذي كان قد سلّمني إيّاه. كنت أنوي، بعد أن يفرغ من الشرح -لا سيّما أنّه كان ينتشي بتقمّص دور المعلّم- أن أطلب منه زجاجتَي حليب. لكن كرومل لم يسلّمني حليباً قطّ، هذا علاوة على أنّ الطلب سيبدو

t.me/qurssan

مجاناً للّياقة والأدب، إذ ثمّة فرق بين أن يهديك الشخص شيئاً وأن تطلبه منه. ثمّ، من أجل من أشحذ هذا الحليب؟ فأنا لم أنجب أبداً، ولم أرضِع.

لم تكد تمضي دقائق حتّى استخفّته النشوة، فجلس وأشبعني كلاماً كعادته. إنّ كارثة ستالينغراد التي حدثت في شهر فبراير ثبّطت همم الناس جميعاً.

- استرخصوا حياتهم لكي تحيا ألمانيا.

- هذا ما يقوله الفوهرر.

- أنا أصدّق كلامه، وأنت، ألا تصدقين؟

لم أشأ أن أعاكسه، وإلا ضحّيت بتلك الحظوة التي يشملني بها. وحرّكت رأسي موافقة في تردّد.

وقال:

- سيكون الانتصار من نصيبنا لا محالة، لأنّ قضيّتنا عادلة.

أخبرني أنّ هتلر يأكل قبالة جدار عُلّق عليه علم سوفييتي غُنم خلال عملية بارباروزا. كان قصده من ذلك أن يصوّر لضيوفه مخاطر البلشفية التي تستخفّ بها الدول الأوروبية. فهي لا تدرك أنّ الاتحاد السوفييتي كيان غامض وملغز ومقلِق كالسفينة الشبح في أوبرا فاغنر. لن ينجح في نسفها إلا رجل عنيد مثله، مصمّم على تعقّبها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلّق كرومل وهو ينظر إلى ساعته:

- هو الوحيد القادر على ذلك، اللعنة! ينبغي أن أذهب. أتحتاجين إلى شيء آخر؟

أحتاج حليباً طرياً لأطفال ليسوا أطفالي.

t.me/qurssan

- كلا، شكراً، بالعكس، هل من خدمة أقدّمها لك نظير هذا الوقت الذي منحتني؟ لقد كنت في غاية اللطف.

- هل يمكن أن تقدمي لي خدمة؟ هناك بضعة كيلوغرامات من الفاصولياء تحتاج إلى فصل الحَبّ عن القشور. هل يمكن أن تشرعي في تقشيرها على الأقل إلى أن يحين وقت المغادرة؟ سأخبر الحرّاس أنك ستمكثين هنا.

تركني بمفردي في المطبخ. كان بإمكاني أن أسمّم المؤن، لكنّ ذلك لم يخطر ببال كرومل البتّة: فأنا في نظره ذائقة من ذائقات طعام هتلر، عضوة من أعضاء الفريق، لا سيّما أنّني آتية من برلين مثله. إنه يثقُ بي.

وبينما كنت في الطابور أتأهّب لأصعد إلى الحافلة، وقد شددت الحقيبة إلى بطني، تهيّأ لي سماع رنين زجاج القارورتين، فحاولت أن أثبّتهما بيدي وأمشي ببطء، لكن من دون أن أتباطأ كثيراً فألفت نظر الحرّاس. كانت إلفريد خلفي كعادتها، وكنّا نجرجر خطواتنا في آخر الطابور، لا بسبب الخمول، بل لأنّنا لم نكن قادرتَين على مجاراة الحركة. فرغم استعدادنا لاحترام النظام، إلا أن النظام كان يجد صعوبة في استيعابنا. كنّا مثل قطعتين صُنعتا من مادّة شاذّة أو بحجم غير مناسب، لكنهما تظلان صالحتَين للبناء مع ذلك.

كانت أنفاسها تدغدغ رقبتي.

- لقد وقعت في الفخّ، أيّتها البرلينية.

فنهرها أحد الحرّاس بفتور:

- صه!

t.me/qurssan

شددت على القنينتَين من خلال جلد الحقيبة وأنا أتقدّم ببطء محاذرة من أن أصطدم بشيء.

وشعرت بأنفاسها كقطعة من نار وهي تقول:

- حسبتك استوعبت أنّ من صالح كلّ واحدة هنا ألا تهتم إلّا بشؤونها.

رأيت الحارس يتقدّم متهادياً إلى أن وصل أمامي، وراح يتفحّصني. واصلتُ المشي مع الأخريات إلى أن أمسك بذراعي وأزاحه عن جلد الحقيبة. ورحت أنتظر رنين الزجاجتين وهما تتصادمان، بيد أنّهما لم تتزعزعا. فقد ثبّتهما داخل الحقيبة.

- أما زلتما تتآمران؟

توقّفت إلفريد.

أمسك الحارس بها هي الأخرى.

- ألم أحذّركما؟ ألم أقل لكما إن ضبطتكما ثانية، سأكرّم وفادتكما؟

شعرت بالزجاج البارد على وركي. كان يكفي أن يلمس الحقيبة من دون قصد لينفضح أمري. لكنّه ترك ذراعي وأمسك بذقني بين سبابته وإبهامه، وأحنى عليّ. كان ذقني يرتعش، ورحت أبحث عن إلفريد.

- بما أنّ رائحة البروكولي البغيضة تفوح منك اليوم، سأرجئ ذلك إلى يوم آخر.

وندّت عنه ضحكة طويلة، أطول من أن يشاركه فيها زملاؤه، ثمّ قال:

- لماذا تنظرين إليّ بهذا الوجوم؟ كنت أمزح. حتّى المزاح لا نحرمكنّ منه، ماذا تطلبن أكثر؟

t.me/qurssan

سلّمت الحليب لأوغيستين خلف مساند المقاعد في الحافلة، ولففته في كيس صغير من القماش أحضرته. كان ذقني لا يزال جامداً، وتحت وجنتي عصب يختلج.

- لقد تصرّفتِ ببراعة ونُبل.

وبدت لي البسمة التي شكرتني بها صادقة.

كيف تنشأ الصداقة؟

هم ونحن، هذا هو الموقف الذي وضعتني أوغيستين أمامه. نحن الضحايا، النسوة الشابات اللواتي لا خيار أمامهنّ، وهم، الأعداء الذين يشتطّون في استعمال سُلطتهم. ما قصدت أوغيستين أن تبلغني به هو أنّ كرومل ليس من معسكرنا. فهو نازي بينما لم يكن بيننا نحن نازي قط.

الوحيدة التي تجنبّت أن تبسم لي هي إلفريد. كانت مستغرقة في النظر إلى الحقول الواسعة والمخازن المتراكضة من خلال زجاج النافذة. كنت أقطع كلّ يوم ثمانية كيلومترات في هذه الحافلة لكي أصل إلى منعطف غروس-بارتش، حيث يوجد منفاي.

t.me/qurssan

10

بينما كنت مستلقية في سرير غريغور، رحت أحدّق في صورته الملصقة في إطار المرآة الموجودة فوق خزانة الملابس. لا أستطيع أن أحسم ما إذا كان في الخامسة من عمره أو السادسة. يرتدي حذاء ثلجياً، ويغضّن عينيه بسبب انعكاس أشعّة الشمس.

كان النوم يجفوني كلّ ليلة منذ حللت بغروس-بارتش. على أنّني لم أكن أنام أيضاً في برلين حيث كنّا نتكدّس في القبو مع الجرذان. كان هير هولر يقول سينتهي بنا المطاف إلى أكلها بعد أن تنقرض القطط والعصافير. هولر هو من كان يقول هذا، هو من كان الجزع يلوي أمعاءه، فينعزل في ركن وُضِع فيه سطل تنبعث منه رائحة كريهة.

كانت حقائبنا جاهزة استعداداً للفرار عند الضرورة.

صعدتُ إلى بيتنا بعد قنبلة بودينغاس: كانت الشقّة مغمورة بالمياه بسبب إصابة القنوات. كان الماء يصل إلى الركبة. فتحت الحقيبة فوق السرير، وبحثت عن ألبوم الصور بين الملابس، فوجدته غير مبلّل، ثمّ فتحت حقيبة أمّي وتشمّمت أغراضها. كانت رائحتها تشبه كثيراً رائحتي. الآن وبعد أن ماتت وبقيتُ أنا على قيد الحياة، بدت لي هذه الرائحة -التي صرت الوحيدة المسؤولة عنها، لأنّني وارثتها الوحيدة- أكثر إثارة للاشمئزاز ممّا كانت. وقد عثرتُ في

t.me/qurssan

ـلبيبتها على صورة لفرانز، بعثها من أميركا سنة 1938، بعد بضعة ا.هور على سفره. ومنذئذ لم نرَه ثانية. لم تكن في الحقيبة صورة من ..وري. كانت أمّي تعتقد أنّنا إن اضطررنا إلى الهرب، فسنفعل ذلك ،ماً. على أنّها ماتت الآن.

دفنتها بعد القنبلة، ودخلت إلى الشقق المهجورة، فتّشت الخزانات، أكلت ما يمكن أن آكله، ثمّ سرقت فناجين وأباريق شاي الكي أبيعها في سوق ألكساندربلاتز السوداء مع سفرة الخزف التي ك‍انت أمّي تخبّئها في البوفيه الزجاجي.

آوتني آن لانهانس في بيتها، وكنّا ننام في السرير نفسه والصغيرة ،ولين بيننا. في بعض الأحيان كنت أتخيّلها الطفلة الصغيرة التي لم أرزَقها. وكانت أنفاسها تواسيني، بحيث صارت أشدّ ألفة لدي من انفاس أمّي. كنت واثقة من أنّ غريغور سيعود من الحرب يوماً، فنصلح قنوات المياه بشقّة والديّ، وننجب طفلاً، بل طفلَين. وخلال نومهما سيتنفّسان من فميهما المفتوحَين كما تفعل بولين.

كان غريغور فارعاً. حين أسير إلى جانبه في أنتر دين ليندن الذي خلا من أشجار الزيزفون: قطعوها لأنّ الناس ينبغي أن ترى الفوهرر حين يظهر في الاستعراض- وهو يمسك بيدي، كنت بالكاد أبلغ كتفه.

قلت له:

- ألا ترى أنّ قصة السكرتيرة ورئيسها شاعت؟

فأجاب:

- إنّ سرّحتك من العمل، هل سيكون من حقّي أن أقبّلك؟

ضحكتُ. توقّف وأسند ظهره إلى زجاج أحد المحلات

t.me/qurssan

التجارية. سحبني إليه، فخنقتُ ضحكتي بثوب كنزته الصوفية، ثمّ رفعت رأسي، فرأيت البورتريه في الزجاج: كانت الهالة المرسومة حول الرأس صفراء، ونظرته متجهّمة كما لو أنّه طهّر من توّه الهيكل من التجّار. تبادلنا القُبل على مرأى منه. لقد بارك أدولف هتلر حبّنا شخصياً.

فتحت درج منضدة السرير وأخرجت جميع رسائل غريغور، وأعدت قراءتها واحدة تلو الأخرى. كان الأمر كما لو أنّني أسمع صوته، وألمس وجوده بجانبي. وذكّرتني العلامات بالقلم على الرزنامة بأنّ هذا الشعور سيتحوّل إلى واقع قريباً.

لاحظ عليّ صباح اليوم الذي غادر فيه علامات الانهيار وأنا واقفة عند عتبة غرفة نومنا، مُسنِدة جبيني على عضادة الباب. ماذا بك؟ لم أجب.

إنّه الشخص الذي ذقت معه لأوّل مرة طعم السعادة الذي لم يخطر ببالي قطّ أنّني سأنال منها حظّاً. فلعلّ الهالتين السوداوين المحيطتين بعينيّ كانتا نبوءة بمصير سيّئ، لكن ها هو غريغور يكذّبها ويمنحني سعادة غامرة وافية، سعادة لي أنا وحدي، كما لو أنّ ذلك هو أسهل ما في الوجود. وقد كان بارعاً في ذلك.

لكنّه سرعان ما تخلّى عن هذه المهمّة بعدما عنّت له مهمّة أخرى أهمّ. قال: **سأعود بسرعة**، وداعب صدغَي ووجنتَيّ وشفتَيّ، وحاول أن يُدخل أصابعه في فمي، مثلما اعتدنا أن نفعل، جرياً على الميثاق السرّي المُبرم بيننا: **ثق بي، أثق بك؛ أحبّني، أحبّك.** لكنّني ذلك اليوم شددت أسناني فسحبَ يده.

t.me/qurssan

كنت أتخيّله في الخنادق خفيفاً وماهراً، تخرج أنفاسه في البرد القارص عبارة عن سحابة بُخار كثيفة. كتبَ لي: شخصان لم يتوقعا أنّ الجوّ بارد في روسيا. أحدهما هو نابوليون. ولم يذكر الثاني، من باب الحذر ربّما. ولمّا سألته عن العمليات العسكريّة، أشار إلى أنّ ذلك يعدّ من الأسرار التي عليهم حفظها: لعلّها ذريعة تذرّع بها لكي لا يرعبني. قد يكون في هذه الأثناء يتناول عشاءه بجوار النار مع جنود وضعوا صحوناً معدنية ملأى باللّحم على رُكبهم، لابسين بزّاتهم التي اتّسعت عليهم أكثر فأكثر بسبب هزالهم المستمرّ. وقد كنت واثقة من أنّ غريغور لا يجرؤ على إبداء تبرّمه من الطعام حتّى لا يستثقله رفاقه. كان دائماً بحاجة إلى أن يعتمد عليه الآخرون ليشعر بنفسه قويّاً.

كتبَ لي في البداية أنّه يشمئزّ من النوم مع أشخاص غرباء مسلّحين. قد يطلق عليه أيّ منهم النار لأتفه الأسباب: مشاحنة أثناء لعب الورق، تأثير كابوس مرعب أثناء النوم، خصام خلال عملية زحف على العدو. لم يكن يثق فيهم. لم يكن يثق في أحد سواي. وقد شعرَ بالخجل من هذه الأفكار لاحقاً لمّا عرفهم، وتعلّق بهم.

كان بينهم رسّام فقدَ إصبعَين في الحرب، ولم يكن يعلم ما إذا كان سيستطيع الرسم ثانية. كان يكره النازيين واليهود على حدّ سواء، بينما كان جندي آخر موالياً للنازيين، لكنّه لا يأبه بأمر اليهود، مقتنعاً بأنّهم لا يمكن أن يقضّوا مضجع هتلر. كان يقول إن برلين لن تُقصف أبداً، لأنّ الفوهرر لن يسمح بذلك. ثمّ أصيبت العمارة التي كان يقطن بها والداي، ولست أدري ما إذا كان ذلك زعزع اقتناعه. كان هذا الرفيق يقول إنّ هتلر أعدّ العدّة لكلّ شيء، وكان زوجي يصغي إليه بحكم أنّهما ينتميان إلى السريّة نفسها،

t.me/qurssan

وأفراد السريّة في الحرب يصبحون كالجسم الواحد. كانوا هم الجسم الذي يشعر زوجي بالانتماء إليه، المرآة التي تعكس جسمه إلى ما لا نهاية. هم من كانوا يشكّلون لحمته، لا أنا.

ثمّ هناك راينهارد الذي كان يخاف من كلّ شيء، بما في ذلك القمل، ويلتصق بغريغور كما يلتصق الطفل بأبيه مع أنه بالكاد كان يصغره بثلاث سنوات. وقد كنت أسميه الملوَّث بالغائط. كتب لي غريغور في آخر رسالة تلقّيتها: **نحن نعاني هنا دائماً من الإسهال بسبب الطعام والبرد والخوف.** تبرّز راينهارد في سرواله أثناء الخدمة، وهو شيء معهود وشائع هنا، لكنّه أشعره بالمهانة.

الفوهرر أيضاً كان يتصارع مع مخلّفات جهازه الهضمي. وهي معضلة طالما قضّت مضجع كرومل: النظام الغذائي الذي اختطّه لرئيسه كان صحّياً للغاية، ومع ذلك يتناول موتافلور باستمرار، وهو عقار وصفه له الدكتور موريل. وحتّى هو، طبيب الزعيم الخاص، فقدَ السيطرة على الوضع في الأيّام الأخيرة، فلجأ إلى المراوغة بإعطائه حبوباً مضادّة لانتفاخ البطن، يتناول منها ستّ عشرة حبّة في اليوم أحياناً. وهكذا، فبينما وضع هتلر نظاماً متطوّراً للاحتماء من التسمُّم، كان يسمّم نفسه بالدواء.

قال كرومل وهو يضحك ضحكة صغيرة:

- من الأولى ألّا أحكي لك هذه الأشياء، فهي أقرب إلى النميمة. على أنّني واثق من أنّها ستظلّ بيننا، أليس كذلك؟

بعد تناول وجبة الغداء، عدت إلى المطبخ لأنهي كومة الفاصولياء التي عهد بها إليّ. عرضَت عليّ تيودورا المساعدة، إذ كانت تعتبر المطبخ مجالها الخاص، وتكره أن أحتلّه من دونها. قلت

t.me/qurssan

ما إنّه لا داعي. أمّا كرومل فكان مستعجلاً ولم ينتبه إلى وجودها. انطلق إلى المحطّة مع مساعديه، وتركني في المطبخ من جديد.

قمت من مقعدي بمهل حتّى لا تحتكّ قوائمه بالأرض، ومشيت على أطراف أصابع قدمَي متجنّبة أيّ ضجّة قد تلفت انتباه الحارس في الجانب الآخر من الباب. أخذت زجاجتَي حليب من البراد، وبينما كنت أفعل، شعرت بوخز خفيف على بشرتي مع أنّني كنت واضية على جسارتي إلى حدّ أنّني لم آخذ في اعتباري فرضية أن ينتبه كرومل إلى اختفاء الزجاجتَين. من البديهي أنّ كلّ السلع الموجودة في المطبخ كانت معدودة، ومن البديهي أنّ لديه سجلاً يدوّن فيه كلّ ما يدخل ويخرج. ولكن، لماذا سيشكّ فيّ أنا بالذات؟ هناك أيضاً المساعدين. يحتمل أن يكونوا هم من أخذوهما.

بينما كنّا نتقدّم في الطابور، توجّه الحارس إليّ رأساً، وفتح حقيبتي.

لم يحتج إلى كبير عناء. ما كاد يفتح الحقيبة، حتّى لاح عنقا الزجاجتَين. التفت نحو تيودورا التي هتفت:

- ألم أقل لكَ؟!

فأسكتها:

- لا أريد أن أسمع كلمة واحدة!

وعلا الفزع والذهول وجوه الرفيقات.

انطلق أحدهم إلى الفولفشانزي ليستدعي الطبّاخ. طلبوا منّا أن نظلّ واقفات في الممرّ إلى حين حضوره. ولمّا انتصب أمامي، بدا لي أشدّ هزالاً وضعفاً ممّا عهدته. وأعلن:

- أنا من سلّمتهما إياها.

t.me/qurssan

شعرت كما لو أنّني تلقّيت ضربة عنيفة على بطني. ليست ضربة جنين، بل هزّة عنيفة في أمعائي.

- إنّها مكافأة بسيطة على العمل الذي قامت به روزا ساور في المطبخ. فهي لا تتلقّى أجراً على ذلك. ما تحصل عليه من أجر نظير عملها كذائقة. لذلك بدا لي من اللائق أن أكافئها على ما قدّمت من معونة، حتّى بعد عودة المساعدين. أتمنّى ألا يعدّ هذا مشكلاً.

وشعرتُ بضربة أخرى في بطني.

- لا بأس، فأنت من يقدّر الأمور، لكن في المرّة القادمة، ينبغي أن تُعلم.

ونظر الحارس من جديد إلى تيودورا، فنظرت إليّ ولم تعتذر وبذلك جهرَت بعدائها.

قال حارس آخر:

- انتهت القضية.

ماذا قصد بهذه العبارة؟ وجوب الكفّ عن تقديم مؤن إلى روزا ساور؟ أم التوقّف عن الوشاية بروزا ساور؟ أو لعلّه أراد: اللعنة! كفاكِ ارتعاشاً، يا روزا ساور؟

- واصلن مسيرتكن.

كانت أذناي تغليان، والدمع يصعد إلى عيني مثلما يصعد الماء من جوف بئر عميقة، فيشوّش بصري. حرصت على ألا أرمش لكي لا يركد في محجريّ، ويتبخّر. وحتّى لمّا ركبت الحافلة، لم أتركه ينهمر.

لم تمدّ لي أوغيستين كيس القماش، وبذلك لازمتني الزجاجتان إلى أن بلغتِ الحافلة المنعطف القريب من البيت. وما كادت تنطلق حتى رميتهما على الأرض.

t.me/qurssan

كان هذا الحليب منذوراً لأطفالهنّ، كلا، لهتلر. كيف سمحتُ
ا فسي بتبديد هذا السائل الغنيّ بالكالسيوم والحديد والفيتامينات
،البروتينات والسكّر والأحماض الأمينية؟ إنّ مادة الحليب الدسمة
،ختلفة عمّا عداها، وهو أمر مدوّن في الكتب التي سلّمني كرومل
إياها. فهي سهلة الهضم، يستفيد منها الجسم بسرعة وعلى نحو
،متاز. كان بإمكاني أن أحفظ الزجاجتَين في برودة القبو، وأن أدعو
اوغيستين وهايكي وبيت، وأقول لهنّ: **ها هو الحليب لأطفالكنّ - مني وأورسولا وماتياس، وحتّى التوأم. إنّهما اللتران الأخيران، وانا آسفة على أنّ الأمر لم يطل، وهو يستحق العناء على كلّ حال.**
كان بوسعي أن أستقبلهنّ في مطبخ هيرتا، وأقدّم لهنّ الشاي. هذا هو
،اجب الصداقة. لقد طلبت منّي أن أسرق من أجلها، ففعلت.

كان بإمكاني أن أحضر الزجاجتين لهيرتا وجوزيف، ولا
اخبرهما بحقيقة حصولي عليهما. أقول لهما **إنّ كرومل تكرّم عليّ بهما**، وأنّه مستعدّ ليبذل كلّ ما بوسعه من أجلي. خذا، اشربا هذا
الحليب الطري المغذّي. وأكون بذلك أحسنت إليهما.

لكنّني لم أفعل. أحنيت أنظر مبهوتة إلى السائل وهو يتدفّق على
الحصى. أردت أن أهدره، ألّا يشربه أحد. شئت أن أحرم منه
أطفال هايكي وبيت وأوغيستين، أن أحرم منه كلّ الأطفال الذين
ليسوا أطفالي، دون أن يساورني شعور بالندم.

لمّا فرغت الزجاجتان، رفعت رأسي، فلمحت هيرتا في
النافذة، وجفّفت وجهي بحركة من يدي.

في اليوم الموالي، استجمعت كلّ ما أوتيت من شجاعة لكي
أفتح باب المطبخ، وقلت:

t.me/qurssan

- أتيت من أجل الفاصولياء.

كنت قد هيّأت الجُملة بعناية، ولا سيّما النبرة التي سأنطقها بها. حرصت على أن تكون مرحة، لكن من دون مبالغة، مبطّنة بتضرّع خفيّ. على أنّ النتيجة كانت صوتاً بادي التكلّف.

لم يلتفت كزومل، واكتفى بأن قال:

- شكراً، لم نعد بحاجة إلى المساعدة.

كانت الصناديق الفارغة مكدّسة في أحد الأركان. وفي الجهة المقابلة كان يوجد البرّاد، فلم أجرؤ على النظر إليه. تفحّصت أظافري، كان لونها قد اصفرّ، لكن الآن بعد أن انتهى العمل، ستعود كما كانت من قبل، أظافر سكرتيرة.

دنوت من كرومل وقلت:

- أنا من يلزم أن أشكرك، وأطلب منك المعذرة.

لم يعد صوتي متكلّفاً بل متقطّعاً.

فردّ قبل أن يشيح عنّي:

- لا أريدك أن تضعي قدميك في مطبخي أبداً.

لم أكن قادرة على النظر في عينَيه.

حرّكت رأسي إلى الأسفل مرات عديدة ليفهم أنّني سأمتثل لإرادته، ثمّ خرجت دون أن أودّعه.

t.me/qurssan

11

كان شهر ديسمبر قد حلّ. منذ نشوب الحرب، ولا سيّما منذ هادر غريغور، فقدتْ أعياد الميلاد بالنسبة إليّ طابعها الاحتفالي. أمّا هذه السنة، فكنت أنتظرها باللهفة نفسها التي انتظرتها بها في مباي، لأنّها كانت ستُهدي لي زوجي.

كنت أحشر رأسي كلّ صباح في قبّعة صوفية حبكتها هيرتا ثمّ اركب الحافلة التي تقطع بي مساحات من الثلج، متسلّلة بين صفوف من أشجار الزان والبتولا، لتقلّني إلى مطعم كراوزندورف حيث كنت أشارك، إلى جانب شابّات ألمانيات، في طقس تناول القربان. كتيبة مؤمناتٍ متأهّباتٍ لإطباق أفواههنّ على تناولٍ لن يكون فيه خلاصهنّ.

ولكن، من ذي التي كانت ستؤثر حياة الآخرة الأبدية -إن خُيّرت- على حياتها في هذه الدنيا؟ لست أنا على كلّ حال. كنت أبلع اللُّقمة التي قد تقودني إلى حتفي كما لو أنّني أفي بنذر، بثلاثة نذور في كلّ يوم، من أيام تساعية أعياد الميلاد. كان أبي يقول حين كنّا نصلّي مساء: تقرّبي إلى الربّ بعملك المدرسي وحزنك على مزلاجك المكسور وزكامك. انظري إلى هذه الأعطية، انظري إليها: أهدي خوفي من الموت المؤجّل، موعدي مع الموت الذي

t.me/qurssan

أرجئه منذ شهور، والذي لا أستطيع إلغاءه، أهديها مقابل أن يعود يا أبي، مقابل عودة غريغور. يزورني الخوف ثلاث مرّات في اليوم، يدخل دون أن يطرق، ويجلس بجواري، يتبعني إن نهضت. صار لا يفارقني.

يتعوّد الإنسان على كلّ شيء: على استخراج الفحم من جوف الأرض، والتحكُّم في حاجته إلى الأكسجين، والسير بخفّة على عارضة معلّقة في الهواء داخل ورش بناء، متغلّباً على الدوار. يتعوّد على صفارات الإنذار، وعلى النوم بملابسه حتى يكون مستعداً للهرولة إلى الملجأ حين تدوّي صفارة الإنذار، وعلى الجوع والعطش. أمّا أنا فتعوّدت على تلقّي أجر مقابل الأكل. ما قد يبدو امتيازاً، لم يكن في الحقيقة يختلف عن سواه من الأعمال.

عشيّة أعياد الميلاد، أمسك جوزيف ديكاً من قائمتيه. رفعه بحيث تدلّى رأسه، وبحركة من يده، لوى عنقه، فسُمع صوت خاطف مكتوم. وضعت هيرتا قدر ماء على النار، فلمّا غلى، غطست فيه الديك ثلاث مرّات أو أربع، ممسكة إيّاه من الرأس أولاً، ثمّ من القائمتين. وفي الأخير أخذت تنتف ريشه بيدها. كلّ هذه الوحشية استعداداً لاستقبال غريغور. ومن حسن حظّي صادفَت هذه الأيّام سفر هتلر ممّا سيتيح لي تناول الطعام مع زوجي ووالديه.

لمّا عاد غريغور في إجازة إلى برلين في المرّة الأخيرة، اقتربت منه لأداعبه بينما كان ينصت للمذياع وهو جالس في غرفة المعيشة في شقتنا ببودينغاس، فلم يستجب لمداعباتي. لم أعلّق. وددت ألّا أفسد الساعات القليلة المتبقية التي سنقضيها معاً. وفي الليل اقترب مني وأنا نائمة دون أن ينبس. استيقظت تحت ثقل جسده وغضبه.

t.me/qurssan

ىم أنّني كنت نعسانة، لم أعترض على رغبته، ولم أجاريه. وقد
اا ، في نفسي لاحقاً إنّه كان بحاجة إلى الظلام. كان بحاجة إلى ألّا
ا،ون حاضرة، وهو اكتشاف أفزعني.

وصلت الرسالة عشيّة أعياد الميلاد. كانت في غاية الاقتضاب. اخبرنا غريغور أنّه موجود في مستشفى ميداني دون أن يذكر كيف اصيب، وطبيعة الإصابة. قال فقط علينا أن نطمئنّ. وكتبنا له على الفور متوسّلين أن يمدّنا بمزيد من التفاصيل.

قال جوزيف:

- بما أنّه استطاع أن يكاتبنا، فهذا دليل على أنّ إصابته ليست بالغة.

لكنّ هيرتا حشرت وجهها بين راحتين شوّههما التهاب المفاصل، وأعرضت عن أكل الديك الذي طبخت.

وفي ليلة الخامس والعشرين، جفاني النوم كالعادة، فلم أستطع المكوث في الغرفة، إذ كانت صورة غريغور وهو في الخامسة من عمره تمزّق قلبي. غادرت سريري، ورحتُ أجوب البيت في الظلمة.

اصطدمت بأحدهم، فقلت وقد تعرّفت هيرتا:

- المعذرة. جفاني النوم.

فأجابت:

- أنا من ينبغي أن أعتذر. ها نحن نطوف في الظلام كالمسرنمتَين.

قال هتلر وهو يحتلّ إقليم الراين: **لقد سلكت الطريق الذي رسمَته لي العناية الإلهية بثقة شخص مسرنم.**

t.me/qurssan

لمّا كنت أتكلّم وأنا نائمة، كان أخي يقول: يا لها من مسرنما مسكينة.

كانت أمّي دائمة الشكوى، لا تتوقّف عن الكلام، حتّى لدا تكون نائمة. وكان فرانز يقوم من المائدة، يمدّ ذراعيه ويخرج لسانه، ويمشي كدمية كراكوز وهو يصدر صوتاً مبحوحاً، فكان أبي يقول له كفّ عن هذا، وعد إلى المائدة لتأكل.

كثيراً ما كنت أحلم بأنّني أطير. ترفعني قوّة عن الأرض وتصعد بي أعلى فأعلى، تتخبّط قدماي في الفراغ، يصفر الريح ويرميني على الأشجار وجدران البنايات، فأوشك أن أصطدم بها، وتصمّ أذني ضجّة صاخبة. كنت أدرك أنّه مجرّد حلم، وأنّني إن تكلّمت، سيزول السحر، وأعود إلى السرير. لكنّني كنت بلا صوت، فقاعة هواء عالقة بحلقي تنفجر قبيل الاصطدام بثانية واحدة، فتنطلق صيحة مدوية: النجدة! أنقذني يا فرانز!

في البداية كان أخي يسأل بفم جفّ ريقه: ماذا جرى؟ ماذا فعلت لك؟ ثمّ يستيقظ غاضباً، فلا يجد ما يقول سوى: هل يمكن أن أعرف ماذا دهاك؟

كنت أطلق على هذا اسم الاختطاف، وهي تسمية لا يعرفها فرانز ولا حتى والدَيّ. كنت أحتفظ بها لنفسي. وقد وقع لي ذلك مرّة مع غريغور، فضمّني بين ذراعيه وأنا أتصبّب عرقاً، فهمست: إنّه اختطاف، وكانت قد مضت سنوات لم يحدث لي ذلك. لم يسألني عن شيء، وهمسَ: كنت تحلمين، هذا كل ما في الأمر.

كانت دانزيغ قد احتُلّت من توّها.

بعد القنبلة، اعتقدت أنّ الاختطاف كان دائماً رؤيا تنبُّئية. على

t.me/qurssan

ا،' كلّ حياة تكون مليئة في الحقيقة بالإكراهات، وخطر الارتطام ،الجدران قائم دائماً.

كان السابع والعشرون من ديسمبر هو يوم عيد ميلادي. كفَّ الثلج عن السقوط، وتمنّيت لو يجرفني الاختطاف، فيحرّرني دفعة ،احدة ممّا تراكم بداخلي من قلق وتوتُّر، فلا أؤذي بذلك هيرتا المكروبة، ولا أزعج جوزيف.

لكن الاختطاف لم يعد، وزوجي ما زال غائباً، ورسائله توقّفت :ماماً.

توصّلنا برسالة ثانية بعد شهرين ونصف، بعثها المكتب المركزي المكلّف بإخبار عائلات الجنود، يقول فيها إنّ غريغور ساور، البالغ .ن العمر 34 عاماً، طوله 1,85 م، ووزنه 75 كلغ، ومحيط خصره 101 سم، أشقر، متناسق الملامح، أزرق العينين، سليم الأسنان، ،شتغل مهندساً، قد فُقد.

مفقود. لم يكتبوا على هذه الورقة أنّ ربلتي المدعو غريغور ساور كانتا هزيلتين، وأنّ نعلَي حذائه يتآكلان من الداخل بسبب أصابع رجليه الضخمة المفصولة فيما بينها بما يشبه الخليج، وأنّه كان مولعاً بالموسيقا، لكنّه لا يدندن أبداً، بل كان يتوسّل إليّ لأصمت لأنّني كنت أدندن طوال الوقت، على الأقل قبل نشوب الحرب. لم يكتبوا كذلك أنّه يحلق ذقنه كلّ يوم، على الأقل أيّام السِّلم، وأن بياض رغوة الحلاقة التي ينشرها بالفرشاة كانت تظهر شفتيه أشدّ احمراراً وامتلاء ممّا هي عليه، وأنّه يمسح شفتيه الدقيقتين بإبهامه وهو يسوق سيارته NSU، وأنّ ذلك كان يضايقني لأنّني كنت ارى فيه علامة على التردُّد: لا أحبّ أن أراه ضعيفاً، ينظر إلى العالم

t.me/qurssan

من حوله كتهديد، ويرفض أن يمنحني طفلاً. كنت أخال هذا الإصبع على فمه حاجزاً، مسافة تبعدني عنه. لم يخطّوا على هذه الورقة أنّه يحبّ الاستيقاظ باكراً، ويفطر بمفرده حتّى ينعم بشيء من الراحة من كلامي الذي لا ينقطع، مع أنّه لم يكن قد مضى على زواجنا سوى سنة واحدة، وكان عليه الالتحاق بالجبهة. لكنّني إذا تظاهرت بالنوم، ما أن يشربَ شايه حتّى يأتي ويجلس بجانبي على حافّة السرير، ويروح يقبّل يدَي بصدق من يقبّل طفلاً صغيراً.

توهّموا أنّهم حدّدوا هويته بهذه المتوالية من الأرقام، لكنّهم لم يقولوا إنّه زوجي، ومن ثمّة فهم يتحدّثون عن شخص آخر.

انهارت هيرتا على المقعد، فشرعتُ أناديها: «هيرتا!». لم تجب. جعلت أهزّها بعنف: «هيرتا!». كانت متصلّبة ورخوة في الآن نفسه. قدّمت لها كوب ماء. لم تشرب. «أرجوك هيرتا». لوت عنقها، فأبعدتِ الكأس. قالت وهي تنظر إلى السقف: «لن أراه ثانية».

صرخت بها: «هو لم يمت!» ارتطم جسدها بمسند المقعد، ونظرت إليّ أخيراً. «لم يمت. هو في عداد المفقودين. كتبوها على الورقة: مفقود. مفهوم؟» تطلّقت أساريرها لحظة، لكنّها سرعان ما انقبضت من جديد.

- أين جوزيف؟

- انتظري قليلاً، سأنادي عليه. لكن ينبغي أن تشربي.

وقرّبت الكأس من فمها، فكرّرَت:

- أين جوزيف؟

t.me/qurssan

انطلقتُ جارية إلى القرية باتّجاه قصر ميلدرنهاغن. جذوع رشيقة ...ولة، وأغصان عليلة، قرميد تكسوه الطحالب، إوزّ مذهول خلف الأسوِجة، نساء في النوافذ، ورجل راكب دراجته يرفع لي قبعته .حييني، تجاهلته وأنا أجري. وعلى عمود كهرباء عشّ فيه لَقلاق افع منقاره إلى السماء كما لو أنّه يصلّي. لم يكن يصلّي من أجلي على كلّ حال.

تشبّثت بالبوابة وأنا أتصبّب عرقاً، ورحت أنادي جوزيف. كانت اللَّقالق قد وصلت مبكّراً. فصل الربيع على الأبواب وغريغور لن يعود. كان زوجي ومصدر سعادتي. لن ألاعب ثانية شحمة أذنه، ولن يضغط مرّة أخرى جبينه إلى نهدي فيلتصق بي لكي أداعب شعره. لن يضع أذنه على بطني المنتفخ أبداً، ولن أنجب منه ولداً، ولن يحمله بين ذراعيه، ولن يحكي له عن مغامرات طفولته في الريف لمّا كان يقضي نهاراته بين الأشجار، ويرتمي في البحيرة ملصقاً رُكبتَيه بصدره، وعن الماء البارد والشفاه المزرقّة. وددت لو كنتُ لا أزال أستطيع أن أدخل أصابعي في فمه حتى أشعر بالأمان.

ناديت عليه وقد حشرت أنفي بين القضبان. جاء رجل وسألني من أكون فغمغمت أنّني أبحث عن البستاني، وأنني زوجة ابنه. وما كاد يوارب الباب حتّى انطلقت راكضة دون أن أعرف إلى أين أتّجه، ثمّ سمعت صوت جوزيف، فهرعت إليه. ناولته الورقة، فبسطها وشرع يقرأ.

- تعالي معي من فضلك، موتّي بحاجة إليك.

وسمعنا فجأة طقطقة على الرخام فالتفتنا.

- جوزيف.

امرأة ذات وجه مدوّر ناعم يعلوه نمش تمسك بطرف فستانها

t.me/qurssan

كما لو أنّها حثّت الخطو لكي تلحق بنا. كان مِعطفها الموضوع على كتفيها قد انزلق جانبه فكشف عن كُمّ أرجواني.

- سيدتي البارونة.

اعتذر حماي عن شدّة انفعاله، وشرح لها ما وقع، ثمّ طلب منها الإذن بالعودة إلى البيت. اقتربت منه، تناولت يده بين يديها بحيث تهيّأ لي أنّها أسندته حتّى لا يسقط، ثمّ قالت وقد اغرورقت عيناها:

- أنا آسفة.

عندئذ أجهش جوزيف بالبكاء.

لم يسبق أن رأيت رجلاً يبكي، رجلاً عجوزاً. كان نحيباً مخنوقاً جعل مفاصله تطقطق من هشاشة عظامه وإصابته بالعرج وفقدان السيطرة على العضلات. كان تجسيداً ليأس الشيخوخة.

حاولت البارونة أن تواسيه، لكنّها أعرضت منتظرة أن يهدأ التفتت إليّ وقالت:

- أنتِ هي روزا، أليس كذلك؟

هززت رأسي موافقة. ماذا تُراها تعرف عنّي؟

- من المؤسف أن نلتقي في ظرف كهذا. لطالما تمنّيت أن أتعرّف إليك. لقد حدّثني جوزيف عنك.

لم أجد الوقت لأتساءل لماذا كانت تريد أن تتعرّف إليّ، ولماذا حدّثها عنّي، وكيف تتحدّث، وهي البارونة، إلى بستاني. سحب حماي يديه من بين يديها، ومسح أهدابه المتناثرة، ودعاني لننطلق. لست أذكر كم مرّة طلب المعذرة من البارونة، ثمّ منّي أنا أيضاً ونحن في طريق العودة إلى البيت.

t.me/qurssan

صرت أرملة. كلا لم أصر. غريغور لم يمت: كلّ ما في الأمر ا..ا لا نعرف أين يوجد، ولا ما إذا كان سيعود يوماً. كم عاد من الجنود الذين فُقدوا في روسيا؟ لا يوجد قبر ولا شاهد أستطيع أن اضع تحته وروداً طريّة كلّ أسبوع. كلّ ما بقي لي منه صورة صبي ممّد عينيه للتخفيف من وهج أشعة الشمس. صورة يبدو فيها . جهّماً.

كنت أتخيّله مستلقياً على جنبه في الثلج، باسطاً ذراعه لي بينما ..ي بعيدة عن متناوله، غائبة، فتمسك يده بالفراغ. كنت أتخيّله الماً، لم يستطع مقاومة التعب. تخلّى عنه رفاقه، بمن فيهم الملوّث الغائط. يا لجحوده! فمات من البرد. عند نهاية الربيع، ستذوب ..لة الجليد كاشفة عن جسد زوجي، وربّما أيقظته بقُبلة فتاة ريفية ..ورّدة الوجنتين، فيشرع معها حياة جديدة. ينجبان أطفالاً، يوري أو ايرينا، ويشيخ في منزل ريفي، وأحياناً سينتابه، وهو جالس أمام المدفأة، شعور لا يستطيع تفسيره. ستسأله المرأة الروسية: فيمَ تفكّر؟ فيجيبها: أحسّ كما لو أنني نسيت شيئاً أو بالأحرى أحداً، لكنني لا أعرف من يكون.

أو ربّما وصلت، بعد سنوات، رسالة من روسيا. لقد عُثر على جثة غريغور ساور في مقبرة جماعية. كيف لهم أن يعرفوا بأنّه هو؟ كيف لنا أن نتأكّد من أنهم لم يخطئوا؟ لن يكون أمامنا إلا أن نصدّق قولهم.

t.me/qurssan

12

لمّا فرملت الحافلة، وضعتُ الغطاء على وجهي.

صاح الحرّاس تحت نافذتي: «انهضي يا روزا ساورا!».

بعد زوال اليوم السابق، حرصت على ألا يظهر عليّ شيء. لقد صعقني الخبر بحيث أنكره جسدي ورفض أن يستوعبه. إلفريد هي الوحيدة التي سألت: ماذا أصابك أيتها البرلينية؟ فأجبتها: لا شيء. عادت إلى سحنتها الجادّة، ووضعت يدها على كتفي وقالت: ألأنت على ما يرام يا روزا؟ فابتعدت منها. شعرت كما لو أنّ لمسة يدها حطّمت الحواجز بيني وبينها.

نادوا من جديد: «روزا ساور». كنت أنصت لأزيز المحرّك الذي توقّف فجأة، لكنّني لم أتحرّك من مكاني. لم تعد الدجاجات تقيق. كفّت عن ذلك منذ شهور كما لو أنّ زارت ألزمها الصمت. كما لو أنّ وجوده كافٍ لإخراسها. كانت قد تعوّدت على صرير العجلات فوق الحصى مثلما تعوّدنا عليه جميعاً.

سمعتُ طرقاً على باب غرفتي، وجاءني صوت هيرتا تناديني، لكنّني لم أجب.

قالت:

- تعال يا جوزيف.

t.me/qurssan

ثمّ شعرتُ بها تقترب وترفع الملاءة وتهزّني. تأكّدتُ من أنّني ما زلت حيّة. «ماذا أصابك يا روزا؟» لم يكن جسدي في عداد المفقودين، بل كان حاضراً هناك، لكنّه لا يستجيب.

لحقَ بها جوزيف:

- ماذا جرى؟

وفي تلك الأثناء سُمع طرق على باب المنزل.

توجّه حماي نحو المدخل، فقلت له متضرّعة:

- لا تفتح لهم.

فقالت هيرتا معترضة:

- ماذا تقولين؟

- ليفعلوا بي ما شاؤوا. لن أذهب. لقد تعبت.

وانحفر ثلم بين حاجبَي هيرتا، شقّ صغير عَموديّ لم ألحظه قطّ. لم يكن يعبّر عن الخوف بل عن الاستهجان، لأنّني كنت أتظاهر بالموت بينما قد يكون ابنها مات فعلاً. كنت أعرّض نفسي للخطر، وأعرّضهما هما أيضاً.

- قومي!

كانت المتا مارك التي أتقاضاها شهرياً تسدي لها خدمة جليلة.

قالت:

- قومي من فضلك.

وبينما راحت تتلمّس معصمي من فوق الغطاء وتداعبه، دخل أحد الحرّاس إلى الغرفة وهو ينادي:

- ساور.

فانخلعنا من مكاننا.

هتفت هيرتا:

t.me/qurssan

- هايل هتلر!

ومضت تشرح:

- المعذرة، زوجة ابني أصابتها وعكة هذه الليلة. ستقوم حالاً وتهيّئ نفسها للذهاب.

على أنّني لم أحرّك ساكناً، لا لأنني تمرّدت، بل لأنّ قواي كانت خائرة.

وخلف الحارس وقف جوزيف يراقبني مهموماً. دنت هيرتا من الزائر وقالت:

- بانتظار أن تنهض، هل ترغب في أن تشرب شيئاً؟

لم تنسَ هذه المرّة أصول كرم الضيّافة.

- هيّا، أسرعي يا روزا.

كانت عيناي شاخصتَين في السقف، فقالت هيرتا متوسّلة:

- لا أستطيع، أقسم لك. اشرح لها يا جوزيف.

قال جوزيف متضرّعاً:

- روزا.

- إنّني متعبة...

ثمّ أدرت رأسي، ونظرت إلى الحارس وقلت:

- ... لا سيّما منكم أنتم.

دفع الرجل هيرتا. أزاح الأغطية وأمسك بذراعي. جرّني قسراً من السرير، وسحبني على الأرض وهو يضع يدَه الأخرى على غِمد سلاحه. أمّا الدجاجات فلم تجفل، لم تستشعر أيّ خطر.

أمرني وهو يحرّر يدي:

- البسي حذاءك وإلا ستذهبين حافية.

قال جوزيف مخاطراً:

t.me/qurssan

- اعذرها. إنّها ليست على ما يرام.
- اخرس وإلا أجهزت عليكم جميعاً.
أيّ جرم أتيت؟

وددت لو أموت الآن بعد أن رحل غريغور. قلت لهيرتا: هو في عداد المفقودين. لم يمت، مفهوم؟ لكنني أقنعت نفسي خلال الليل بأنّه تخلّى عنّي هو أيضاً، مثلما فعلَت أمّي. لم يكن تمرّدي مدبّراً. أتمرّدت؟ اللعنة! فأنا لم أكن جندية، لم نكن جنديات. كان غريغور يقول: إنّ جنود ألمانيا منذورون للموت، وأنا لم أعد أقاتل من أجل ألمانيا إيماناً بها وحبّاً فيها، بل لأنني خائف.

لم أفكّر في العواقب: محاكمة سريعة وإعدام فوري؟ كلّ ما اريد هو أن أختفي أنا أيضاً.

قالت هيرتا وقد انحنت حتّى كادت تلامس ركبتَيها:

- أرجوك سامحها. كنّتي ما عادت تدري ما تقول. تلقينا نبأ فقدان ابني في الجبهة. هل يمكن أن تسمحوا لي بأن أعوّضها هذا اليوم. أتناول الطعام مكانها...

- ألا تسمعون؟ أمرتكم بأن تخرسوا.

ضرب الحارس هيرتا، لست أدري أبِكوعه أم بمقبض مسدّسه. لم أرَه، كلّ ما أبصرت حماتي وهي تتكوّم على نفسها واضعة يدها على ضلوعها. هرعَ إليها جوزيف ليساعدها على النهوض بينما أطلقتُ أنا صرخة. التقطت حذائي وانتعلته. شعرت بضربات قلبي المتسارِعة تنبض في حلقي. قمتُ، فدفعني الحارس نحو المشجب. تناولتُ مِعطفي وارتديته على عجل. ناديت هيرتا، لكنّها لم ترفع رأسها. وددت لو أطلب منها المعذرة. كان جوزيف يحضنها بصمت. كانا ينتظران خروجي لكي ينتحبا، ويغمى عليهما من

t.me/qurssan

الألم، أو يعودا إلى السرير، أو يغيّرا قفل الباب حتى لا ينفتح في وجهي من جديد. **لا أستحق إلّا ما أفعل: أكل طعام هتلر، الأكل من أجل ألمانيا، لا لأنني أحبّها، ولا حتى لأنني خائفة. آكل طعام هتلر لأنّ هذا هو ما أستحقّه.**

لمّا دفعني الحارس إلى أحد المقاعد، قال السائق مستهزئاً: «يبدو أن البُنيّة مكدّرة المزاج؟». تجنّبَتْ تيودورا الجالسة كعادتها في الصفّ الأوّل تحيّتي، بل حتّى بيت ونايكي لم تجرآ على ذلك صباحئذ. وبينما تظاهرت الأخريات بالنوم، نادتني أوغيستين همساً، وكانت جالسة على يساري، يفصل بيننا مقعدان. بدت هيئتها القلقة في عينَيّ بقعة مطموسة. ولم أجبها.

صعدت ليني واقتربت منّي متردّدة. لا بدَّ أنّ قميص النوم البارز تحت معطفي أذعرها. لم تكن تعلم أنّ أمّي لحظة موتها كانت ترتدي مثل هذا اللّباس، وأنّه مرتبط بالنهاية بالنسبة إليّ. كنت قد انتعلت حذائي الجلدي من دون جوارب. شعرت بساقَيّ باردتين، ويخدر في أصابع قدمي. هو الحذاء نفسه الذي كنت أنتعله في برلين، لمّا كان غريغور رئيسي في المكتب، وكنت مصدر سعادته. كانت هيرتا تقول لي: **إلى أين أنت ذاهبة بهذين الكعبين؟** لكنّها هذا الصباح أصيبت بكسر أو تشقُّق في أحد أضلاعها، ولم تعد قادرة على الكلام. لا بدَّ أنّ ليني قالت في نفسها: **إلى أين أنت ذاهبة بهذين الكعبين وقميص نوم تحت المعطف؟ يا له من لباس غريب.** رمشَت بعينيها الخضراوين من الدهشة، ثمّ جلست.

ستتقرّح قدماي من البرد، تقرّحات سأثقبها بظفري لكي تنفجر. صلاحيّة للتصرُّف في جسدي لا يملكها أحد سواي. لم أتنبّه إلى

t.me/qurssan

. نسيت يدَي على فخذَي إلا حين التقطتها ليني وقالت: «ماذا
.ي يا روزا؟»، فاستدارت أوغيستين. بدت كبقعة مشوّشة. كان
.غور يقول: إنني أرى فراشات، ذباباً طائراً وعناكب. وكنت
.ل له: انظر إليّ يا حبيبي، وركّز.

أمسكت ليني يدي بلطف. «روزا!». حدّقت باحثة عن جواب
.ى أوغيستين التي كانت تهزّ رأسها: بدت في عينيّ، من شدّة
.هما، بقعة متراقصة. وشعرتُ بقواي خائرة.

قد يكفّ المرء عن الوجود مع أنّه لا يزال على قيد الحياة. قد
.ون غريغور ما زال حيّاً، لكنّه غير موجود بالنسبة إليّ. وإذا كان
.ايخ سيواصل القتال، ويستمرّ في إرسال قذائفه الخارقة، مؤمناً
المُعجزة، فأنا لا أؤمن بالمُعجزات. ستستمرّ الحرب إلى الأبد كما
.ان يقول جوزيف. لكنّني قرّرت ألّا أقاتل، وأن أتمرّد، ليس على
الشرطة العسكرية فحسب، بل على الحياة. وأنا جالسة في الحافلة
التي تقلّني إلى مطعم المملكة بكراوزندورف، ألغيتُ وجودي.

فرملَ السائق من جديد. أبصرت من زجاج النافذة إلفريد واقفة
تنظر على جانب الطريق، حاشرة يداً في جيب المعطف بينما تمسك
بالأخرى سيجارة. التقت عينانا، فبدت عظمتا وجنتيها بارزتين تحت
بشرتها. سحقَت عقب السيجارة بحذائها دون أن تحوّل بصرها عنّي،
وصعدَت.

تقدّمت نحونا. لست أدري ما إذا كانت ليني هي من أومأت لها
بالمجيء أم أوغيستين، أم أنّ نظراتي هي التي جذبتها. جلست
بجانب ليني، في الجانب الآخر من الممرّ الضيّق، وقالت:

- صباح الخير.

t.me/qurssan

غمغمَت ليني بضيق:

- صباح الخير.

فسألت:

- ما خطبها؟

أجابت ليني:

- لست أدري.

- ماذا فعلوا لها؟

لم تجب ليني. مهما يكن، فليست هي المقصودة بالحديث. كانت تقصدني أنا، لكنّني لم أكن موجودة.

تنحنحَت وقالت:

- هل مشّطت شعرك هذا الصباح وفق تسريحة «الخروج من الملجأ» أيتها البرلينية؟

تعالت قهقهاتهنّ جميعاً باستثناء ليني.

وقلتُ في نفسي: **لا أستحمل المزاح يا إلفريد، أقسم لك بأنّني لا أطيقه.**

- ما رأيك يا إيلا في تسريحتها؟ أأعجبتك؟

أجابت إيلا بخجل:

- أفضل من الضفائر.

- لعلّها موضة شائعة في برلين.

نهرَتها ليني:

- إلفريد!

- لباسك أيضاً لا تنقصه الجسارة أيّتها البرلينية. حتّى زارا ليندر لن تجرؤ على مثله.

سعلت أوغيستين بصوت عالٍ. لعلّها إشارة إلى إلفريد ألا تلحّ

t.me/qurssan

وألا تتمادي. قد تكون فهمت وضعي، هي من فقدت زوجها في الحرب وقرّرت أن تلبس السواد طوال حياتها.

- أنت لا تعرفين شيئاً يا أوغيستين. ما أنت إلا امرأة ريفية. رفيقتنا البرلينية تتحدّى البرد باسم الموضة. أخبريها أيّتها البرلينية!

كنت أنظر إلى سقف الحافلة متمنّية لو تنهدّ عليّ.

- نحن لا نستحق التفاتة منها، فيما يبدو.

لماذا تتصرّف على هذا النحو؟ لماذا تتحرّش بي وتلحّ دائماً على اللباس؟ ألم تنصحني بالاهتمام بشؤوني وعدم الاهتمام بشؤون الآخرين؟ لماذا أبت إلا أن تستفزّني هذا الصباح؟

- هل قرأت رأس البغلة؟

- نعم... في طفولتي.

- إنه كتاب ظريف. شيء ما يحدّثني بأن نُطلق على روزا هذا الاسم ابتداء من الآن: رأس البغلة.

قالت ليني متوسّلة وهي تحضن يدي: «توقفي!»، سحبتها وضغطتُ بأصابعي على فخذي إلى أن شعرتُ بها تؤلمني.

«صحيح، العدو يتنصّت علينا، كما قال غوبلز».

التفتُّ نحو إلفريد بجفاء:

- هل يمكن أن أعرف ماذا تريدين؟

أغلقت ليني أنفها بإبهامها وسبّابتها، كما لو أنّها تهمّ بالغطس، وهي طريقتها في مقاومة التوتّر.

قلت لها:

- أفسحي الطريق.

أفسحَت، فغادرتُ مقعدي. انتصبتُ أمام إلفريد وأحنيتُ عليها:

t.me/qurssan

- لقد عيل صبري، ماذا تريدين؟

لامسَت إلفريد رُكبتي، وقالت:

- بشرتك مقشعرّة.

لطمتها، فقامت بقفزة واحدة ودفعتني. ألقيتها على الأرض وارتميت عليها في لمح البصر. كانت تظهر على بشرة عنقها شبكة من الأوردة مثل حبال مشدودة يسهل الإمساك بها ونزعها من مكانها. لم أكن أدري ما أريد أن أصنعه بهذه المرأة. كانت الأستاذة التي درّستني التاريخ في الثانوية تقول: **إنّ الشابّة الألمانية الحقيقية ينبغي أن تعرف كيف تكره.** كانت إلفريد تصكّ أسنانها، وتتخبّط لكي تتخلّص من قبضتي وتقلبني تحتها. كنّا نلهث معاً بحيث تمتزج أنفاسنا. وقالت لي بعد لحظة:

- أما زلت لم تروّحي عن نفسك؟

ودون أن أشعر، أرخيتُ قبضتي.

قبل أن أجدَ الوقت لأجيب، أمسك الحارس بطوقي، وسحبني في ممرّ الحافلة كما فعل في البيت، وعالجني بركلات على بطني وفخذَي العاريتَين، ثمّ أمرني بالنهوض والجلوس في المقعد الأمامي خلف السائق بجانب تيودورا، في الصفّ نفسه الذي تجلس فيه غيرترود وسابين. كانت تيودورا قد أغلقت أذنيها: لم تكن تتوقّع أن يضربنا الحرّاس، نحن من نذوق طعام هتلر، ونقوم بمهمّة جليلة نخاطر فيها بحياتنا. كان لسان حالها يقول: **قليلاً من الاحترام سيّدي العريف!** أو لعلّها كانت متعوّدة على هذا المشهد، يضربها زوجها باستمرار، حتّى عندما لا يفرط في الشرب. **ألم يقل هتلر كلّما شمخ الرجل، على المرأة أن تتضاءل وتتصاغر؟ هيّا أيّتها المسعورة، امكثي في مكانك، ولا ترفعي رأسك.**

t.me/qurssan

بعدما فرغ منّي، جاء دور إلفريد. سمعتُ صوت الحذاء الثقيل يرتطم بعظامها دون أن تشكو أو تتأوّه.

حاولت أن أضبط نفسي في المطعم، لا خوفاً من الحرّاس. فالموت لم يعد يخيفني. تمنّيت لو كان الطعام مسموماً. لو آكل منه لُقمة وأودّع الحياة دون أن أتحمّل مشقّة قتل نفسي، ودون أن أتحمّل تلك المسؤولية. لكن الطعام كان سليماً، وظللتُ على قيد الحياة.

كانت قد مضت شهور لم ترَ فيها أيّ من رفيقاتي زوجها أو خطيبها. وإذا كانت أوغيستين هي الأرملة الرسمية الوحيدة، كنّا جميعنا نعيش من دون شريك منذ زمن طويل، وبذلك لم يكن عذابي استثناء. ربّما لهذا السبب لم أخبر أحداً، بما في ذلك ليني، ولا حتّى إلفريد التي لم تكن متزوّجة ولا مخطوبة.

كانت ليني تتحدّث عن الحبّ بسذاجة من تدمن قراءة الروايات الحالِمة. فهي تكاد لا تعرف عنه شيئاً. لم تكن تعرف معنى أن تتعلّق عاطفياً بشخص آخر، شخص لم يُنجِبك ولم يحضر لحظة ميلادك. لم يسبق لها أن غادرت بيت والديها لتعيش مع شخص غريب.

وذات يوم قالت أوغيستين:

– ليني تتمنّى أن تنتهي الحرب وتخشى ألا يسعفها الوقت لكي تتزوّج.

كانت تبحث عن حبّ حقيقي، وتتشبّث بهذا الحُلم.

ردّت وهي تنتحب:

– لا تسخري منّي.

فأضافت أوغيستين:

– ولكن الحرب مستعرة، والرجال تبخّروا.

t.me/qurssan

فأجابت ليني مدافعة:

- لست العانس الوحيدة.

فقلت لها مُطَمئنة:

- لست عانساً. ما زلتِ شابّة.

قالت ليني:

- إلفريد أيضاً ليست متزوّجة. وهي دائمة الانزواء.

سمعَتها إلفريد فرفعت يدها إلى فمها لتتمالك نفسها من الكلام، ووضعت بنصرها الذي لا خاتم له على شفتيها.

كانت إلفريد تعيش وحيدة، لا تنتظر أحداً ولا تخشى فقدان أحد. أكلت ذلك اليوم بسرعة، اللُّقمة تلو اللُّقمة، دون أن ترفع رأسها. وحين فرغت، استأذنت بالذهاب إلى المرحاض. لم يكن الحارس الذي ضربنا في الحافلة حاضراً. وبينما كان أحد الحرّاس يرافقها هتفتُ: «أنا أيضاً أرغب في الذهاب إلى المرحاض»، وما إن سمعتني حتى ترنّحت.

أغلقَت على نفسها في أحد المراحيض، فاقتربتُ من الباب، ووضعت رأسي على الخشب المطلي بدهان أبيض، وقلت: «أنا من غلطت. سامحيني». لم أسمع شيئاً، لا صوت حركتها ولا بولها. «كلّ ما في الأمر هو أنّهم أخبروني يومئذ أنّ غريغور فُقد في الجبهة. قد يكون لقي حتفه، يا إلفريد!».

دار المفتاح في القفل، ودُفع الباب إلى الخارج، فتراجعتُ. تجّمدتُ في مكاني منتظرة أن ينفتح الباب كاملاً. خرجت إلفريد. كانت نظرتها جامدة، وعظمتا وجنتيها حادّتين. ارتمت عليّ. تجمّدت في مكاني، فعانقتني.

t.me/qurssan

لم تفعل ذلك سابقاً قطّ. ضمّتني إلى جسدها، فشعرتُ بعظامها ..اذة: جسد لا ينتظر أحداً، بإمكانه أن يهبَ المأوى لجسدي. كان .ن الحرارة والحفاوة بحيث صعدت العَبرات إلى حلقي، وفاضت. لم أكن قد بكيت منذ تلقّيت الرسالة. مضت شهور لم أحضن فيها أحداً.

لم تعد هيرتا تغدّ الخبز وتجمع البيض صباحاً للفطور مع جوزيف، كما لم تعد تثرثر معنا مساء وهي تحبك. فتقت الوشاح الذي غزلَته لغريغور، ورمت كبّة الخيط. عثرَ عليها زارت بينما كان يفتّش في القمامة الموضوعة خلف البيت، وراح يلعب بها في كلّ الغرف. علِقَ الخيط في قوائم الكراسي والمائدة، وتطايرت ندف الصوف في الهواء، والتصقت بكلّ شيء. لو أنّ هذا وقع سابقاً، لربما تسلّينا به. كان سيذكّر هيرتا ببعض شقاوات ابنها، لكنّها عوض ذلك وجّهت للهرّ ركلة قذفت به إلى الخارج. لعلّها فعلت ذلك لطرد الذكرى.

لم يكن جوزيف يفارق المذياع بعد العشاء بينما يدخّن غليونه. كان يبحث عن الإذاعات الأجنبية بتصميم أكبر من السابق، كما لو أنّه كان يتوقّع سماع صوت غريغور يقول: **أنا ما زلت حيّاً، أنا في روسيا، تعال الحق بي.** كان الأمر كبحث عن كنز من دون خريطة. الأدلّة الوحيدة التي بين يديه هي الأخبار المفزعة المتتالية القادمة من الجبهة.

توقّفتُ عن صنع المربّى مع هيرتا، والذهاب مع جوزيف إلى الحديقة. منذ وصلت إلى غروس-بارتش، كثيراً ما كنت أنتعل جرموقَيْ غريغور في طفولته، وكانا بالكاد يسعان قدمَيّ، وأرافق

t.me/qurssan

جوزيف لجني الخضار. وكانت قدما جوزيف الطفل الناعمان، القدمان اللتان لم أرَهما ولم ألمسهما قط، يهيّجان وجداني. أمّا الآن فهما يعصران قلبي.

وقرّرت أن أكتب له كلّ يوم رسالة أسجّل فيها ما يجول في خاطري، أدوّن مذكرات غيابه، نقرؤها معاً عند عودته. لمعاكستي، سيتوقّف عند المقاطع الأشدّ حزناً أو تلك المفعمة بالعواطف الجيّاشة، فأضربه على صدره مازحة. بيد أنّني مهما حاولت، وجدت نفسي عاجزة عن الكتابة. لم أعثر على شيء يمكن أن أحكيه.

توقّفت عن الذهاب إلى الغابة، وعن اكتشاف أعشاش اللقلق الفارغة والوصول حتّى بحيرة موي لأقرفص أمام الماء وأغنّي. لم يعد الغناء يستهويني.

كانت ليني الوحيدة التي تحرص، بطريقتها الخرقاء، على الاعتناء بي. كانت تعلن بتفاؤل بغيض: «أنا واثقة من أنّه ما زال حيّاً. لا بدّ أنّه هرب من الجيش، وهو الآن في طريق العودة».

كنت أعلم أن الترمّل شائع، سواء أكان فعلياً أم بالقوّة. على أنّ انتشاره لم يكن يواسيني: لم يخطر على بالي يوماً أنّي قد أصير أرملة. فغريغور إنّما ظهر في حياتي ليهبني السعادة. هذا هو دوره، وكلّ الاحتمالات باطلة. كنت أشعر بأنّني خُدعت.

لربما كانت إلفريد تدرك ذلك، لهذا لم تحاول يوماً أن تواسيني. سألتني مرّة:

- أتدخّنين سيجارة؟

- أنت تعلمين أنّني لا أدخّن.

- أرأيتِ، أنت أقوى منّي!

t.me/qurssan

وابتسمت. وللحظة خاطفة أعادت هذه الابتسامة، التي لم يكن مبري يحظى بها، الأمور إلى نصابها. وسرى في جسدي نُعاس امايف. لم تكلّف إلفريد نفسها حتّى تفحُّص الكدمات الزرقاء على فخذَيها خلال الأيّام التي أعقبت عراكنا. كنت واثقة من أنّها نستها حتى قبل أن يبهت لونها.

أما أنا فظللت بالمقابل أتفحّص كدماتي كلّ صباح: كنت إذا ضغطت عليها بإصبعي، أجدها تنبض، وكنت أشعر كما لو أنّ غريغور لم يُفقَد تماماً. كانت تلك الكدمات الزرقاء شاهدة على تمرّد ما زال قائماً بداخلي. وحين سيختفي هذا الألم الجسدي أيضاً، لن نائي أيّ إشارة تشهد على أن زوجي ما زال على وجه البسيطة.

وذات يوم استيقظَت هيرتا بعينَين أقلّ انتفاخاً من المعتاد، وأعلنت أنّ غريغور على ما يرام، سيظهر ذات صباح عند الفجر على عتبة الباب. لا يختلف في شيء عن ذاك الذي التحق بالجيش، لكنّه أكثر نهماً. اقتديت بها وحاولت أن أقنع نفسي بذلك أنا أيضاً.

كنتُ أبحث عنه في الصورة الأخيرة من الألبوم، تلك التي يبدو فيها بالبزّة العسكرية. رحت أتحدّث إليه كما لو أنّني أتلو صلاة المساء: كان وجوده رهاناً، وإيماني بهذا الرهان صارَ عادة. كانت الحفاوة التي استقبلَ بها جسدي جسدَه خلال السنوات الأولى من علاقتنا، تجعلني أغطُّ في النوم مثل طفلة صغيرة. أمّا الآن، فصار نومي متقطّعاً ومضطرباً. ورغم أن غريغور فُقد، وربّما مات، ثبتّ على حبّه. حبّ طفلة مراهقة أحادي الجانب، لا يحتاج إلى تجاوب، بل إلى إصرار وانتظار واثق.

t.me/qurssan

كتبت إلى فرانز رسالة طويلة على عنوانه القديم بأميركا. كانت حاجتي للحديث إلى أحد أقربائي ملحّة، إلى شخص شاركني سباق الدراجات، واستحمّ معي يوم الأحد قبل القداس. شخص أعرفه منذ الولادة، مذ كان ينام في مهده باكياً ممتقعاً لأنّني عضضت يده. كنت بحاجة إلى أخي.

حكيت له عن غريغور الذي انقطعت عنّي أخباره. كانت رسالة بلا معنى. تنبّهت وأنا أكتبها إلى أنني غير قادرة على تذكُّر قسمات فرانز. تتراءى لي ظهره العريض مشدوداً في وِزرة قماش ثَخِين، وساقاه المفتولتان، لكنّني لم أكن أرى وجهه. أكان له شنب الآن؟ أما زالت شفته تتقرّح؟ أتراه اضطرّ إلى شراء نظارتين؟ لا أعرف شيئاً عن فرانز الراشد. عندما أتذكّر أخي، أو أقرأ كلمة أخي في كتاب أو أسمع أحداً ينطقها، تتراءى لي ركبتاه البارزتان المقشوطتان: هذا هو ما كان يشعرني باللّهفة إلى ضمّه بين ذراعَي من جديد.

مضت شهور وأنا أمنّي النفس بتلقّي جواب على رسالتي، لكن عبثاً. لم يعد أحد يكاتبني.

ما عدت أذكر شيئاً من تلك الشهور باستثناء يوم أيقظني من حياة التزهُّد لون النَّفَل البنفسجي الذي التقطته عيناي من خلال زجاج نافذة الحافلة المتوجّهة إلى كراوزندورف. حلَّ الربيع فغمرني حنين مبهَم. ليس بسبب غياب غريغور فحسب، بل غياب الحياة أيضاً.

t.me/qurssan

القسم الثاني

t.me/qurssan

t.me/qurssan

13

كنت جالسة أنا وهايكي وأوغيستين بعد ظهر أحد أيام أبريل في ساحة الثكنة الموصَدة بشبّاك حديدي. منذ بدأ الحرّ، صار الحرّاس يسمحون لنا بالخروج خلال ساعة الانتظار بعد الوجبة. يقفُ أحد الحارسَين عند الباب المفضي إلى المطعم، بينما يذرع الآخر الساحة، رافعاً ذقنه إلى الأعلى، شابكاً يدَيه خلف ظهره.

شعرَت هايكي بالغثيان، لكن السمّ لم يعد يخطر ببالنا. قالت لها إلفريد التي كانت واقفة أمامنا:

- لعلّك ما زلت جائعة.

لاحظَت ليني التي كانت تقضي الساعة تحسب خطواتها وهي تقفز خطوط لعبة الحجلة مرسومة على البلاطة بطلاءٍ أبيض:

- أو لعلّه الحيض. لقد حضت مؤخّراً، ومعروف أنّ النساء إذا قضين وقتاً طويلاً معاً ينتهي المطاف بدوراتهنّ الشهريّة إلى أن تتوافق.

كانت الخطوط على وشك أن تمّحي والمربّعات بالكاد ظاهرة. لعلّ هذا هو ما جعلَ ليني تتوقّف عن القفز. لكنّها كانت تحبّ أن تقف هناك، كما لو أنّ الوقوف وسط هذا النطاق يحميها من هجوم محتمَل.

t.me/qurssan

تمطّقت أوغيستين معترِضة على ليني، وقالت:

- ما هذا الهراء؟

فتدخّلت إيلا الجالسة أرضاً مؤيّدة بحماس كلام ليني حتّى أنّ جدائل شعرها الكستنائي تأرجحَت:

- أنا أيضاً سمعتُ بهذا.

كنت جالسة معهنّ، لكنّني أشعر كما لو أنّني غير موجودة. لم يكن لديّ شيء أقوله. رفيقاتي يحاولن إيقاظي من سُباتي بين الفينة والأخرى، بكيفيّة لبقة أحياناً، بيد أنّهنّ كنّ قد اعتدن على صمتي.

ردّت أوغيستين بحدّة:

- يا لها من ترّهات! كيف تتوافق الدورات الشهرية؟ هذه إحدى الخُرافات التي تستعمل للسيطرة علينا. إذا صدّقنا هذا، لا يبقى إلّا أن نؤمن بالسحر!

قفزت بيت من الأرجوحة باندفاع هزَّ المقعد الذي نجلس عليه، وقالت:

- أنا أؤمن به.

منذ أخرجنا الحرّاس إلى الساحة وأنا أتساءل لماذا لم ينزعوا هذه الأرجوحة. لا شكّ أنّ لديهم أولويات أخرى. لربّما كانوا يأملون بعد غزو الشرق وزوال خطر الشيوعية أن تستقبل الثكنة التلاميذ من جديد. أو لعلّهم تركوها لأنّها تذكّرهم بأبنائهم الذين ينتظرونهم في مكان ما بإحدى مدن الرايخ، والذين كبروا بحيث قد يجدون صعوبة في التعرّف إليهم عند العودة إلى بيوتهم.

قالت بيت:

- إذا قلت لكنّ إنّني عرّافة، لن تصدّقنني. أستطيع استطلاع الأبراج وقراءة الكفّ والورق أيضاً.

t.me/qurssan

علّقت هايكي:

- هذا صحيح. لقد تكهّنت مراراً بمستقبلي مستعمِلة ورق التاروت.

اجتازت ليني الخطوط الباهتة المرسومة بالطلاء، ووقفت أمام بيت.

- تقرئين المستقبل؟

فقالت أوغيستين:

- بالطبع. بل هي تعرف متى ستنتهي الحرب على نحو دقيق. اسأليها عن زوجك يا روزا.

شعرتُ بدقّات قلبي تتسارع وبإيقاعها يختلّ. نهرَتها إلفريد:

- كفى! لماذا تصرّين دائماً على التصرُّف بهذه الفظاظة؟

ثمّ ابتعدت. كان بإمكاني أن أتبعها، وأتفوّه لها بكلمة شُكر كادت تخرج من حنجرتي، لكنّني بقيتِ جالسة إلى جوار أوغيستين، لا لشيء إلا لأنّ ذلك لا يتطلّب جهداً.

قالت إيلا محاولة تغيير مجرى الحديث:

- هل تستطيعين إلقاء أذى من السحر على هتلر؟

وبينما رحن يضحكن لتخفيف التوتّر، بقيت أنا متجهّمة.

سألت ليني وقد استهوتها اللعبة:

- هل يمكن أن تنظري ما إذا كنت سأعثرُ على خطيب بعد الحرب؟

علّقت أوغيستين:

- هذا مستبعَد.

قالت إيلا وهي تضرب يداً بيد:

- أتحدّاكِ!

t.me/qurssan

أخرجت بيت من جيبها كيساً صغيراً من المخمل الأسود شُدّ بحبل صغير، وفتحته لتخرج منه أوراق التاروت.

سألَتها ليني:

- أتحملينها معك دائماً؟

- إن لم أحملها، فلست بعرّافة.

جثت بيت على ركبتيها، وبسطت الأوراق على الأرض. صفّتها بحركات بطيئة وفق نظام هي وحدها تعرف أسراره. كانت تسحبها من اللفّة وتضعها في مكان آخر، ثمّ تخلط الأوراق من جديد، وتسحب أوراقاً أخرى وتقلّبها. أمّا أوغيستين، فمضت تتابعها بارتياب.

وبينما لزمت ليني الصمت، سألت إيلا بنفاد صبر:

- ماذا ترين إذاً؟

تحلّقت النسوة حول بيت، وانحنين فوق ظهرها باستثناء إلفريد التي مضت تتجوّل وهي تدخّن، والمسعورات اللواتي لا يخرجن أبداً بعد الوجبة إمعاناً في أداء الواجب، وباستثنائي أنا من بقيت جالسة في مكاني.

- أرى رجلاً.

أخفت ليني وجهها بين راحتيها وهي تقول:

- يا إلهي!

أمسكن بذراعها، وأزحنها قليلاً وقلن:

- هيا يا ليني! اسأليها على الأقل كيف هو، أهو شاب وسيم؟

كانت غريزة البقاء توجّه طاقتهنّ كلّها لهذا الهدف الوحيد. هذا ما كان يستأثر باهتمامهنّ. أما أنا فلم أعد أعبأ به.

قالت بيت معتذرة:

t.me/qurssan

- لا أستطيع أن أتبيّن ما إذا كان وسيماً، لكنّني أراه قادماً. لن يتأخر.

سألتها هايكي:

- ولماذا هذه السحنة الكئيبة؟

فقالت ليني بنبرة متباكية:

- لا تريد أن تخبرني بأنّه ذميم.

فندّت عن الحاضرات قهقهة عالية.

واسترسلت بيت تقول:

- اسمعي...

لكنّ صوتاً دوّى في الساحة:

- هيا، قفن!

وقفَ علينا شخص ببزّة لم يسبق لنا أن رأيناها. انتصبن جميعاً واقفات، ونهضتُ أنا أيضاً من مقعدي. التقطت بيت أوراقها، وحاولت إعادتها إلى الكيس المخملي، لكنّها أفلتت من يدها وسقطت أرضاً. صرخ الرجل:

- ألم تسمعي؟ أمرتكنّ بالوقوف!

لمّا اقترب منّا، كانت ليني لا تزال تغطّي وجهها براحتيها.

سأل بيت بازدراء:

- ما هذا العبث؟ وأنت أزيلي يديك عن وجهك!

ثمّ دفع ليني التي شبكت ذراعيها، وغرست أصابعها في كتفيها لتهدئة نفسها.

اقترب الحرّاس.

- ماذا جرى يا ملازم زيغلر؟

- أين كنتم؟

t.me/qurssan

أدّى الحرّاس التحيّة العسكرية وهم ينظرون إلينا شزراً: تسبّبنا لهم في متاعب. لم يجيبوا بشيء. كان واضحاً أنّ من صالحهم لزوم الصمت.

نطقتُ قائلة:

- إنّها مجرّد أوراق لعب. لم نكن نعلم أنّها ممنوعة. لا أظن أنّنا أتينا فعلاً منكراً.

لم يعلُ الذهول وجوه رفيقاتي فحسب، بل وجوه الحرّاس أيضاً. حدّق فيّ الملازم. أنفه صغير كأنف صبي، وعيناه عسليتان متقاربتان لم تبعثا الخوف في نفسي.

ظلّت إلفريد مستندة على الجدار. لم ينادِ عليها الحرّاس. كانوا ينتظرون مثلنا الحكم الذي سينطق به الملازم. في تلك الأثناء كانت ساحة المدرسة التي حُوِّلت إلى ثكنة، ونساء كراوزندورف، وأشجار السنديان المصطفّة على جانبَي طريق غروس-بارتش، ومقرّ القيادة العامة المتواري في الغابة، وبروسيا الشرقية، وألمانيا قاطبة، والرايخ الثالث العازم على التوسُّع إلى أقصى الأرض، وأمعاء هتلر، كلّها كانت تلتقي عند نقطة واحدة من العالم يحتلّها الملازم زيغلر، الرجل الذي بيده حياتي أو مماتي.

- أنا أمنعك من ذلك الآن. أنا القائد زيغلر. تذكّري اسمي، لأنّك انطلاقاً من اليوم ستمتثلين لما أقول، أنت والحاضرات. وفي انتظار ذلك، أدِّ التحية كما علموكِ أداءها.

وبينما كنت أرفع ذراعي للتّحيّة على نحوٍ آلي، وبّخ زيغلر الحرّاس وأمرهم بمصادرة الكيس الأسود الصغير من بيت. وحين سحبوه منها سقط على الأرض، فتناثرت الأوراق، ورفع الريح بعضها ليحطّ على بعد متر تقريباً من الملازم. قال لرجاله آمراً:

t.me/qurssan

- اصعدوهنّ إلى الحافلة!

- سمعاً وطاعة أيّها الملازم. هيّا، تقدّمن!

تقدّمت بيت الصف تتبعها ليني، ثمّ انضمّت إليهما بقيّة النسوة واحدة بعد الأخرى. أمّا الملازم فداسَ الكيس الصغير، وأمرَ رجاله قائلاً قبل أن يبتعد:

- تخلّصوا من هذا.

وحين بلغ عتبة الباب، لمحَ إلفريد فبادرها:

- ماذا تفعلين أنت هناك؟ أتختبئين؟ هيّا! اصطفي مع الأخريات.

توجّهت نحوها، وحين اقتربتُ منها مدّت لي ذراعها لكنّني لم أجد الوقت لأمدّ ذراعي كما ينبغي وألمسها. كانت حركتها تشي بالتوجُّس. فقد خاطرتُ بنفسي بلا داعٍ معقول. على أنّني لم أكن بحاجة إلى سبب معقول لكي أموت مثلما لا أملك سبباً معقولاً لأبقى على قيد الحياة. لذلك لم يُرعبني زيغلر.

لقد أثبتّ له استعدادي للموت، فاضطرّ إلى التراجع وتحويل بصره عنّي.

t.me/qurssan

14

لم يكن رفع الذراع في التحيّة النازية أمراً هيّناً. من المؤكّد أنّ الملازم زيغلر تابع محاضرات عديدة في الموضوع: لكي يرفع المرء ذراعه بكيفية مضبوطة لا تقبل الجدل، عليه أن يشدّ كلّ عضلاته، ويقبض ردفَيه، ويدخل بطنه، ويبرز صدره، ويضمّ ساقيه، ويصلّب ركبتَيه، وينفخ الحجاب الفاصل بين البطن والصدر لكي يهتف مع الزفير: **هايل هتلر!** ينبغي أن تشارك كلّ الألياف والأوتار والأعصاب في حركة مدّ الذراع المهيبة.

هناك من يمدّونها ببطء وهم يشدّون الكتف التي ينبغي أن تظلّ مخفوضة، بعيدة عن الأذن لتجنّب عدم التناسق، وتجسيد وقفة الرياضيّ الذي لا يُقهر، المتحلّي علاوة على ذلك بخصال المسيح. ثمّ هناك من يرفعون أذرُعهم عمودياً عوض أن يرفعوها خمساً وأربعين درجة تقريباً: تبّاً! ولكنكم لستم هنا للتعبير عن رأيكم في رفع اليد. شخص واحد هنا يملك هذا الحقّ، وليس أمامكم إلّا أن تتبعوا وتؤدّوا عملكم بإتقان. لا ينبغي على سبيل المثال المُباعَدة بين الأصابع كما لو أنّكم تقدّمون أظافركم لتُلمَّع بالطلاء. شدّوها وابسطوها جيّداً! ارفعوا ذقنكم، اطلقوا أسارير جبينكم، ركّزوا كلّ ما لديكم من قوّة وانتباه في ذراعكم. تخيّلوا أنّكم تسحقون بقبضتكم

t.me/qurssan

من لا يملك بأس الظافرين. فالناس ليسوا سواسية، ومن ثمّة العِرق هو المظهر الخارجي للروح: ضعوا أرواحكم في أذرُعكم، أموها للفوهرر. لن يرفضها منكم، وبذلك تتخفّفون من عبثها.

لا مراء في أنّ الملازم زيغلر خبير في التحيّة النازيّة، قضى ،وات طويلة في التدرّب عليها. وإلا فإنّه شخص حُبِيَ موهبة ،اصة. أنا أيضاً موهوبة، لكن تنقصني الهمّة. تحيّتي مقبولة، لكنّها ،ست متميّزة، مع أنّني مارست التزلّج في طفولتي، وكنت أتحكّم جيداً في جسدي. حين كانوا يجمعوننا في القاعة الكبرى في بداية السنة الدراسية من أجل محاضرة حول التحيّة النازية، كنت أتميّز ،بيئة مزهوّة يُثني عليها كلّ من يراني. لكن بمرور الشهور، أخذ أدائي يسوء شيئاً فشيئاً، ما كان يثير سخط أساتذتي ويجعلهم يرشقونني بنظرات شزراء خلال رفع العلم النازي.

خلال احتفالات وصول الشُّعلة الأولمبية إلى برلين -بعد رحلة انطلقت من اليونان، وقطعت صوفيا وبلغراد وبودابست وفيينا ثمّ براغ- رأيتُ أطفالاً ببزّة الشباب الهتلري يقفون في صفوف متراصّة: بعد عشرين دقيقة لم يعودوا قادرين على الوقوف بثبات. يقفون على رجل ويتركون الأخرى تستريح، يسندون أيديهم اليُمنى الممدودة باليُسرى. ومن شدّة التعب، لم يعودوا يعبؤون بالعِقاب المتربّص بهم.

بثّ المذياع على الهواء مباشرة تقارير المنافسات: رداءة الإرسال جعلت صوت الفوهرر أشبه بالنعيق، لكنّه ظلّ مدوّياً، يسنده هدير الحشد الهاتف بصوت واحد، فيَصلني متسلّلاً عبر الموجات. هذه الأمّة التي تعلن بأنّها وهبت له نفسها، وتتغنّى باسمه، مستعمِلة

t.me/qurssan

عبارات سحرية بالغة القوّة، كانت أمّة تثير المشاعر، وكان الإحساس بالانتماء يبدّد تلك الوحدة التي تلازم كلّ مخلوق منذ ولادته. أمّا أنا، فلم أكن متحمّسة للإيمان بهذا الوهم.

أطفأ أبي المذياع ساخطاً. طالما اعتبرَ الحزب الوطني الاشتراكي ظاهرة عابرة، انحرافاً أصاب قاصرين مشاكسين، فيروساً وافداً من إيطاليا، إلى يوم لاحظ الحظوة التي نالها زملاؤه المنتمون إلى الحزب النازي. هو من دأب على منح صوته في الانتخابات -على غرار كلّ الكاثوليك الصالحين- لحزب الوسط، سيتفاجأ به لاحقاً يساند قانوناً يمنح هتلر السلطة المطلقة، أيّ يساند حكماً على نفسه بالزوال. وقد كان أبي يجهل هذه الرغبة التي بداخلي، والتي داهمتني فجأة بينما كنت أتخيّل الحشود الغفيرة تلتهم السجق وتشرب الصودا في جوّ احتفالي، واثقة بأنّ حيوات الناس الفردية المتباينة يمكن أن تجمعها فكرة واحدة، ويضمّها مصير واحد. كنت حينئذ في الثامنة عشرة.

كم كان عمر زيغلر آنئذ؟ ثلاث وعشرون سنة؟ خمس وعشرون؟ توفي أبي بسبب جلطة دماغية بعد سنة ونصف على نشوب الحرب. من المؤكّد أنّ زيغلر كان حينئذ في الجيش، يتقن أداء التحيّة النازية، يعرف القواعد ويسهر على احترامها، مستعداً لسحق أوراق بيت تحت نعليه، وسحق وقاحتي بنظراته. هو متأهّب لسحق كلّ من سوّلت له نفسه أن يحول بين ألمانيا وتحقيق طموحاتها العظيمة.

هذا ما كنت أفكّر فيه بعد زوال ذلك اليوم، دقائق قليلة إثر تعرّفي إليه. ورغم أنّ تسلّمه المهام في كراوزندورف لم يكن قد مضى عليه وقت طويل، أنذرنا بأنّ لا شيء سيكون كالسابق. أين اختفى الملازم الذي أشرف على تسيير الثكنة حتئذ؟ كنّا نصادفه في

t.me/qurssan

الممرّات أحياناً، لكنّه لم يكن يحفل بوجودنا، ولم يحضر إلى الساحة قطّ ليأمرنا بالمحافظة على النظام. لم نكن بالنسبة إليه سوى مئرة أجهزة هضمية لا تستحقّ كلمة منه.

تذكّرت وأنا في الحافلة غريغور الذي قد يكون سحق تحت حذائه جثثاً وليس مجرّد أوراق لعب، وتساءلتُ عن عدد الأرواح التي أزهق قبل أن يختفي. وبينما واجه زيغلر الألماني امرأة ألمانية، واجه غريغور الألماني أجانب. فهو ما أعرض عن الحياة والتحق بالجيش، إلا لأنّ الكراهية كانت تملأ صدره. لم أكن حانقة على زيغلر ذلك اليوم، بل على زوجي المفقود.

أو لعلّني كنت حانقة على نفسي. إنّ الضعف يوقظ الشعور بالذنب لدى من يعترف بذلك الذنب، وهو أمر كنت أعرفه. ألم أعضّ في طفولتي يد فرانز؟

t.me/qurssan

15

انزوت إيلا في ركن من المطعم مع حارسَين بانتظار تقديم الطعام. أشارت إليها أوغيستين وقالت:

- هذه ستنتهي نهاية سيِّئة.

فقد تأخَّر كرومل ذلك اليوم، وهو أمر صار يحدث في الآونة الأخيرة. وتساءلت عمّا إذا كان السبب مشاكل في التموين، وما إذا كانت آثار الحرب قد بدأت تصل إلى هنا، إلى نعيمنا القاتل هذا.

كانت إيلا تلاعب بأصابعها خصلةً من شعرها، ثمّ تتحسّس النجد المتدلّي على الشقّ الفاصل بين نهديها. لا تجرؤ أيّ منّا على تأنيبها. فقد مضت فترة طويلة ونحن من دون أزواج: لم يكن الجنس هو ما كان ينقصنا، بل الإحساس الذي تبعثه نظرة الرجل.

قالت أوغيستين منتقدة:

- الجرح الحقيقي هو هؤلاء النسوة اللواتي تُسيل السلطةُ لعابهنّ.

مالت إيلا برأسها إلى الجانب وهي تقهقه، فانزلقت كتلة قرطها على كتفها، وكشفت عن جزء من جيدها، فتطلّع الحارس النحيل الفارع بشبق إلى البشرة البيضاء دون أن يكلّف نفسه مداراة شهوته.

- الجرح الحقيقي هو الحرب.

t.me/qurssan

لم تتفاجأ أوغيستين من جوابي رغم حالة اللامبالاة التي لازمني. ألم أجب زيغلر في الوقت الذي أصابهنّ الخرس جميعاً؟

- كلا يا روزا، ألم تسمعي ما قال هتلر؟ قال إنّ الحشود مثل المرأة: لا ترغب في من يحميها، بل في من يسيطر عليها. مثل المرأة قال، لأنّ ثمّة نساء مثل إيلا.

- إيلا تريد أن تتسلّى، هذا كلّ ما في الأمر. قد يكون العبث علاجاً أحياناً.

- علاج مسموم.

قالت إلفريد وقد جلست إلى المائدة، ونشرت المنديل على ركبتيها:

- على ذكر السمّ، إنّه جاهز. شهيّة طيبة سيداتي. نتمنّى كالعادة الا تكون آخر وجبة نلتهمها.

نهرتها أوغيستين وهي تجلس إلى المائدة بدورها:

- كفى من هذا الكلام!

جلست إيلا قبالتها، وشعرت بأنّها تراقبها، فسألتها:

- ماذا تريدين؟

صاح الحارس النحيل الذي كان ينظر قبل قليل إلى نجدها بإعجاب:

- كلن.

سألَتْ بيت بصوت خافت:

- ألستِ على ما يرام، هايكي؟

كانت هايكي تنظر إلى حساء الشعير دون أن تلمسه.

قالت ليني:

t.me/qurssan

- هذا صحيح. أنت شاحبة.
- ألم تلقي عليها أذى من السحر أيّتها العرافة؟
ردّت بيت:
- أراكِ تناوشين الجميع هذا اليوم؟
قالت هايكي:
- أشعر بالغثيان.
وقفت ليني في الجانب الآخر من المائدة وأحنت مُحاوِلة تحسّس جبينها، وقالت:
- أما زلت مريضة؟ أأنت محمومة؟
لكن هايكي أسندت ظهرها على مسند المقعد، وتراجعت إلى الخلف حتّى لا تتركها تلمس جبينها. وهمست ليني بخيبة وهي ترى أنّ حالة هايكي تكذّب فكرتها حول توافق دورات النساء حين يعشن مجتمعات لفترة طويلة: «ليس الحيض إذاً. دوراتنا لم تتوافق».
لم تجب هايكي، فمضت ليني تقضم ظفرها، ولاذت بوحدتها كطفلة صغيرة اعتادت على أن تلعب الحجلة بمفردها، واستمرّت على تلك الحال حتّى بعد أن كبرت ولم تعد تلعب الحجلة.
صمتت طويلاً ثمّ قالت:
- لقد أخطأت.
تركت أوغيستين ملعقتها تسقط، فسمع لاصطدامها بالخزف الأبيض رنين حادّ. هتفَ الحارس:
- بلا ضجيج!
تزامنَ وصول فطائر البطاطس مع تحيّة هايل هتلر! التي لم أعرها انتباهاً. كان الحرّاس يدخلون إلى القاعة ويخرجون في حركة غير عادية، وشعرت وأنا أنظر إلى الفطائر باللُّعاب يجري في فمي. لم

t.me/qurssan

امالك نفسي وتناولتُ فطيرة ملتهبة على الفور، وضعتها في صحني، احرقتني، وشعرتُ بالألم في أطراف أصابعي، ورحت أنفخ عليها.

- ألا تأكلين؟

عرفته من نبرة صوته القاسية، ورفعت رأسي.

أجابت هايكي:

- لست على ما يرام. أنا محمومة.

بدَت ليني كما لو أنّها عادت إلينا، ولمست بقدمها ساقي تحت المائدة.

- ذوقي حساء الشعير. هذه هي المهمة التي أنت من أجلها هنا.

كان زيغلر قد عاد إلى الثكنة.

لم نكن قد رأيناه منذ التحذير الذي وجّهه لنا في الساحة: لعلّه انزوى في مكتب المدير السابق لكي يتباحث مع ضبّاط آخرين -كان بحاجة إلى مكتب يضع عليه جزمته- أو قد يكون عاد إلى بيته ليزور أسرته. أو لعلّها مهمة جليلة أخذته بعيداً عن كراوزندورف.

حشرت هايكي ملعقتها في صحنها، تناولَت قليلاً من الحساء، حملته ببطء ناقم إلى فمها. ورغم ما بذلت من جهد واضح، لم نستطع فتح شفتيها.

قرصَ زيغلر وجنتها فانفتح فمها. «كلي!» وبينما كانت تبلع الحساء، اغرورقت عيناها. وشعرتُ بدقّات قلبي تتسارع في صدري.

- رائع، ممتاز! لا مكان هنا لذائقة لا تذوق. الطبيب هو من سيقرّر ما إذا كنت محمومة. سأطلب فحصك غداً.

سارعتُ إلى الجواب:

t.me/qurssan

- لا داعي لذلك. مجرّد حمّى بسيطة لا خطر فيها.

نظرت إليّ إلفريد بقلق.

فردّ زيغلر:

- كلي ما هو موضوع أمامك إذاً، وسنرى غداً.

جال ببصره علينا ثمّ أمر الحرّاس بمراقبة هايكي، وغادر.

في اليوم الموالي أكلت هايكي مثل الأخريات، ثمّ استأذنت في الذهاب إلى المرحاض، وهي مُناوَرة دأبت عليها لفترة من الزمن: تستغلّ وقت مناوبة الحرّاس لتطلب الذهاب إلى المرحاض حيث تتقيّأ بسرعة، محاذرة أن يسمعها أحد. كان من المفروض أن يمكث الطعام في بطوننا الوقت اللازم للتأكُّد من أنّه غير مسموم. وبذلك لم يكن مسموحاً لنا بالتخلّص منه عمداً. لكنّنا كنّا نعرف أنّها تتقيّأ. كان ذلك واضحاً من عينيها الغائرتَين في محجريهما الزرقاوين، وبشرتها الشاحبة. ولم تكن أيّ منّا تجرؤ على السؤال. متى سيأخذون عيّنة من دمنا؟

قالت بيت:

- لديها طفلان تعيلهما. لن تجازف بفقدان عملها.

قلت وأنا أتنهّد:

- ولكن، ألن تنتهي هذه الأنفلونزا؟

همست إلفريد في أذني بينما كنّا في الطابور:

- إنّها حامل. ألم تفهمي؟

كلا لم أفهم. فزوج هايكي كان في الجبهة، وهي لم ترَه منذ ما يناهز السنة.

t.me/qurssan

كنّا نساء من دون أزواج. فالأزواج يقاتلون من أجل الوطن وطني أولاً، ثمّ بقية الأوطان! وطني أولاً ثمّ العالم بعده!-، ،،دون أحياناً في إجازة، وأحياناً أخرى يموتون أو يُفقَدون.

كنّا جميعاً بحاجة إلى أن يشتهينا رجل، لأنّ رغبة الرجال فيكِ حعلكِ تشعرين بوجودكِ على نحو أقوى. وهذا أمر يتعلّمه النساء في ،رة مبكّرة من حياتهنّ، في الثالثة أو الرابعة عشرة. تتنبّهين إلى هذه القدرة في لحظة يكون فيها الوقت ما زال مبكّراً لكي تستعمليها. ،بما أنّك ما زلت لم تتقني التحكّم فيها، قد تتحوّل إلى فخّ. فهي ،بعث من هذا الجسد الذي لم تعرفي بعد أسراره: لم يسبق لك أن ،أبت نفسكِ عارية في المرآة، ومع ذلك تشعرين كما لو أنّ الآخرين ،أوك. ينبغي أن تستعملي هذه القدرة، وإلا ابتلعتك. ثمّ إنّها قد ،حوّل إلى ضعف بحكم ارتباطها بحميميّتك. فالخضوع أسهل من السيطرة. ليست الحشود هي التي تشبه النساء، بل العكس.

لم أستطع تخيُّل أب الجنين الذي تحمله هايكي في أحشائها. أمّا هي، فتخيّلتها واضعة رأسها على الوسادة، مستيقظة قرب صغارها المستغرقين في النوم، تداعب بطنها، تداعب غلطتها. لعلّها وقعت في علاقة غرامية.

وفي الليل غبطتُها. تراءت لي في السرير وقد ركبها الرُّعب من الأعراض التي تظهر على جسدها: الغثيان والتعب. على أنّني تخيّلت أعضاءها التي ستنبض من جديد: شرارة الحياة انقدحت، واختلاج ينطلق تحت الصرّة مباشرة.

t.me/qurssan

16

وصلت دعوة ماريا فريفرو فون ميلدرنهاغن على ورق مقوّى يحملُ شعار العائلة. حملها إلى البيت ساعٍ بينما كنت في العمل. هكذا صرت أسمّيه: العمل. شعرت هيرتاً أمام هذا الشاب الذي يرتدي كسوة الخدم بالخجل من وزرتها الملطّخة ومن زارت الذي اقترب منه ليُحيّيه، لكنّ الساعي تخلّص منه بلباقة. وبمجرّد ما انسحب وضعت هيرتا الظرف فوق البوفيه وهي تغالب فضولها لمعرفة محتواه، لكنّها كانت مضطرّة لانتظاري بما أنّه يحمل اسمي.

علمتُ من الدعوة أنّ البارونة تنظّم حفل استقبال في آخر الأسبوع، وأنّ حضوري سيسرّها.

هتفت حماتي:

- ماذا تريد من روزا؟ هي لم تفكر قطّ في دعوتنا إلى قصرها. ثمّ إنّها لا تعرفها!

فقال حماي مصحّحاً ومُحاذراً من ذكر الظرف الذي لقيتها فيه:

- بلى، هي تعرفها.

ولعلّ هيرتا استنتجت ذلك من تلقاء نفسها.

ثمّ أضاف:

- روزا بحاجة إلى أن تتسلّى قليلاً فيما أعتقد.

t.me/qurssan

فبادرتُه:

- لا أظنّها فكرة جيّدة.

كنت أعدّ كلّ تسلّية، مهما كانت، إساءة لغريغور. لكنّ ذكرى البارونة، بوجهها الناعم، والكيفية التي أمسكت بها يدَي جوزيف جعلتني أشعر كما لو أنّك تلامس بوجهك لباساً تُرك على مسند كرسي بجانب المدفأة: الدفء نفسه.

فكّرت أنّها فرصة مناسبة لارتداء أحد الفساتين القليلة التي جلبتها من برلين. سألت هيرتا حين رأتني أعلّق أغراضي في الدولاب الذي أفرغَته من أجلي:

- فيمَ ستصلح لك تلك الفساتين؟

أجبتها وأنا أتناول تعليقة:

- أنت محقّة، لن تصلح لشيء.

فردّت قائلة:

- كنت تغالين في الاعتناء بأناقتك فيما يظهر.

كان كلامها صحيحاً. فأنا ما كنت لأجلب تلك الفساتين لولا أنّها هدايا من غريغور، وأنّها تذكّرني بلحظات قضيتها معه، مثل عشيّة أعياد الميلاد تلك، حيث مضى يحدّق فيّ غير عابئ بالنمائم التي ستنتشر بين الموظّفين انتشار النار في الهشيم. كانت تلك هي اللحظة التي أيقنت فيها بأنّني أعجبته.

غمغمت هيرتا وهي تنشّف الأواني:

- هذا ما كان ينقصنا.

رتّبت الصحون بصخب في البوفيه. كان ذلك في شهر مايو.

•

أسررتُ لـلـيـنـي أنّـنـي مـدعـوّة إلى قـصـر بـارون وبـارونـة فـون

t.me/qurssan

ميلدرنهاغن، فندّت عنها صرخة خافتة أثارت إلينا الأنظار، فاضطررت إلى أن أبوح لهنّ بالسرّ أيضاً. وقلت:

- على كلّ حال، لن أذهب.

فألحّت رفيقاتي معترضات:

- ألا ترغبين في زيارة القصر؟ هذه فرصة لا ينبغي أن تفوّتيها. قد لا تؤاتيك ثانية.

حكت بيت أنّها نادراً ما رأت البارونة تتجوّل في طُرُقات القرية رفقة أبنائها والمعلّمات خلفهم، لأنّها متعوّدة على لزوم قصرها، ويشاع أنّها مكتئبة. فردّت أوغيستين:

- أتصدّقين أنّها مكتئبة! هي من تقضي وقتها في تنظيم الحفلات، اللّهُمَّ إذا كان سبب اكتئابها هو أنها لا تدعوك.

قالت ليني:

- هي متوارية عن الأنظار في رأيي لأنها لا تمكث هنا. لا بدّ أنّها تصرف أوقاتها في الأسفار الرائعة.

حكى لي جوزيف أنّ البارونة كثيراً ما تقضي فترة ما بعد الظهر في الحديقة، تستنشق عبير أعشابها، ليس في الصيف والخريف فحسب، بل هي تحب أيضاً رائحة التراب المبلَّل بالمطر، وألوان الخريف كذلك. تحنو عليه لأنّه يغرس أزهارها الأثيرة ويتعهّدها. وحين كان جوزيف يحدّثني عنها، لم أكن أتخيّلها مكتئبة البتّة، بل بالأحرى حالمة، امرأة رقيقة، منقطعة إلى فردوسها الخاص الذي لا يستطيع أحد أن يطردها منه. وقلت:

- إنّها إنسانة لطيفة، لا سيّما مع حماي.

فنطقت أوغيستين:

t.me/qurssan

- كلام فارغ! إنّها امرأة متغطرِسة، هذا كلّ ما في الأمر. نحتجب لأنّها تظنّ نفسها أفضل منّا.

فقاطعتها إيلا:

- لا يهمّ ما تظنّه البارونة. المهمّ هو أن تحضري حفلتها يا روزا. اذهبي من أجلي، أرجوك! هكذا ستحكين لنا ما رأيت.

- ماذا سأحكي لك؟ أيّ نوع من النساء هي؟!

- أجل، ولكن أيضاً كيف هو القصر وشكل الحفل. كيف يلبس الناس في مثل هذه المناسبات... ثمّ، أيّ لباس سترتدين؟

وأضافت وهي تمسك بخصلة من شعري وتضعها خلف أذني:

- أمّا تصفيف شعرك، فسأتكفّل به.

وأعلنت ليني، وقد استخفّتها هذه اللعبة الجديدة، بأنّها ستساعدها.

سألت أوغيستين:

- لماذا دعتك؟ ما علاقتك بها؟ لا شكّ أنّك ستعودين الآن إلى غطرستك وتكبّرك.

- لم أكن يوماً متغطرسة.

لكنّها أشاحت عنّي ولم تسمع ما قلت..

تطوّع جوزيف لمرافقتي بما أنّه لم يكن ثمّة من يرافقني.. أمّا هيرتا فلم يرقها حضورنا هذا الحفل. مضت تردّد أنّ من حقّي أن اتسلّى، بيد أنّني لم أكن أرغب في التسلية، ولم أكن بحاجة إلى حقوقي. منذ شهور وأنا لا أفكر إلا في ألم واحد يشغلني عمّا سواه. ألمٌ مبرح لازمَني حتّى صار سمة من سمات شخصيّتي.

t.me/qurssan

وفي الساعة السابعة والنصف من يوم السبت، حلّت إيلا على نحو مباغت ببيت آل ساور: ارتدت الفستان الذي أهديته إيّاها وجلبت معها عدداً من الأمْشاط.

- ها أنت ترتدينه أخيراً.

كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي نجحتُ في التفوّه بها.

أجابت وقد علتها الابتسامة:

- هذا يوم الحفل، أليس كذلك؟

حضرت ليني وإلفريد أيضاً. كنّا قد توادعنا في الحافلة لحظات قبل ذلك. لا بدَّ أنّ ليني بذلت قصارى جهدها لكي تأتي، لكن ما الذي جاء بإلفريد؟ ما الذي أتى بها إلى هذا المطبخ الذي صمّمت إيلا على تحويله إلى صالون تجميل؟ لم تنبس ببنت شفة حين أخبرتهنّ بالدعوة، وها هي الآن تحضر إلى البيت من دون سابق إشعار، وأنا لم أستعدّ لاستقبالها. الحميمية الناشئة بيننا مقصورة على أماكن متوارية ووضيعة مثل مراحيض الثكنة. كان لقاؤنا أشبه بشقّ، بصدع عميق يربكنا معاً. يفقد طابعه الطارئ خارج أوقات العمل ويشوّش بالي.

دعوتهنّ إلى الجلوس وقد بدت عليّ الحيرة: كنت خائفة من ألا تستسيغ هيرتا زيارتهنّ. كان الجوّ الكئيب المخيّم على نهاراتنا قد أصبح طقساً من طقوس الإخلاص لغريغور. كانت تعيش على هذا الإيمان بأنّ هذا الابن سيُبعث عاجلاً أم آجلاً، وكلّ خروج عن هذا السمت تعدّه انتهاكاً لحرمته. وهي إن كانت ناقمة على ذهابي إلى الحفل، فإن مرح إيلا قد يضاعف من غضبها.

على أنّ حماتي لم تظهِر في الحقيقة إلا قليلاً من الانزعاج.

t.me/qurssan

انزعاج فضحته مبالغتها في التلطّف: كانت تودّ إبداء حسن الضيافة لكنّها ليست واثقة من النجاح في ذلك.

انتابني ارتباك شديد. فالفستان الذي ترتديه إيلا سبق أن لبستُه في فترة تعود إلى ماضٍ بعيد، وقماشه السّميك الدافئ الذي لا يناسب فصل الربيع، يلامس ردفي امرأة سواي، مع أنّه يحكي تاريخي أنا.

وضعت هيرتا الماء على النار كي تحضّر الشاي، وأخرجتْ أجمل فناجينها من البوفيه، وقالت معتذرة:

- ليس لديّ بسكويت. لو علمت بقدومكنّ، لكنت حضّرت شيئاً.

فتدخّل جوزيف كي ينقذ الموقف قائلاً:

- عندنا مربّى وخبز. هيرتا تعدُّ خبزاً رائعاً.

تناولنا الخبز والمربّى كما يفعل الأطفال. لم يسبق أن أكلنا معاً خارج مطعم الثكنة. هل يحدث لرفيقاتي أن يفكّرن، هنّ أيضاً، في السمّ كلّما حملن لقمة إلى أفواههنّ؟ حين نأكل، فنحن نصارع الموت كما كانت أمّي تقول، لكن صدق هذا الكلام لم يتأكّد إلا في كراوزندورف.

بعد القِطعة الأولى من الخبز المدهون بالمربّى، لحسَت ليني أصابعها ثمّ تناولت قطعة ثانية، فبادرتها إلفريد وقد علت وجهها ضحكة هازئة:

- يظهر أنّك تتلذّذين؟

فتورّدت ليني، وضحكت هيرتا أيضاً. لم تضحك منذ شهور.

كانت إيلا متلهّفة للشروع في تصفيف شعري. قامت من المائدة والبُخار لا يزال ينبعث من فنجانها، وطلبت من هيرتا أن تأتيها

t.me/qurssan

بيدَيها. فقلت متبرّمة:

- الماء بارد!

فردّت إيلا:

- كفاك تدلُّلاً.

ثمّ مضت تلفّ جدائل شعري بالمُشط وتسحبها إلى الأمام واضعة الدبابيس بين شفتيها.

- دعيني أعمل.

خلال فترة خطوبتنا أنا وغريغور، كنت أتردّد على الحلاق مرّة في الأسبوع، وأحرص على أن أبدو رائعة، لا سيّما حين يدعوني إلى العشاء في الخارج. كنت أخوض في الحديث مع النساء وأنا أنظر مفتتنة بصورتي في المرآة بينما يتحرّك العاملون من حولي بهمّة حاملين الأمشاط ومكاوي الشعر. ورغم أنّ الدبابيس والمشابك كانت تشوّه شعور النساء، والأمشاط تسحب جباههنّ، وخصلات الشعر المرسَلة إلى الأمام تغطّي نصف وجوههنّ، كنّ يشعرن بحرّية وجرأة تمكّنهنّ من الخوض في كلّ المواضيع، كخوض المتزوّجات في التسويات التي يفرضها الزواج، أو الحديث عن قدرة الحبّ السحرية، كما كنت أفعل أنا. وبينما كانت تنصت إليّ زبونة متقدّمة في السنّ يوماً، قالت:

- لست متشائمة، ولكن اعلمي أنّ سحر الحبّ لا يدوم طويلاً.

كان استحضار هذه الذكرى في مطبخ حماي وحماتي أمراً مفجعاً. لا شكّ في أن سبب ذلك هو التقاء هذا الجمع العبثي -ليني وإلفريد وإيلا وحماي وحماتي- في البيت الذي ترعرع فيه غريغور. وحضوري أنا أيضاً بينهم، أنا من كنت أعيش في العاصمة، وكنت

t.me/qurssan

أدفع للحلّاق كلّ أسبوع، وكنت ساذجة بحيث لم تكن النسوة اللواتي يكبرنني يتورّعن من إحباطي شيئاً فشيئاً، زاعمات أنّهنّ إنّما يفعلن ذلك لمصلحتي.

حاولت أن أنسى هذا الخوف غير المبرَّر الذي جعل يدَيّ تتصبّبان عرقاً. وقلت:

- هلّا وصفتَ حديقة القصر لإيلا يا جوزيف؟

فقالت مشجّعة:

- نعم، أرجوك! كم أودّ رؤيتها. أهي واسعة؟ أفيها مقاعد ونافورات؟

وبينما همَّ جوزيف بالجواب، أضافت ليني:

- هل فيها متاهة كذلك؟ أحبّ متاهات الحدائق.

ابتسم حماي، وقال:

- كلا، لا توجد فيها متاهة.

قالت إلفريد بنبرة مازحة:

- هذه الشابّة التي أمامكم تعتقد أنّها تعيش في عوالم حكايات الجنيّات.

فردّت ليني:

- وهل في ذلك عيب؟

قالت إيلا:

- لو أنّك عشت حياتك كلّها، منذ كنت صغيرة قرب أحد القصور، لا مفرّ لك من ذلك.

فسألت هيرتا:

- وأنت يا إلفريد، أين ولدت؟

تردّدت قبل أن تجيب:

t.me/qurssan

- في دانتزيغ.

هي إذاً نشأت في المدينة مثلي. كيف يعقل أنّني لا أعرف من أين أتت بعد كلّ تلك الشهور؟ لم أجرؤ على سؤالها، لأنّ كلّ سؤال، من شدّة تحفُّظها، يبدو تطفُّلاً.

كنّا قد مررنا أنا وغريغور بدانتزيغ سنة 1938 قبل أن نركب السفينة إلى سوبوت. لعلّ إلفريد كانت هناك بينما كنّا نجوب شوارع مدينتها، ولربّما التقينا دون أن يخطر على بالنا بأنّنا سنجلس بعد سنوات إلى المائدة نفسها، ويجمعنا المصير نفسه.

علّق جوزيف:

- أظنّ أنّ الأمر كان صعباً.

هزّت إلفريد رأسها مؤمّنة على قوله.

- أعيش بمفردي. هل يمكن أن تسكُبي لي فنجان شاي آخر من فضلك يا ليني؟

سألَت هيرتا قاصدةً إبداء الحفاوة لا بدافع التطفُّل:

- منذ متى؟

لكنّ إلفريد أصدرت صوتاً أخنّ، كما لو أنّها مزكومة، وكانت تلك طريقتها في التنفُّس. ما زال يخيّل إليّ في بعض المساءات الشتوية أنّني أسمعها.

هتفت إيلا بعد أن فرغت من تلفيف رأسي في شبكة خضراء:

- ها قد انتهينا! الآن لا تلمسيه.

ألحّت عليّ الرغبة في الحكّ، فقلت:

- ولكنّني أشعر به مشدوداً...

نقرت على يدي بإصبعها، وقالت:

t.me/qurssan

- أزيلي يدك، قلت لك!

فضحك الجميع حتّى إلفريد.

لم تكدّر أسئلة هيرتا مزاجها لحسن الحظّ. كان في تكتّمها شيء من الإصرار، بل من الوقاحة. ورغم أنها لم تكن تسمح باقتحام عالمها إلا حين تقرّر هي ذلك، لم يكن يتهيّأ لي أنّها تنبذني.

تبدّد الضيق، وألفينا أنفسنا للحظة أربع شابّات مستغرقات في أمور التجميل. وفجأة سألت ليني غير عابئة بما إذا كان المقام يسمح بطرح مثل هذا السؤال:

- هل يمكن أن تريني صورة غريغور؟

بدا التوتّر على هيرتا، وسادَ صمت مطبق. قمت من مكاني دون أن أنبس، وتوجّهت إلى غرفتي.

غمغمت ليني:

- المعذرة، ما كان عليّ. . .

وبلغني صوت إلفريد تؤنّبها قائلة:

- بحقّ السماء، بماذا تفكّرين؟

بينما لزم الآخرون الصمت.

بعد دقائق عدتُ إلى المطبخ. أزحت الفناجين ووضعت الألبوم وسط المائدة. حبسَت هيرتا أنفاسها، ووضع جوزيف غليونه في حركة احترام لغريغور، كما لو أنّه ينزع قبعته.

قلّبت الصفحات المكسوّة بورق صقيل إلى أن عثرت عليه. كان في الصورة الأولى جالساً على مقعد طويل في الباحة الموجودة خلف المنزل، وقد ارتدى ربطة عنق، لكن من دون سترة. وفي صورة أخرى بدا مستلقياً على العشب، بسروال واسع، والأزرار العلويّة من قميصه الصيفي مفكوكة، وكنت بجواره يغطّي رأسي

t.me/qurssan

منديل مخطّط. كانت الصورة قد التقطت لنا هنا خلال أوّل سفر لنا معاً.

سألتني إيلا:

- هو ذا؟

- نعم، أجابتها هيرتا بصوت متهدّج، ثمّ عضّت على شفتها العلوية، ومطّت البشرة الموجودة أسفل أنفها، فبدت مثل سلحفاة بدت مثل أمّي.

قالت إيلا:

- تبدوان زوجَين رائعَين.

وسألت ليني بولع:

- وصورة عُرسكما؟

قلّبت الصفحة:

- ها هي.

ها هما عينا غريغور اللتان تفحّصتاني بدقّة يوم اجتزت مقابلة التشغيل في المكتب، كما لو أنّهما تسعيان إلى سبر أعماقي، ولاستجلاء جوهري من أجل عزله والتخلّص من الباقي، للوصول مباشرة إلى المهمّ، إلى معدني الحقيقي.

كنت أمسك باقة زهر بطريقة خرقاء. بَتَلاتها في تجويف ذراعي وسيقانها على بطني كما لو أنّني أهدهدها. بعد ذلك بسنة التحق بالجبهة، والصورة الموالية تظهره وهو في زيّه العسكري. ثمّ اختفى بعد ذلك من الألبوم.

أنزل جوزيف زارت من فوق ركبتيه وخرج إلى الباحة الموجودة خلف المنزل دون أن ينبس. تبعه القطّ، لكنّه أغلق الباب في وجهه.

t.me/qurssan

أزالت إيلا من رأسي البكرات التي لُفّ الشعر عليها، ثمّ .شطتني قبل أن تضع المُشط على المائدة وتقول:

- ما رأيك يا فرو ساور، هل أتقنت العمل؟

هزّت هيرتا رأسها في فتور قبل أن تضيف:

- ينبغي أن تلبسي فستان الحفل.

تكدّر مزاجها من جديد. صارت هذه الحالة تنتابها باستمرار، وهي تجدُ صعوبة في التغلّب عليها. وقد كنت أفهمها. فأمام صديقاتي، لم تعد صور غريغور تختلفُ عن الصور التي تقصّها إيلا من مجلاتها: صور أناس لا يمكن لمسهم والتحدّث إليهم. أناس كان من الممكن ألا يوجدوا.

ارتديتُ ملابسي في صمت بينما جلست هيرتا على سريري ساهمة، تحدّق في صورة غريغور وهو طفل في الخامسة من عمره: كيف أمكن أن تفقد هذا الابن الذي خرج من أحشائها؟

- هل يمكن أن تساعديني يا هيرتا من فضلك؟

قامت هيرتا، وراحت تزرّر الأزرار ببطء واحداً واحداً، وقالت وهي تلمس ظهري:

- جزء كبير من ظهرك مكشوف. ستصابين بنزلة برد.

غادرت غرفتي وأنا في أتمّ الاستعداد للحفل محاوِلة إقناع نفسي بأنّني لست أنا من قرّرت ذلك. ولعلّ هيرتا كان ينتابها الشعور نفسه. أمّا رفيقاتي، فكنّ متّقدات حماساً كأنهنّ وصيفات عروس، مع أنّني كنت متزوّجة، ولم يكن أحد ينتظرني في الكنيسة. فمِمّ كنت خائفة إذاً؟ ولماذا؟

قالت إيلا متهلّلة كما لو أنّها هي من دُعيت للحفل:

- هذا الفستان الأخضر الداكن مناسب تماماً لشعرك الأشقر.

t.me/qurssan

ليس من باب الثناء على عملي، ولكن التصفيفة أظهرت استدارة وجهك.

وقالت ليني عندما بلغنا عتبة الباب:

- تسلّي جيّداً.

فهتفت إيلا:

- حتّى إن لم تتسلّي، سجّلي كلّ شيء. لا أريدك أن تغفلي أيّ تفصيل، مفهوم؟

أمّا إلفريد، فكانت قد انطلقت.

- وأنت، ألا تقولين شيئاً؟

- ماذا تريدينني أن أقول لك أيّتها البرلينية؟ مخالطة أناس مثلك لا يخلو من مخاطرة، ولكن المرء لا يملك الاختيار أحياناً.

كان الهدف الوحيد الذي نجحت في تحديده لنفسي من تلك السهرة هو تحيّة البارونة، بيد أنّني كنت أجهل كيف سأحقّقه. وما إن دخلت القاعة حتّى ناولني أحد الخدم كأساً. أمسكته وقلت في نفسي إنّها وسيلة مناسبة للتكيُّف مع الأجواء. رحتُ أرتشف رشفات صغيرة من النبيذ وأنا أتجوّل بين المدعوّين المستغرقين في الحديث. كانوا يشكّلون جماعات متلاحِمة يتعذّر اختراقها. جلست إذاً على أريكة بجوار جماعة من النسوة المسنّات: ربّما أرهقهنّ الملل، فيلتفتن إليّ، ويحاولن الثرثرة معي. أطرين على فستاني من الساتان، وقالت إحداهنّ إنّ ظهري المكشوف يجعلني أبدو مميَّزة، وأضافت أخرى إنّ التطريز الموجود على كتفي أعجبها، ولاحظَت ثالثة أنّه لم يسبق لها أن رأت مثل تصميم هذا الفستان من قبل. وبينما كنت أجيب بأنّ صانعه خيّاط برليني، قصدَنا أشخاص آخرون، فقامت

t.me/qurssan

ـرة للتحيّة، ونسينني. ابتعدت عن الأريكة، وأسندت ظهري .كشوف على الجدار المنجَّد وأنا أنهي شرب كأسي.

مضيت أتأمّل اللّوحات الجصّيّة المرسومة على السقف، خيّلتُ نفسي أنسخ شخصياتها على ورقة. وحين تنبّهت إلى أنّني ت أرسم بظفر سبابتي على طرف إبهامي، توقّفت، واتّجهت صوب اجهة زجاجية في الصالون. وقفت أقدّر ما إذا كان بوسعي أخيراً لاقتراب من البارونة: ما زال الضيوف المحيّون يحاصرونها. عليّ اً أن أتقدّم، وأشارك في الأحاديث الدائرة حتّى أصل إليها، لكنني عرت بنفسي عاجزة. كانت أمّي تقول إنّني لا أتوقّف عن الحديث، لى أنّني صرت صموتة في بروسيا الشرقية.

وما لبثت البارونة أن لاحظَت وجودي. كنت متنحّية في مكان الكاد يقع في مجال بصرها حين رأيتها قادمة نحوي وقد تطلّقت اساريرها.

- شكراً على الدعوة سيّدتي البارونة، إنّه لشرف كبير لي أن احضر هذا الحفل.

فقالت وهي تبتسم:

- مرحباً بك يا روزا. هل أستطيع أن أناديك روزا؟

- تستطيعين طبعاً، سيّدتي البارونة.

- تعالي لكي أقدّمك لزوجي.

كان كليمانس فرايهر فون ميلدرنهاغن يتحدّث مع شخصَين ويدخّن. لولا البزّة العسكرية لمّا عرفتُ من الخلف أنّهما ضابطان. وقفتهما المتراخية تتنافى مع الوقفة العسكرية. كان أحدهما يلوّح بيدَيه كمن يحاول أن يقنع مخاطبه.

t.me/qurssan

- هل تسمحون أيّها السادة بأن أقدّم لكم صديقتي من برلين، فرو ساور؟

التفت الضابطان، فإذا بي أجد نفسي وجهاً لوجه مع زيغلر.

قطّب حاجبيه كما لو أنّه يحسب جذراً تربيعياً لعدد لا نهائي. مضى يتفرّسني، يقرأ بلا شكّ الدهشة على وجهي، ثمّ الخوف، كما يحدث لشخص صدم رُكبته بركن من الأركان، إذ لا يشعر بشيء على الفور، لكن ما إن تمضي لحظة حتى يحسّ بألم مبرّح تتزايد حدّته.

قالت البارونة مقدّمة:

- هذا زوجي، البارون كليمانس فون ميلدرنهاغن، وهذا العقيد كلاوس شينك غراف فون شتوفنبرغ وهذا الملازم ألبرت زيغلر.

اسمه ألبرت إذاً.

قلت وأنا أحاول أن أحافظ على رصانة صوتي:

- مساء الخير.

قبّل البارون يدي، وقال:

- إنّه لمن دواعي السعادة أن أراك بيننا. أتمنّى أن ينال الحفل رضاك.

- أشكرك، إنّه حفل رائع حقّاً.

انحنى شتوفنبرغ، ولم ألمح عقب سيجارته على التوّ، لأنّ العصابة التي تخفي عينه اليُسرى، وتجعله يبدو مثل قرصان، لفتت انتباهي. ومع ذلك فهو لا يبدو منفّراً، بل لطيفاً. انتظرت أن ينحني زيغلر بدوره، لكنّه اكتفى بإشارة من ذقنه.

سألتْ ماريا بتوقٍ اكتشفتُ لاحقاً، بعد معاشرتها، أنّه سمة من سمات شخصيتها:

t.me/qurssan

- رأيت النقاش بينكم محتدماً. عمّاذا كنتم تتحدّثون؟

حوّل زيغلر بصره، وصوّبه عليّ. أجاب أحدهم بالنيابة عنه، ربّما البارون أو العقيد، لكنّني لم أسمع شيئاً. كلّ ما شعرت به ضباباً غشي بصري وحطّ على ظهري العاري. ما كان عليّ أن أرتدي هذا الفستان. ما كان عليّ أن آتي إلى هنا أصلاً.

ألا تعلم البارونة بالأمر؟ أيتظاهر زيغلر بعدم معرفتي؟ أعليّ أن أقول الحقيقة أم أتظاهر بأنّني لا أعرفه؟ هل عملي كذائقة ينبغي أن يظلّ سرّاً؟ أم من غير اللائق إخفاؤه؟

كانت عينا زيغلر -أيّ ألبرت- متقاربتَين جدّاً، يبدو وهو يوسّع منخاريه الشبيهين بمنخاري قِطّ، ويقبض أسارير وجهه، مثل صبيّ خسر مباراة كُرة قدم، أو بالأحرى كصبي متلهّف للعب كُرة القدم، لكنّه لا يملك كُرة، ويرفض أن يسلّم بذلك.

- أنتم لا تتحدّثون إلا عن الاستراتيجيات العسكرية.

حقّاً؟ أفي غمرة هذه الحرب التي تحصد ما شاء لها أن تحصد من أرواح، تريدهم أن يخوضوا في مواضيع تافهة تناسب أُنس هذه السهرة؟ من تكون هذه المرأة؟ يزعمون أنّها مكتئبة، بيد أنّني لم أجدها كذلك.

أمسكت ماريا بيدي، وقالت:

- هيّا بنا يا روزا.

مضى زيغلر ينظر إليها كما لو أنّها أتت عملاً خطيراً.

- ألستَ على ما يرام، أيّها الملازم؟ لاحظت أنّك تلزم الصمت، فوددت أن ألحّ عليك لعلّك تتكلّم.

ردّ زيغلر بصوت هادئ لم أسمعه منه أبداً:

- لا تقولي ذلك أيّتها البارونة حتّى على سبيل المزاح.

t.me/qurssan

وقلت في نفسي: ينبغي أن أحكي هذا لإلفريد. على أنّني لم أفعل.

- عن إذنكم.

أخذتني ماريا من ضيف إلى آخر، تقدّمني على أنّني صديقة من برلين. لم تكن من نوع ربّات البيوت اللواتي يتحدّثن بسرعة إلى الضيوف ثمّ تتركهم إلى الطرف الآخر من القاعة للتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. فهي لا تتوقّف عن السؤال، وترغب في الحديث عن كلّ شيء، عن آخر سهرة في الأوبرا، وعن معنويات جنودنا العالية رغم المحنة التي يجتازونها، وعن تصميم فستاني الذي أثنَت عليه أمام الجميع، معلنة أنّها ستشتري مثله، لكن بلون برتقالي باهت، ولا يكشف كثيراً عن الظهر، ومن ثوب الأورغانزا. فقلت معلّقة:

- لن يكون مثله إذاً.

فانفجرت ضاحكة.

وما هي إلّا لحظة حتّى جلست على المقعد أمام البيانو، ووضعت أصابعها على المفاتيح، ومضت تغني:

«Vor der Kasern, vor dem großen Torstand eine Lanterne, und steht sie noch davor».

وكانت تلتفت إليّ بين الفينة والأخرى بنوع من الإصرار بحيث لم أجد بدّاً من مجاراتها، فرحت أدندن على نحو آلي. على أنّني سُرعان ما شعرتُ بجفافٍ في حلقي. وشيئاً فشيئاً انضمّ إلينا الآخرون، وأسفنا جميعاً على العهد الذي كانت تذوب فيه ليلي مارلين عشقاً، مع أنّ الجندي كان يعلم، وكنّا نعلم معه، أنّها سرعان ما ستنساه.

أين كان زيغلر؟ أكان يغنّي هو الآخر؟ وسألنا بصوت واحد مع

t.me/qurssan

.اي مارلين، من سيكون هناك معك قرب عَمود الإنارة؟ وتساءلتُ: .اذا تثير في الملازم هذه المرأة التي انسحبت من الحزب، وغادرت المانيا. تلك المرأة الشاحبة المثيرة، مارلين ديتريش: أكانت تعجبه؟ ،لكن، ما شأني أنا بهذا؟

توقّفت ماريا عن الغناء، وسحبتني من يدي، ثمّ أجلستني على المقعد بجوارها، وأعلنت: «لنرَ ما إذا كنتم ستعرفون هذه». وعزفت المهر نغمة في مقطوعة «Veronika der Lenz ist da». كنت لا ازال مراهِقة حين حضرت أوّل مرّة حفلاً موسيقياً للكوميديّ هارمونيستس. لم أكن قد تعرّفت إلى غريغور بعد. كان مسرح مروس شاوسبلهاوس حاشداً، وصفّق الجمهور بحرارة وهتف للشبّان الستة الذين كانوا يرتدون بدلات رسمية. كان ذلك قبل صدور القوانين العنصرية. سيتبيّن لاحقاً أنّ الفرقة تضمّ ثلاثة يهود، وبذلك مُنعت من إحياء الحفلات.

وقالت ماريا:

- الآن جاء دورك يا روزا. فأنت تملكين صوتاً جميلاً.

لم تترك لي الوقت للجواب، إذ بعد البيتَين الأوّلَين، توقّفتْ وكان عليّ أن أتابع بمفردي. وسمعت صوتي يتردّد تحت سقف الصالون العالي كما لو أنّه لا يخرج من حنجرتي.

مضت أشهر وأنا أشعر بوجود فجوة بيني وبين ما أفعل: لم أكن أستطيع أن أحسّ بحضوري.

لكنّني رأيت الرضا بادياً على وجهها، وأدركت أنّها اختارتني من بين كلّ الحاضرين. أغمضتُ عينَيّ ورحت أغنّي في قاعة القصر الشرفيّة على أنغام تعزفها لي بارونة بالكاد تعرّفتُ إليّ، وتسعى لاسترضائي.

t.me/qurssan

كان غريغور يقول لي متبرّماً: إنّك تغنّين طوال اليوم يا روزا، ما عدت أستحمل! وأجيب: الغناء بالنسبة إليّ يا غريغور مثل الغوص في الماء. تخيّل حجراً كبيراً يجثم على صدرك. الغناء مثل أن يأتي شخص ويزيحه عنك. كم مضى عليّ لم أتنفّس ملء رئتي هكذا؟

رحت أغنّي، غير شاعرة بمن حولي، عن قدوم الحبّ ورحيله إلى أن أيقظتني التصفيقات. وعندما فتحت عينَيّ، أبصرت ألبرت زيغلر. كان لا يزال يحدّق فيّ بسحنته المتجهّمة كطفل بلا كُرة. لكن الطفل تخلّى عن مكابرته، واعترف بهزيمته، وعاد إلى بيته.

t.me/qurssan

17

كان شهر مايو من سنة 1933 ملتهباً. خشيت أن تذوب شوارع
برلين وتجرفنا مثل الحُمَم، لكنّ المدينة كانت تعيش أجواء احتفالية،
لم تحترق. وحتّى المطر انحبسَ ليترك المجال لعربات تجرّها
الثيران وللشعب الذي هرع إلى ميدان الأوبرا.

من خلف الشرائط التي نصبتها الشرطة، شعرت بهبّة ساخنة
تلهب صدري، وبرائحة دخان تجفّف حنجرتي، وكانت الأوراق
تنكمش وتسقط رماداً. ورغم أنّ غوبلز كان رجلاً ضئيلاً ضعيف
الصوت، فهو يعرف كيف يستعمله لنشر الفرح، والنظر إلى قساوة
الحياة، ودفع الخوف من الموت. خمسة وعشرون ألف مجلد
سُحبت من الخزانات وطوابير من الطلبة يهتفون وهم متشوّقون
ليصيروا رجالاً يتمتّعون بشخصيّات قوية، لا رجال كُتُب. ورغم أنّني
اجهدت عقلي لأفهم فحوى ما كان ينادي به غوبلز من أنّ عهد
النزعة الثقافية اليهودية قد انتهى، لم أستوعب من كلامه شيئاً.

بعد سنة من ذلك، بينما كان أستاذنا وورتمان يشرح درس
الرياضيات، رحت أراقب من النافذة أشجاراً شحيحة الأوراق كنت
أجهل اسمها، وأنصت لحفيف أجنحة طيور لا أعرفها. ولم يكن

t.me/qurssan

وورتمان، برأسه الأصلع، وكتفيه المقوّسين، وشاربه الكثّ الـ[illegible] يخفي بروز فكّه الأسفل، شخصاً جذّاباً، ومع ذلك كنّا، نحـ[illegible] التلاميذ، نحبّه كثيراً. كان يتمتّع بنظرة حادّة وروح دُعابة لا تُجار[illegible] تشدّنا إلى الدرس، فنتابعه بيُسر.

حين فُتح الباب، كنت لا أزال مستغرقة في تأمُّلاتي، ولم تُعد[illegible] إلى قاعة الدرس سوى نقرة الأصفاد وقد أطبقها رجال الجنا[illegible] العسكري للحزب النازي على معصمَيه ثمّ وهم يقتادونه. كان[illegible] الصيغة الرياضية المدوّنة على اللوح غير تامّة وغير دقيقة بينما الطبشو[illegible] ساقط على الأرض، متشظٌّ إلى قطع صغيرة. كنّا في شهر مايو.

انطلقت من مقعدي إلى الباب متأخّرة، بعد أن كان وورتما[illegible] قد بلغ الردهة محاطاً برجلَين من الجناح العسكري للحزب. هتفتُ آدم! وهو اسمه الشخصي. حاول الأستاذ أن يقف ويلتفت إلى الخلف، لكنّ الرجلَين منعاه وأجبراه على التقدُّم. هتفتُ ثانية قبل أن يهرع إليّ بقية الأساتذة ويسكتوني وهم يومئون لي بين مهدّ[illegible] ومواسٍ.

فُرضَت على وورتمان الأعمال الشاقّة في أحد المصانع، لأنّه يهودي، أو بالأحرى منشقّ، أو لأنّه بكل بساطة من أصحاب الثقافة، بينما كنّا نحن الألمان بحاجة إلى أناس أقوياء، لا ينفذ الخوف إلى قلوبهم، قادرين على إجلال الموت. أيّ أناس يتحمّلون المعاناة في صمت.

وفي نهاية حفل، يوم العاشر من مايو من سنة 1933، أعلنَ غوبلز عن رضاه. كانت الحشود قد ملّت بعد أن استنفدت أناشيدها.

t.me/qurssan

، بعد الإذاعة تبثّ شيئاً، وجاء رجال الإطفاء بشاحناتهم، وأطفأوا ار، لكنّها ظلّت كامنة تحت الرماد، وقطعت كيلومترات عديدة ، إلى تصل حتّى هنا، حتّى غروس-بارتش سنة 1944. مايو شهر لا يعرف التسامُح.

t.me/qurssan

18

أجهل منذ متى وهو واقف هناك. كانت الضفادع تلك الليلة كما لو أصابها الجنون. صار نقيقها المتواصِل خلال نومي مصدر بلبلة لسكّان العمارة الذين كانوا ينزلون السلّم وهم يقفزون أربع درجات بأربع، حاملين سُبحات في أيديهم، والعجائز ذاهلات لا يعرفن أيّ طريق يسلكن، وأمّي يائسة من إقناع أبي باللجوء إلى القبو بينما صفارة الإنذار تدوّي. ينقلب على الجانب الآخر، يربت على الوسادة، ويدفن خدّه فيها. كان الإنذار كاذباً، فصعدنا الأدراج ونحن نغالب النوم. علّق أبي بأنّ الأمر لا يستلزم كلّ ذلك العناء. **إن لم يكن من الموت بدّ، فحريّ بي أن أموت في سريري. لن أنزل إلى ذلك القبو. لا أريد أن أنتهي مثل جرذ.** كنت أحلم ببرلين، بالعمارة التي ترعرعتُ فيها، بالملجأ والناس المكدّسين فيه، والضوضاء المتعاظمة في غروس-بارتش بسبب الضفادع المنتحِبة طوال الليل، والتي كان نقيقها يتسلّل إلى نومي. ولا أحد يعرف ما إذا كان هناك.

كنت أحلم بتضرّعات العجائز وهنّ يُمرّرن حبّات السُّبحة بين أصابعهنّ بينما الأطفال ينامون، وأحد الرجال يغطّ، وحين ضاق ذرعاً بتوسّلاتنا لهنّ بأن يصلين من أجلنا، استيقظ وهو يلعن ويقول دعوني أستريح، فشحبت وجوه العجائز. رأيت في الحلم جهاز

t.me/qurssan

فونوغراف جلبه بعض الشباب إلى القبو، ودعوا الفتيات إلى الرقص على أنغام «Das wird ein Frühling ohne Ende»، لكنّني لم أراقصهم، لأنّ أمّي طلبت منّي أن أغنّي لها. أمسكت بي يد ودعتني إلى النهوض، وجعلتني أدور على نفسي وأنا أغنّي بأعلى صوتي: «حين نعود سيكون ربيعاً بلا نهاية. كنت أغنّي وأنا أتابع الموسيقى، وأدور على نفسي دون أن أتمكّن من رؤية أمّي. ثمّ رفعتني ريح، ودفعتني بقوّة، فقلتُ في نفسي: أهو الاختطاف؟! لقد وقع بينما أمّي غائبة وأبي في الأعلى داخل الشقّة نائماً، أو يتظاهر بالنوم، والفونوغراف توقّف، وصوتي كذلك، وأنا لا أقوى على الكلام ولا على الاستيقاظ. وفجأة سُمع دويّ انفجار قوي.

فتحت عيني وأنا أتصبّب عرقاً، وانتظرت في السرير، ولم أستطع الحركة إلا بعد أن زال ما كنت أشعر به من تنمّل في سائر أطرافي. أوقدت مصباح الزيت لأنّ الظلام كان مطبقاً على صدري، وبينما واصلَت الضفادع نقيقها بلا توقّف، نهضت وتوجّهت إلى النافذة.

كان واقفاً هناك تحت ضوء القمر الواهن لا أدري منذ متى، عبارة عن طيف قاتم، عن كابوس، عن شبح. كان من الممكن أن يكون غريغور العائد من الحرب، لكنّه زيغلر، واقف وسط الطريق.

حين رآني تقدّم خطوة، فتضاعف خوفي. ثمّ تقدّم خطوة أخرى. تراجعتُ إلى الخلف، فتوقّف. أطفأت النور، واختبأت خلف الستارة.

لعلّه جاء لترهيبي. ماذا قلتِ للبارونة؟ حكيتِ لها كلّ شيء؟ كلا أيّها الملازم، أقسمُ لك إنّني لم أقل شيئاً. ألم أتظاهر بعدم معرفتك عندما قدّمتني لك؟

انتظرت وأنا أشدّ قبضتي أن أسمع طرقاً على الباب. وددت لو

t.me/qurssan

أجري وأخبر جوزيف وهيرتا. أخطرهما بوجود ملازم من الشرطة العسكرية أمام منزلهما في جوف الليل، وأنّ ذلك بسبب غلطي لأنّني ذهبت إلى الحفل. كانت إلفريد محقّة حين قالت إن بعض الأشخاص لا يمكن أن يكونوا سوى مصدر متاعب لأناس مثلنا.

سيدخل زيغلر، وسيقودنا إلى المطبخ، آثار النوم لا تزال على خدودنا، وشعر هيرتا بلا مشابك، تلفّه في شبكة. ستمسح حماتي على فوديها بينما سيلمس حماي يدها، فيلكزه زيغلر بمرفقه على صدره. يسقط أرضاً، فيأمره بالنهوض، مثلما فعل مع بيت. سيجبرنا على الوقوف بصمت أمام المدفأة التي لا نار فيها، ثمّ سيطلب منّي، وهو يداعب غمد مسدّسه، أن أقسم على ألا أقول شيئاً، وأن أظل في مكاني. سيصرخ في وجه هيرتا وجوزيف جرياً على عادة الشرطة العسكرية رغم علمه بأنّ لا دخل لهما في الأمر.

مرّت دقائق دون أن يطرق زيغلر الباب.

لم يقتحم البيت، ولم يصدر أوامر، بل بقي واقفاً لست أدري ماذا ينتظر، ينتظرني أنا. وبقيت أنا أيضاً في مكاني، ولسبب غير مفهوم لم أطلب النجدة. لأنّني كنت مدركة، رغم تسارُع دقّات قلبي، أنّ المسألة بيني وبينه، وأنّها لا تعني سوانا. كنت أشعر بالخزي أمام هيرتا وجوزيف كما لو أنّني أنا من دعوته. وأدركت على الفور أنّ هذا الأمر سيبقى سرّاً. سرّ ينضاف إلى أسراري الأخرى.

أزحتُ السّتار، ونظرت من خلال الزجاج. كان لا يزال هناك لم يكن ضابط شرطة عسكرية، بل صبياً يطلب كُرته. وتقدّم خطوة أخرى نحوي. لزمت مكاني، وبقيت أنظر إليه في الظلام. اقترب أكثر، فسارعت إلى الاختباء خلف الستارة. حبست أنفاسي، ورحت

t.me/qurssan

اصغ إلى الصمت المطبق: كان الجميع نائمين. عدت إلى النافذة ،نظرت من جديد. كان الطريق خالياً.

وبينما كانت هيرتا تتناول فطورها في الصباح، سألت عن تفاصيل الحفل، لكنّني كنت ساهِمة، مذهولة.

استفسرَ جوزيف:

- ألست على ما يرام؟

- لم أنم جيّداً.

فعلّق قائلاً:

- إنّه فصل الربيع. أنا أيضاً يجفوني النوم أحياناً. لكنّني كنت من التعب هذه الليلة بحيث لم أفطن لعودتك.

- بعثَ البارون من رافقني إلى البيت.

سألَت هيرتا وهي تمسح فمها بمنديل:

- حدّثيني، ماذا كانت البارونة ترتدي؟

أكلت في المطعم وأنا متوجّسة. كلّما سمعت وقع جزمة، التفتُ إلى الباب، فلا أجده. كان عليّ أن أتقدّم إلى مكتبه، وهو مكتب مدير المدرسة سابقاً، وأطلب لقاءه. أحذّره من العودة للوقوف تحت نافذتي ليلاً، وإلّا... وإلّا ماذا؟ يتناول حماي بندقية الصيد، ويلقّنك درساً لن تعود بعده أبداً؟ ستنادي حماتي على الشرطة؟ أيّ شرطة؟ فقد كان زيغلر صاحب سُلطة كاملة على القرية قاطبة، وعليّ أنا.

ماذا كانت ستظنّ رفيقاتي لو طلبت التحدّث إليه؟ فأنا لم أستطع حتّى أن أحكي لهنّ عن الحفل رغم أسئلة ليني الملحاحة: كيف هي

t.me/qurssan

الثُّريّات؟ والأرضية؟ والمدافئ؟ والستائر؟ ورغم لجاجة إيلا ا، السؤال: هل حضر بعض المشاهير؟ وماذا كانت تنتعل البارونة؟ وهل وضعتِ أحمر شفاه؟ نسيت أن آتيك به. لو أنّني ذهبت للا زيغلر، لقالت إلفريد: أنت تبحثين دائماً عن المتاعب أيّتها البرلينية ولقالت أوغيستين: الآن وقد طفقت تحضرين حفلات الأغنياء، لم تلبثي أن تتحالفي مع العدو. على أنّ زيغلر لم يكن عدوّاً. فهو ألماني مثلنا.

سمعتُ ضربة كعب قويّة على البلاطة، وتحيّة نازية متقنة فعلّقت أوغيستين: «ها هو الوغد قد وصل».

التفتّ.

كان زيغلر يتحدّث إلى معاونيه. لا يشبه في شيء الرجل الذي كان يكلّم البارون فون ميلدرنهاغن، وذاك الذي وقف تحت نافذتي.

لعلّه إجراء من إجراءات المراقبة: يختار في كلّ ليلة بيتاً، ويراقب الذائقات. لقد سرح بك الخيال، وانغمستِ في الأحلام. لعلّه أثر الاختطاف. ما أنتِ إلا مسرنمة كما كان يقول فرانز عن حقّ.

التفت زيغلر إلينا، وراح يتفحّص المائدة ليتثبّت من أنّنا كنّا جميعاً نأكل. سارعت إلى طأطأة رأسي وشعرت بنظراته مصوّبة على رقبتي، ثمّ التقطتُ نفساً ورحت أبحث عنه من جديد، لكنّه كان قد أدار لي ظهره، وحوّل بصره عنّي.

أويت إلى فراشي باكراً. إنّك محقّ يا جوزيف، فصل الربيع يُرهقني. بمجرّد ما أغمض عينيّ، وأنا بين اليقظة والنوم، تتشابك الأصوات في مسامعي: أمّي تضرب بيدها على غطاء المائدة وتقول: تريدين إذاً أن يطردوك من العمل! وأبي يبعد صحنه وهو ما زال

t.me/qurssan

ابئاً ويغادر المائدة قائلاً: ينبغي أن تعودي إلى رشدك، فأنا لن انضم إلى الحزب. وبينما غرق الريف في صمت مطبق، تردّد في راسي عالياً صوت مذياع سيّئ الاستقبال، عبارة عن خشخشة، أم أنه نقيق ضفادع؟ كنت مستيقظة أتنهّد، والأصوات تطنّ في رأسي.

قمت إلى النافذة، فلم أرَ غير الظلام. رحت أحدّق فيه فكشف ضوء القمر الخافت عن هيئة الأشجار. ماذا تنتظرين ولماذا؟

عدت إلى سريري. أزحت الأغطية. رغم الترقُّب، اعتراني الخمول، فقمت ثانية وعدت إلى النافذة. لا وجود لزيغلر، فلماذا لم يهدأ روعي؟

استلقيت على ظهري، ورحتُ أنظر إلى عوارض السقف الخشبية، وأرسم بإصبعي على الغطاء خطوطها الهندسية، ثمّ ما لبثت أن وجدت نفسي أرسم وجه زيغلر البيضوي، ومنخرَيه الضيقَين كثقبَي إبرة في غضروف أنفه الصغير، وفتحتَي عينيه، وما إن وصلت إلى هناك حتّى توقفت. استدرت على الجانب الآخر ثمّ تركت السرير من جديد.

•

صببت قليلاً من الماء من الجرّة، وشربتُ جرعة. وقفتُ أمام منضدة السرير والكأس في يدي. حجب ظلٌّ ضوءَ القمر الشاحب، فداهمني الجزع. التفتّ، فرأيته. بدا لي أقرب من الليلة السابقة، فانخلعَ قلبي. وضعتُ الكأس، وغطّيت الجرّة بقطعة قماش مطويّة، وتوجّهتُ صوب النافذة. لم أختبئ. زادت أصابعي الخرقاء من إضاءة المصباح، فرآني واقفة أمامه، بقميص النوم القطني الأبيض تحت الرّداء، وشعري منفوش. حرّك رأسه، ووقف في مكانه يحدّق فيّ، كما لو أنّ النظر إليّ فعل مقصود لذاته، لا غاية له خارج تحقُّقه.

t.me/qurssan

19

قالت إلفريد بنبرة ساخطة كمن انتُزِع منه اسم خلال جلسة تحقيق: «أعرف طبيباً». كان الحرّاس يتجوّلون في الساحة واضعين أيديهم خلف ظهورهم، يحاذون محيط الدائرة التي نجلس فيها تارة، ويعبرونها تارة أخرى، فتتجمّد الكلمات في حناجرنا.

كنت أنظر إلى أوغيستين الجالسة على المقعد بجانبي، مترقبة إقرارها بأنّ هذا الحلّ هو الوحيد المُتاح، ولا شيء غيره، بينما كانت ليني أبعد قليلاً، بحيث تصلني ثرثرتها مع إيلا وبيت. كانت إيلا تحاولُ إقناعها بتغيير تصفيفة شعرها، وهي تتحرّق شوقاً إلى تقمُّص دور الحلّاقة الذي استلذّته. أما بيت، فكانت تقول إنّها قرأت طالع هتلر قبل يومَين من ذلك -اعتماداً على خريطة الأبراج بعد أن تعذّر عليها الحصول على أوراق تاروت أخرى-، واكتشفت أن الأبراج تعاكسه. سيتعثّر حظّه قريباً، ربّما قبل الصيف القادم، وهو ما لم تصدّقه ليني التي راحت تهزّ رأسها.

أشرع أحد الحراس فمه. لا شكّ أنّه سمعنا: سيغلق علينا القاعة، ويجبرنا على الكلام. تمسّكتُ بمسند المقعد. عطسَ الرجل فيما يشبه الزمجرة حتّى أنّه فقدَ توازنه ومال إلى الأمام، ثمّ انتصب وأخرج منديلاً من جيبه وتمخّط.

t.me/qurssan

قالت هايكي:

- لا يوجد حلّ آخر.

أخذتها إلفريد إلى طبيب نساء، ولم تسمح لأحد بمرافقتهما.

قالت أوغيستين بتذمّر:

- يا له من تصرُّف أخرق! الوضع دقيق، قد تحتاج هايكي إلى المساعدة.

فقلتُ لتهدئتها:

- لنتكفّل نحن بماتياس وأورسولا خلال غيابها.

انتظرنا هايكي في بيتها مع الأطفال برفقة ليني. حاولتُ أن أهدها، لكنها كانت تسأل وتريد أن تفهم. كنت أخشى أن أصدمها، لكنّها استقبلت إجاباتي في الواقع دون أن يبدو عليها الجزع: مهما يكن، فوجع الآخرين أقلّ إيلاماً من وجعك.

لم تحضر بيت لأنّ هايكي لم تخبرها بالأمر، ربّما لأنّها أقدم صديقاتها، وكانت تشعر بالخزي أمامها. قد تلومها بيت على هذا التصرُّف، وقد تكون ممتنّة لها لأنّها جنّبتها عناء الانشغال بهذه المشكلة.

قضى ماتياس فترة ما بعد الظهر مع بِت، ابن أوغيستين، يتشاجران تارة، ويتصالحان أخرى.

قال بعد أن تعب من الألعاب الأخرى:

- من يراكِ أنتَ وأورسولا، يحسبكما فرنسا وإنجلترا، تُعلِنان الحرب عليّ.

فسألت أخته الصغيرة:

- أين تقع إنجلترا؟

t.me/qurssan

فقال بِت:

- كلا، لستُ فرنسا، أريد أن أكون ألمانيا.

كان في مثل سنّ ماتياس تقريباً، سبعة أعوام أو ثمانية، نا‍ عظمتي الكتف، نحيل الذراعَين. لو رزقتُ ولداً، لأحببت أن تكو عظمتا كتفَيه بارزتين، تتلألآن من العرق، مثل عظمتي أخي حين كا يمرح جارياً بين أشجار الصنوبر الحمراء في غابة غرونفالد قبل أ يرتمي في بحيرة شلاختنزي.

لو وددت ولداً لتمنيت أن تكون عيناه زرقاوين، تغضّنهـ الشمس.

سألتْ أوغيستين:

- لماذا ألمانيا؟

أجاب بِت:

- أريد أن أكون قوياً مثل الفوهرر.

تمطّقتْ وقالت:

- أنت لا تعرف شيئاً عن القوّة. لقد كان أبوك قويّاً، وها قد هلك.

امتقع الصبي وطأطأ رأسه: ما علاقة هذا بأبيه؟ لماذا تنكّد فجأة هكذا؟

- أوغيستين! قلتُ، ولم أستطع إتمام الكلام. نظرت إليها كتفان عريضتان مربّعتان محمولتان على كاحلَين دقيقَين. ولأوّل مرّ خيّل إليّ أنّهما من شدّة دقّتهما يمكن أن يتكسّرا.

انطلق بِت جارياً لكي يختبئ في الغرفة الأخرى، فتبعتـ وأورسولا في إثري. ارتمى على بطنه فوق سريره.

قالت أورسولا:

t.me/qurssan

- كُن أنتَ إنجلترا إن شئت. على كلّ حال، أنا لا أريد أن
ا. ا.ها.
لم يجب بِت.
سألته وأنا أداعب خدّه:
- ماذا تريد؟
كانت في الرابعة من العمر، في نفس سنّ بولين الآن. وشعرتُ
.وق جارف إلى بولين، إلى أنفاسها وهي نائمة. كنت قد نسيتها
.ماماً، كيف ينسى المرء الناس، ولا سيّما الأطفال؟
- أريد ماما، أين هي؟
فقلت مطمئنة:
- ستعود حالاً. ما رأيك في أن نفعل شيئاً معاً؟
- ما هو؟
- نغنّي أغنية.
وافقتْ في فتور.
- نادي على ماتياس.
امتثلت، وجلستُ على السرير.
- هل أنت غاضب يا بِت؟
لم يجب.
- غضبان؟
حرّك رأسه يميناً وشمالاً، وحشره في الوسادة.
- لستَ غضبان، أنتَ حزين إذاً؟
نظر إليّ بطرف عينه، فقلت:
- أنا أيضاً فقدت أبي مثلك. أفهم شعورك.
قام وجلس متربّعاً.

t.me/qurssan

- وزوجك؟

أنارت أشعة الشمس الغاربة وجهه، فبدا كمُصاب باليرقان.

لم أجد جواباً سوى أن رحت أغني: «Fuchs, du hast die Gans gestohlen» وأنا أميل برأسي يميناً ويساراً، وأرافق الإيقاع بإبهامي «Gib sie wieder her». من أين جاءني هذا المرح؟

دخلت أورسولا يتبعها ماتياس وأوغيستين، وجلسوا معنا على السرير، وغنيت الترنيمة التي حفظتها عن أبي كاملةً. ثمّ طلبت منّي الصبية أن أعيدها من البداية مرّة بعد أخرى إلى أن حفظتها هي أيضاً.

كان الليل قد خيّم حين سمعنا وقع أقدام في الشارع. لم يكن الطفلان قد ناما بعد، فاندفعا نحو الباب. كانت إلفريد تسندُ هايكي رغم أنّها تسير بلا عناء فيما يبدو. ارتمى عليها الطفلان، وراحا يتشبّثان بساقيها، فقلت:

- على مهلكما، كونا حذرَين.

همست أورسولا:

- أأنت متعبة يا ماما؟

سألت هايكي:

- لماذا لم تناما. الوقت متأخّر.

كانت وصيّة إلفريد الوحيدة قبل أن تنصرف هي: «ينبغي أن ترتاح».

- ألا تريدين فنجان شاي؟

- التجوال محظور يا روزا، ونحن قد تجاوزنا الوقت.

- نامي هنا أنت أيضاً.

t.me/qurssan

- كلا، ينبغي أن أعود إلى البيت.

بدت منزعجة، كما لو أنّها تكفّلت بهايكي على مضض. وقلت في نفسي: تنصحني بالاهتمام بشؤوني، وها هي تهتمّ بشؤون الآخرين.

لم تفصح هايكي عن المكان الذي يسكن فيه الطبيب، ولم تتفوّه باسمه. قالت إنّه قدّم لها شراباً لم يذكر مكوّناته وصرفها قائلاً إنّها لن تلبث أن تشعر بالتشنّجات. وقد اضطرّت فعلاً وهي عائدة إلى التوقّف في الغابة بحيث أسقطت قطعة لحم صغيرة. وبينما كانت تلتقط أنفاسها، دفنت إلفريد القطعة عند جذع شجرة قضبان. ثمّ أضافت هايكي:

- لا أذكر الشجرة. لن أستطيع العودة إليها أبداً.

كان ذلك ثمرة غلطة. إعطاء الحياة ونزعها ليسا عملاً إلهياً، بل إنسانياً. فغريغور الذي كان يرفض أن يكون مسؤولاً على قَدَر مخلوق آخر، وجد نفسه عالقاً في مشكل يتّصل بالمعنى، كما لو أنّ منح الحياة ينبغي أن يكون له معنى، مع أنّ الربّ نفسه لم يطرح هذه المسألة.

لقد أجهزت هايكي على ثمرة الغلطة. كنت غاضبة منها، وفي الآن نفسه مشفقة عليها. وأحسستُ بفراغ ينحفر في بطني، فراغ يلخّص كلّ الغيابات، بما فيها الطفل الذي لم نُرزَقه أنا وغريغور.

حين كنت في برلين، كنت كلّما التقيت امرأة حبلى، تتبادر إلى ذهني العلاقة الحميمية. كان الظهر المائل إلى الوراء، والساقان المنفرجان قليلاً، والراحتان الموضوعتان بإهمال فوق البطن

t.me/qurssan

المدوّر، كلّ ذلك يذكرني بالعلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة، ليست حميمية المعاشرة، ولا حميمية العشّاق. يذكّرني باللّعونتين اللتين تتمدّدان ويسودُّ لونهما، وبالكاحلين اللذين ينتفخان. كنت أتساءل عمّا إذا كان غريغور سيرتعب من التحولات التي ستصيب جسدي، وما إذا كان سيتوقّف عن اشتهائه. ما إذا كان سيشمئزّ منه

شخص دخيل يستقرّ في جسد زوجتك ويشوّهه، يكيّفُه وفقاً لحاجياته الأنانية، ويعبره باندفاع لم تشهده قطّ: لقد وصل حيث لن تصل أنت أبداً. هو من سيتملّكها إلى الأبد.

ومع ذلك فهذا الدخيل من صُلبك. فداخل زوجتك، بين المعدة والكبد والكليتين، كبُر شيء هو ملك لك.

تساءلتُ: لو أنّني حبلت، أكان زوجي سيستحمل الغثيان والتبوّل المتكرّر واقتصار الجسم على وظائفه الأساسية.

هذه العلاقة الحميمية لم يُكتب لنا أن نعيشها معاً لأنّنا أُجبرنا على الفراق مبكّراً. ربّما لن أهبَ جسدي أبداً لخدمة شخص آخر، لخدمة حياة شخص آخر. لقد حرمني غريغور من هذه الإمكانية. لقد خدعني. كان الأمر ككلب وفيّ يهاجم صاحبه فجأة من دون سابق إنذار. منذ متى لم أشعر بأصابعه على لساني؟

هايكي تجهض وأنا أتوق إلى ولد من رجل مفقود في روسيا.

لن يصل ربّما قبل منتصف الليل، أيّ حتى يكون واثقاً من أنّ لا أحد مستيقظ سواي. كان يعلم أنّني سأنتظره. أيّ قوة كانت تجذبني إلى النافذة، وأيّ قوّة تقوده إلى هناك حيث يحاول على نحو ملتبس تبيُّن هيئتي في الظلام الدامس؟

كان الزجاج وقاءً حامياً يخفّف من واقعية هذا الملازم الصامت

t.me/qurssan

الذي يكتفي بالوقوف طويلاً وفرض وجوده في مكان خارج متناول يدي. لا يكاد يصل ويصير أمراً واقعاً حتّى لا أعود أملك خياراً آخر غير النظر إليه. وحتى لو أطفأت النور، أظلُّ أشعر بوجوده، يجفوني النوم. كنت أنظر عاجزة عن تقدير العواقب، لأنّ المستقبل كان يبدو مبتوراً. وقد استطبت هذا الجمود.

كيف علم أنّني كنت سأستيقظ ليلة الحفل؟ أتُراه خمّن سُهادي؟ ام تصرّف هو أيضاً بحسّ المسرنم الواثق؟

كانت لا مبالاته بي في كراوزندورف مطلَقة، وكنت كلّما سمعت صوته، يشلّني الذعر. وهو أمر لم تتفطّن له أيّ من النسوة. كنّ يعتقدن أنّ ذعري كذعرهنّ. ذعر يستبدّ بالحرّاس والذائقات على حدّ سواء، بل أصاب كرومل نفسه ذات صباح، إذ خرج صافقاً الباب خلفه مقتنعاً بأنّ لكلٍّ صلاحياته التي لا ينبغي أن يتعدّاها: إدارة المطبخ شأنه هو، ولا تعني غيره. كان ذعره من الحرب يتزايد كلّما ازداد الوضع سوءاً، وازدياد صعوبة وصول المؤن. إن كان نقص المؤن يهدّد حتّى الأرياف وفولفشانزي، فمعنى ذلك أنّ الوضع كارثيّ. وددتُ لو أسأل كرومل عن الأخبار، لماذا لم نعد نأكل الكيوي وإجاص ويليامز والموز؟ لماذا كان يطبخ دائماً الأطباق نفسها، ويقدر أقلّ من الإلهام؟ لكنّه بعد حادثة الحليب، لم يعد يكلّمني.

عندما كان زيغلر ينصرف عند الفجر، من دون إشارة في البداية، ثمّ بإيماءة خفيفة من يده مودّعاً، أو بهزّة من كتفيه، كنت أشعر بنفسي محطّمة. كان غيابه يخيّم على غرفة غريغور، ويتمدّد إلى أن يدفع الأثاث إلى الجدار، ويحاصرني. وعند تناول وجبة الفطور،

t.me/qurssan

أعود إلى حياتي الواقعية أو بالأحرى ما يشبه حياتي الواقعية، عدا
فقط، وبينما يرتشف جوزيف شايه على نحو صاخب، تحرّك ز
ساعده منبّهة، فيتأرجح الفنجان وترتسم على غطاء المائدة
فاتحة، عندئذ فقط أتذكّر غريغور: سأثبّت ستارة على فتحة النافذ
وأربط نفسي إلى السرير إلى أن ييأس زيغلر، ويكفّ عن المجي
لكن ما إن يحلّ الليل حتى يختفي غريغور، لأنّ العالم نفسه يختفي
وبذلك تبدأ الحياة وتنتهي عند مسافة نظرتي إلى زيغلر.

خلال الأسابيع التي تلت عملية الإجهاض، أخذتُ بعض
الاحتياطات مع إلفريد.

غالباً ما يفرّق السرّ المشترك بين شخصَين عوض أن يوحّدهما
والخطأ حين يكون مشترَكاً، يبدو كمهمّة يندفع فيها المرء اندفا
أعمى. على أنّه إذا كان الخطأ المشترَك عديم الشكل، فالخز
شعور فردي.

لم أخبر رفيقاتي بزيارات زيغلر ووقوفه تحت نافذتي حتّى لا
أشركهنّ في عبء الشعور بالخزي، وحتّى أحمله بمفردي. أو ربّما
تجنُّباً لانتقادات إلفريد، وسوء فهم ليني، وثرثرات الأخريات. ا
لأنّ ما يقع بيني وبين زيغلر كان من اللازم أن يظلّ طاهراً.

حتّى هايكي لم أحدّثها بالأمر، رغم أنّها أسرّت لي ذات ليلة
بينما أخذت أوغيستين الطفلَين إلى الغرفة لكي يناما، وغفت ليني
بأنّ الجنين المجهض كان ولداً.

- تقصدين أنّك شعرت بأنّك كنت ستلدين ولداً؟

- كلا، لا أقصد ما كان ببطني قبل ساعات.

ابتلعت ريقي. لم أفهم قصدها.

t.me/qurssan

ثمّ أضافت:

- أقصد الأب. فتى. صغير السنّ. هو الخادم الذي يساعدنا. لمّا رحل زوجي، هو من تكفّل بالحقول. خادم مثابر ومسؤول رغم أنّ عمره لم يجاوز السابعة عشرة. لست أدري كيف فعلتها...

- وماذا قال عن الحمل الذي تسبّب فيه؟

- لا شيء. لم أخبره بشيء. والآن لا يوجد شيء أخبره به: انتهى الحمل.

كنت أنصت لها وهي تفصح عن مكنون نفسها دون أن أفصح لها أنا عمّا في نفسي.

في السابعة عشرة من عمره، أي يصغرها بإحدى عشرة سنة.

كانت العصافير تزقزق في سماء شهر مايو، ومع ذلك شعرت بالضيق من السهولة التي نزلَ بها الجنين بين فخذي هايكي مستسلماً للإجهاض.

كان ربيعاً بارداً متقلّباً، يخيّم عليه غمّ لا متنفّس له ولا فرج.

كانت إلفريد تدخّن وهي مسندة ظهرها إلى الجدار، مطأطئة رأسها، فعبرتُ الساحة ولحقتُ بها.

بادرتني:

- ماذا جرى؟

- كيف حالك؟

- وأنت؟

- هل تذهبين معنا إلى بحيرة موي بعد ظهر غد؟

كان عمود رماد سيجارتها يكبر إلى أن سقط وتفتّت.

- أذهب.

t.me/qurssan

رافقتنا أيضاً ليني بسروال السباحة الأسود وبشرتها الناعمة، وإلفريد بجسمها المهزول الخشن. وقد أصابتنا طريقة غطس ليني بالذهول: كنّا متلهّفات إلى غسل -على الأقل أنا- كلّ ما على بشرتنا. وتخلّصتْ حركاتها من كلّ خرق مثلما تخلّصت بشرتها حين تبلّلت من كلّ ما هو أرضي. لم يسبق لي أن رأيتها بمثل تلك الثقة في النفس. «ألا تأتين؟»، وارتسمت على وجنتيها الشفّافتين أجنحة فراشات: اهتزّت قليلاً وطارت.

قلت لإلفريد على سبيل الدُّعابة:

- أين كانت ليني تخفي كلّ هذا؟

ردّت وهي تحدّق في نقطة لم تكن هي ليني ولا البحيرة، نقطة لم أكن أراها.

- كان مخبوءاً.

شعرت بردّها كما لو أنّه تُهمة موجّهة إليّ.

ثمّ أضافت:

- لا تبدو الأشياء أبداً كما هي، وهذا أمر يصدق على كلّ البشر.

وغطست.

t.me/qurssan

20

ذات ليلة نزعتُ ملابسي.

فتحت الخزنة واخترت فستان سهرة كانت هيرتا قد انتقدته. ليس الفستان الذي ارتديته في حفل القصر. مشّطتُ شعري وتزيّنت رغم أنّ زيغلر لن يلاحظ ذلك في الظلمة على الأرجح. لم أعر ذلك أهميّة. وبينما كنت أمشّط شعري وأضع البودرة على خدّي، اكتشفت من جديد التوتّر الذي يسبّبه انتظار موعد. كانت هذه الاستعدادات من أجله، من أجله هو الذي يقف قُبالة نافذتي كما لو أنّه يقف أمام هيكل يمنعه الحياء من تدنيسه. أو لعلّها طريقته في مواجهة أبي الهول: أن يقف بحضرتي. لم أكن أملك لغزاً، ولا حتّى حلاً. لو كنت أعرفهما لما تردّدت في الإفضاء بهما إليه.

جلست أمام النافذة وقد أوقدت المصباح، وما إن وصل حتّى نهضت. تهيّأ لي أنّني رأيته يبتسم، وهو ما لم يفعله قطّ.

كنت في العادة إذا ما سمعت ضجّة في البيت أسارع إلى إطفاء المصباح فيختبئ. وما أن أعيد إشعال النور حتّى يظهر من جديد. كان ضوء المصباح ضعيفاً لأنّني كنت أغلفه بمنديل بسبب حالة الطوارئ المعلَنة. وكان بوسع أيّ كان أن يباغتنا. آويت إلى السرير مخافة أن تدخل هيرتا -ولكن لماذا كانت ستدخل؟-. وذات يوم

t.me/qurssan

غلبني النوم: أرهقني التوتّر. لست أدري كم ظلّ ينتظر قبل أن ينصرف. ورغم أنّ عناده فيه شيء من الضعف، فقد كان له سُلطان عليّ.

وبعد مرور شهر بالتمام على حفل القصر، خفضت ضوء المصباح دون أن أسمع أيّ ضجّة. سِرتُ على أطراف قدمي الحافيتَين لكي أكتم وقع خطواتي، وفتحت الباب. تأكّدت من أنّ هيرتا وجوزيف نائمَين، وتوجّهت إلى المطبخ، ثمّ خرجت من الباب الخلفيّ. طُفت على المنزل باتّجاه نافذتي، فوجدته مقرفصاً ينتظر إشارة. بدت لي هيئته صغيرة.

تراجعتُ، فخانتني ركبتي اليمنى. قام زيغلر من مكانه بقفزة واحدة، ووقف أمامي ببزّته دون أن يفصل بيننا حاجز النافذة، فتملّكني الخوف منه كما كان يحصل في الثكنة. على أنّ الدهشة سرعان ما تبدّدت، فبدا الواقع عارياً. وألفيت نفسي أمام الجلّاد بلا حول ولا قوّة، مع أنّني أنا من سعيت إليه.

تقدّم منّي وأمسك بذراعي. حشر أنفه في شعري وراح يتشمّمه، وشعرت أنا أيضاً برائحته.

دخلتُ إلى مخزن الحبوب، فتبعني. لم أكن أرى زيغلر، كنت أسمع أنفاسه. وهدّأتني رائحة الخشب الطريّة المألوفة. جلست، ففعلَ مثلي.

لم نكن نبصر شيئاً بسبب الظلام الحالك. استسلمنا لحاسة الشمّ، وراح كلّ منّا يتخبّط وهو يتحسّس جسد الآخر.

بعد ذلك لم يصرّح أيّ منّا بضرورة حفظ هذا السرّ، لكنّنا

t.me/qurssan

..رفنا كما لو أنّنا تعاهدنا على ذلك. كنّا معاً متزوّجَين، وإن كنت ا أعيش بلا زوج. كان هو ملازماً في الشرطة العسكرية: ماذا لو ..شفوا علاقته بإحدى الذائقات؟ لن يقع شيء ربّما، وقد يكون ذلك محظوراً.

لم يسأل لماذا أتيت به إلى المخزن، ولم أسأله لماذا اختارني أنا. كانت عيوننا قد أَلِفَت الظلمة حين اقترح عليّ أن أغنّي له. كانت تلك هي الكلمات الأولى التي خاطبني بها. ورحت أغنّي همساً وقد ألصقتُ فمي بأذنه. غنّيت الترنيمة التي سلّيت بها ابنة هايكي ليلة الإجهاض. الأغنية التي حفظتها عن أبي.

تذكّرت وأنا عارية في المخزن ذلك العامل بالسّكك الحديدية الذي لا يلين، والذي كانت تصفه أمّي بالعنيد المتجاهِل لما يدور حوله. ماذا لو علم أنّني أشتغل الآن مع هتلر؟ لو عاد من مملكة الأموات وحاسبني، لكنت أجبته أنّني لا أستطيع الرفض، ولكان صفعني لأنّني خنت مبادئه. كان سيقول لي: **نحن أناس لم نؤيّد النازية قطّ**. كنت سأضع كفّي على خدّي مرعوبة، وأجهشُ بالبكاء معلنة أنّ الأمر لا يتعلّق بالانتماء إلى النازية أو عدم الانتماء، وأنّ السياسة لا دخل لها في الأمر، وأنّني لم أمارس السياسة قطّ. ثمّ إنّ عمري سنة 1933 لم يكن يتجاوز السادسة عشرة، ومن ثمّة فلست أنا من انتخبته، ولصرختُ في وجه أبي: **أنت مسؤول عن هذا النظام بتساهُلك. إنّ حياة المرء محكومة بقوانين الدولة التي يعيش فيها، حتّى لو كان ناسكاً منقطعاً للعبادة. هذا أمر لا يستعصي على الفهم. كلا يا روزا، لستِ معصومة من الخطأ السياسي**. كانت أمّي ستتوسّل إليه قائلة: **دعها عنك!** كانت ستعود هي الأخرى مرتدية معطفها القديم على قميص النوم دون أن تكلّف نفسها العناية

t.me/qurssan

بمظهرها. كانت ستقاطعه قائلة: دعْ هواجسها تنهشها. وكنت سأجيبها لكي أثير حفيظتها: أنت تلومينني لأنّني عاشرت رجلاً آخر، أليس كذلك؟ أمّا أنت يا أمّاه، فما كنت لتفعلي ذلك قط وكان أبي سيكرّر: لستِ معصومة من الخطأ يا روزا.

عشنا اثنتي عشرة سنة تحت حكم استبدادي دون أن ننتبه إلى ذلك. ما الذي يمكّن البشر من العيش تحت حكم استبدادي؟

كان عذرنا هو أنّنا لا نملك خياراً آخر. ما كنت مسؤولة إلّا عن فعل لا يؤذي أحداً وهو الأكل. فكيف يمكن اعتباره ذنباً؟ أكانت الأخريات يشعرن بالخزي من بيع أنفسهنّ نظير مئتي مارك في الشهر، وهو أجر ممتاز، ناهيك عن الوجبات الفاخرة؟ أتُراهنّ كنّ يعتقدن، مثلما اعتقدت، أنّ التضحيّة بالنفس إن لم تكن لها فائدة، لا جدوى منها؟ كنت أشعر بالخزي أمام أبي رغم أنّه ميت، لأنّ الخزي بحاجة إلى رقيب لكي يتجلّى. كنّا نقول: ليس أمامنا من سبيل آخر. أمّا مع زيغلر، فالأمر مختلف. عوض أن أختار ذلك السبيل الآخر، وجّهت خطواتي نحوه لأنّني كنت قادرة على الذهاب حتّى هنالك، حتّى ذلك الخزي المصنوع من الأوتار والعِظَام واللُّعاب. حضنته بين ذراعَي. كان طوله متراً وثمانين سنتيمتراً على الأقل، ووزنه ثمانية وسبعون كيلوغراماً على الأكثر. لم أعبأ بالبحث عن الذرائع والتبريرات، ولذتُ بطمأنينة اليقين.

– لماذا توقّفت عن الغناء؟

– لست أدري.

– ماذا بك؟

– هذه الأغنية تثير أشجاني.

t.me/qurssan

- بإمكانك أن تغني غيرها، أو لا داعي للغناء إن لم تكوني راغبة. يمكن أن نلزم الصمت، وينظر بعضنا إلى بعض في الظلام. نحن نعرف كيف نفعل ذلك.

لمّا عدت إلى الغرفة المغمورة بصمت نوم هيرتا وجوزيف، امسكت برأسي بين يدي غير قادرة على استساغة ما جرى. وتملّكني انتشاء خفيّ. لم أشعر قطّ بمثل تلك الوحدة التي شعرت بها تلك الليلة، لكنّني اكتشفت في تلك الوحدة قدرتي على التحمُّل. وبينما كنت جالسة على سرير غريغور في طفولته، رحتُ أحصي أخطائي وأسراري، مثلما كان يحصل لي في برلين قبل أن أتعرّف إليه. وقلت في نفسي: هكذا أنا دائماً، لا يستطيع أحد أن ينكرني.

t.me/qurssan

21

عكسَت المرآة في ضوء الصباح وجهاً منهَكاً. لم يكن ذلك بسبب السُّهاد. كانت الهالتان السوداوان المحيطتان بعينيّ إيذاناً بهذا القلق الجديد الحادّ الذي انتابني في الصباح كنبوءة تحقّقت أخيراً على الصورة المثبتة في إطار المرآة، رأيت الطفل المتجّهم يؤنّبني.

لم يلحظ جوزيف وهيرتا شيئاً. ما أبلد ثقة البشر! وهو أمر ورثه غريغور عن والدَيه الساذجَين -زوجة ابنهما تخرج ليلاً وهما ينامان ملء جفونهما-، وألقى عليّ هذه المسؤوليّة الثقيلة الآن بعد أن تركني وحيدة.

كنت متلهّفة للانصراف ولم يلبث أن خلّصني بوق الحافلة من هذا العناء. كنت خائفة من ملاقاة زيغلر، ينتابني شعور أشبه بشوكة اندسّت تحت ظفري، لكنّني أستطيبها.

قدّموا لي في المطعم علاوة على الفطور تحلية. حلوى تعلوها ملعقة لبن رائب، بدت عذبة تفتح النفس، لكنّ معدتي كانت متشنّجة بحيث وجدت صعوبة في ابتلاع حساء الطماطم.

- ألم تعجبك، أيّتها البرلينية؟

استجمعتُ قواي وقلت:

t.me/qurssan

- لم أذقها بعد.

قطعت إلفريد ما بقي من حلواها بالشوكة.

- كلي، إنّها رائعة.

فقالت أوغيستين:

- وهل تملكُ خياراً آخر؟

ردّت إلفريد:

- ما أشقّ ألّا يملك المرء الاختيار بين أكل الحلوى وعدم أكلها بينما الناس يموتون جوعاً.

همست إيلا:

- هلّا أعطيتني قليلاً لأتذوق؟

لم تحصل على تحلية ذلك اليوم، لكنّهم قدّموا لها بيضاً وهريسة بطاطس. فالبيض من أطعمة الفوهرر الأثيرة. يحبّه مرشوشاً بالكمون. وداعبت رائحته الحلوة خيشومي.

حاولت أوغيستين أن تردعها:

- اصمتي وإلا بلّغن عنك.

استرقت إيلا النظر نحو المسعورات. كنّ عاكفات على صحونهنّ يأكلن الريكوتا والجبن الأبيض، يغمس بعضهنّ الجبن في العسل. فقالت: «هيّا!»، أعطيتها خلسة قطعة صغيرة من الحلوى أخفتها في راحتها، ولم تضعها في فمها إلا حين استيقنت من أنّ الحرّاس لاهون.

كانت شمس الزوال تنشر أشعّتها على المنازل المجاورة للثكنة، فارضة الصمت على العصافير والكلاب الضالة. قالت إحداهنّ: لندخل، فالحرّ شديد. علّقت أخرى: حرّ غير مألوف في شهر

t.me/qurssan

يونيو. ورأيت رفيقاتي يتحرّكن بكسل في ذلك الجوّ الثقيل، فقمتُ بدوري، وخيّل إليّ وأنا أخطو كما لو أنّني أنزل درجاً في كلّ خطوة أخطوها، فأترنّح. رُحتُ أحملق لعلّ رؤيتي تتضّح. كان الجوّ قائظاً على نحو غير عادي ونحن لا نزال في شهر يونيو. أحسستُ بضغطي ينخفض، فتشبّثت بسلسلة الأرجوحة الحارقة، وإذا بالغثيان يلوي معدتي. لم يكن في الساحة غيري بعد أن دخلت كلّ رفيقاتي، وانتصبت أمامي هيئة لم أتبيّن ملامحها بسبب أشعّة الشمس التي غشت بصري. انقلبت الساحة في عيني رأساً على عقب، وتراءى لي طائر ينزل وهو يخفق بجناحَيه بقوة. وعند عتبة الباب، أبصرت زيغلر واقفاً، ثمّ اختفى كلّ شيء.

لمّا استعدت وعيي، ألفيتُ نفسي مستلقية على الأرض في المطعم. كان وجه أحد الحرّاس يحجب عنّي السقف. فارَ القيء من جوفي، فسارعتُ إلى الاعتماد على مرفقي وإدارة رأسي إلى الجانب. وبينما كنت أشعر بجسدي ينضح عرقاً بارداً، رحتُ أقاوم تشنّجات معدتي، وإذا بدفق لاذع يحرق جوفي من جديد.

سمعتُ الأخريات ينتحبن دون أن ألمح دموعهنّ. إذا كان من السهل تعرُّف الضحكات وتمييزها: قهقهات أوغيستين، واختلاجات ليني المبتهجة، وغُنّة إلفريد، وضحك إيلا المتقطّع، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الدموع. فنحن نتشابه في البكاء، لأنّ الصوت الذي نصدره جميعاً يكون واحداً.

انتابني الدوار، ولمحت جسداً آخر ممدّداً بينما النسوة واقفات بمحاذاة الجدار. تعرّفتهنّ من أحذيتهنّ. نعلا إيلا العاليان، المسامير البارزة من حذاء هايكي الخشبي، كعبا ليني المتآكلان.

t.me/qurssan

تركت ليني الجدار واقتربت منّي:
- روزا.
لوّح أحد الحرّاس بيده.
- الزمي مكانك.
قال الرجل الفارع مذهولاً وهو يذرع القاعة:
- ماذا سنفعل؟
فأجاب الحارس:
- أمرَ الملازم أن نحتفظ بهنّ جميعاً هنا، وألا نسمح لهنّ بمغادرة القاعة، حتّى من لم تظهر عليهنّ الأعراض بعد.
قال الرجل الفارع:
- لقد أغمي على امرأة أخرى.
التفتّ لأتفحّص الجسد الممدّد. إنّها تيودورا.
- ابحث عمن ينظّف الأرضية.
قال الرجل الفارع:
- هاتان المرأتان تحتضران.
فهتفت ليني مرعوبة:
- كلا، يا إلهي. نادوا على طبيب، أرجوكم.
فنهرها الحارس:
- ألا تستطيعين إغلاق فمك قليلاً؟
طوّقت إيلا كتفَيْ ليني بذراعها، وقالت:
- اهدئي.
فصرخت ليني:
- ألم تسمعي؟ سنموت.

t.me/qurssan

بحثتُ عن إلفريد. كانت جالسة على الأرض في الجانب الآخر من القاعة، وحذاؤها عائم في بركة لونها ضارب إلى الصفرة.

لم تكن النساء الأخريات بعيدات عنّي، وكان نحيبهنّ وأصواتهنّ اللاهثة تضاعِف من وعكتي. لم أعرف من نقلني من الساحة إلى القاعة، وتركني مستلقية على الأرض في هذا المكان. لعلّه زيغلر؟ أكان واقفاً فعلاً عند عتبة الباب، أم هي مجرّد تهيّؤات؟ مهما يكن، فقد كنت في جانب القاعة الذي اعتدنا التجمّع فيه. كانت رفيقاتي محتشدات، بدافع الغريزة ربّما، في مكان واحد. فالإنسان لا يطيق أن يجد نفسه وحيداً لحظة الاحتضار. لكنّ إلفريد انفصلت عنهنّ، وانزوت في ركن واضعة رأسها بين ركبتَيها. ناديتها وأنا لا أعرف ما إذا كان صوتي سيصلها وسط صراخ النساء: **أخرجونا من هنا، نادوا على الطبيب، أريد أن أموت في سريري، لا أريد أن أموت.**

ظللتِ أناديها، لكنّها لا تجيب. وقلت متوسّلة وأنا لا أعرف من أخاطب على وجه التحديد: «أرجوكم، تأكّدوا من أنّها لا تزال على قيد الحياة». ربّما خاطبتُ الحرّاس الذين لم يكونوا يأبهون بكلامي. وغمغمتُ:

- أرجوك يا أوغيستين، اذهبي إليها واحمليها إلى جانبي.

لماذا كانت إلفريد تتصرّف بذلك النحو؟ أكانت ترغب في أن تموت بمنأى عن الأنظار كالكلاب؟

كان الباب المفضي إلى الساحة مغلَقاً، وأحد الحرّاس يراقبه من الخارج. وسمعت صوت زيغلر. كان قادماً من الممرّ أو من المطبخ. لم أستطع تبيُّن كلامه بين التضرّعات المتعالية في القاعة، ووقع الأقدام التي تذرع الشكنة. لكنّني كنت واثقة من أنّ الصوت

t.me/qurssan

موته. كان الخوف من الموت مثل مستعمرة حشرات تدبّ تحت جلدي. وتركت نفسي أسقط على الأرض من جديد.

حضر مساعدو كرومل ومسحوا الأرضية، فضاعفت الرطوبة حدّة الرائحة العفنة. نظّفوا الأرض دون أن يحفلوا بتنظيف وجوهنا وملابسنا. تركوا سطلاً، ونشروا أوراق جرائد على الأرض، ثمّ غادروا. وأغلق الحرّاس الباب بالمفاتيح.

ارتمت أوغيستين على المقبض، وحاولت عبثاً فتحه. «لماذا أغلقتم علينا ها هنا؟ ماذا ستفعلون بنا؟».

اقتربت رفيقاتي من الباب بحذر وقد شحبت شفاههنّ، وامتقعت وجوههنّ: «لماذا حبسونا هنا؟» حاولت أنا أيضاً أن أقوم وأنضمّ إليهنّ، لكنّ قواي كانت خائرة.

وجّهت أوغيستين ركلة إلى الباب، وتبعتها الأخريات يضربنه براحاتهنّ وقبضاتهنّ، بينما مضت هايكي تضربه برأسها بلُطف وانتظام، مستسلمة ليأس لم أنتظره منها. في الجانب الآخر من الباب، تعالى نباح الحرّاس بتهديد ووعيد صَرَف النسوة عمّا هنّ فيه باستثناء أوغيستين.

هبّت ليني إليّ وجثت على ركبتيها بجانبي. لم أكن قادرة على الكلام. جاءت تبحث عن المواساة. قالت:

- وقع ما كنّا نخشاه. لقد سمّمونا.

فاستدركَت سابين مصحّحة، وكانت عاكفة على جسد تيودورا الممدّد:

- قولي سمّموهما. لم يظهر عليك ولا عليّ أيّ عرض.

فصرخت ليني:

- هذا غير صحيح. فأنا أشعر بالغثيان.

t.me/qurssan

بادرتها ساپين:

- لماذا يطعموننا أطباقاً متباينة؟ لماذا يوزّعوننا إلى مجموعات؟ فكّري قليلاً أيّتها البليدة.

تركَت أوغيستين الباب لحظة واستدارت نحوها وقالت:

- صحيح، ولكنّ صديقتك -وأومأت بذقنها إلى تيودورا- تناولت سلطة الشَّمَر والجبن بينما أكلت روزا حساء الطماطم والحلوى، ومع ذلك أغمي عليهما معاً.

شعرت بغثيان جعلني أنثني، فأمسكت ليني بجبيني. حدّقت في فستاني الملطّخ، ثمّ رفعت رأسي.

جلست هايكي إلى المائدة وقد وضعت وجهها بين راحتيها، وراحت تقول بصوت أشبه بالترتيل:

- أريد أن أعود إلى طفلَيّ. أريد أن أراهما.

قالت أوغيستين:

- ساعديني إذاً لكي نكسّر هذا الباب، تعالي ساعديني!

فتنهّدت بيت وهي تقول:

- سيقتلوننا.

نهضت هايكي من جديد، ولحقت بأوغيستين، لكن عوض أن تساعدها في كسر الباب، مضت تصرخ:

- أنا بخير، لم أتسمّم، هل تسمعون؟ أريد أن أخرج!

شعرتُ بالدم يتجمّد في عروقي. لقد جهرت هايكي بفكرة كانت تراود كلّ واحدة منّا. فنحن لا نأكل الطعام نفسه، ومن ثمّة لم يكن ينتظرنا المصير نفسه. مهما كان الطَّبَق المسموم، فبعضنا سيموت بينما سينجو البعض الآخر.

قالت ليني وهي غير واثقة من أنّها نجت:

t.me/qurssan

- لا شكّ في أنّهم سيوفدون طبيباً. بإمكانهم إنقاذنا.

وتساءلتُ في قرارة نفسي عمّا إذا كان الطبيب يتوفّر على الوسائل لإنقاذنا.

قامت إلفريد وقالت:

- سيّان عندهم أن نموت أو نحيا.

ثمّ أضافت وقد بدا وجهها الجامد كما لو أنّه يتداعى:

- إنّهم يهزؤون بمصيرنا. كلّ ما يعنيهم هو أن يعرفوا أيّ طبق سمّمنا. يكفي أن يشرّحوا واحدة منّا غداً، ويكتشفوا ذلك.

قالت ليني:

- إن كانت واحدة منّا تفي بالغرض، فلماذا يحتجزوننا هنا جميعاً؟

لقد تفوّهت بفظاعة أخرى دون أن تنتبه. ثمّ أضافت:

- لنضحِّ بإحدانا إن كان في ذلك نجاة للأخريات.

كيف ستختارها؟ أتختار الأضعف، من ظهرت عليها أخطر الأعراض؟ امرأة لا تعيل أُسرة؟ وافدة على القرية؟ أو ببساطة امرأة لا تربطها بها صداقة؟ أم تراها ستسحب واحدة بالقُرعة، وتترك القرار للقدر؟

لم يكن لديّ أطفال، وأنا وافدة من برلين وعاشرت زيغلر، لكنّ هذا أمر لم تكن تعرفه ليني. لم تكن تدري أنّني أنا من تستحقّ الموت.

وددت لو أصلّي، لكن ذلك لم يعد من حقّي. فقد توقّفت عن الصلاة منذ أشهر، منذ نزعوا منّي زوجي. سيجلس ذات يوم ربّما أمام المدفأة في منزله الريفي الروسي، سيحملق ويقول للدمية

t.me/qurssan

الروسية: أخيراً تذكّرت! توجد في مكان بعيد امرأة أحبّها، ينبغي أن أعود إليها.

لا أريد أن أموت إن كان لا يزال على قيد الحياة.

لم يستجب الحرّاس لنداء هايكي، فابتعدَت. سألتها بيت كما لو أنّها تعرف ما يخطّطون له:

– ما نواياهم؟ ماذا سيفعلون بنا؟

لم تجب هايكي. فقد حاولت النجاة بنفسها، بنفسها فقط. وبينما لاذت بالصمت بعد أن فشل مسعاها، تكوّمت ليني تحت المائدة، وراحت تردّد أنّها تشعر بالغثيان، وأدخلت إصبعَين في جوفها، فندّت عنها أصوات مخنوقة، لكنّها لم تقيء شيئاً. أمّا تيودورا، فاستمرّت تهتزّ على الأرض واضعة رأسها قرب رُكبتَيها كالجنين وسابين تساعدها بينما أختها غيرترود تلهثُ وإيلا تشعر بصداع في رأسها وأوغيستين ترغب في الذهاب إلى المرحاض. حاولَت أن تقنع إلفريد بأن تستلقي بجانبي: «سأساعدك»، لكن إلفريد رفضت بفظاظة. انعزلت في ركن وراحت تتلوّى من جديد بسبب الغثيان. مسحت ذقنها بظهر راحتها، وتكوّمت على جنبها. أمّا أنا فكنت منهكة وقلبي يخفق ببطء.

لم أعد أذكر كم مضت علينا من ساعة ونحن على تلك الحال. كلّ ما أذكره هو اللحظة التي انفتح فيها الباب.

ظهر زيغلر يتبعه رجل وشابّة بوزرة بيضاء. نظرات جادّة ومحفظتان صغيرتان سوداوان. ماذا تحويان يا ترى؟ قالت ليني: نادوا على طبيب. ها قد وصل. حتّى هي لم تكن قادرة على أن تصدّق أنّه أتى من أجل إنقاذنا. المحفظتان موضوعتان على المائدة.

t.me/qurssan

المطقة انفتاحهما. كانت إلفريد على حقّ. لم يكونوا ينوون مدّنا بالدواء، ولم يحفلوا بإعطائنا ماء، وأخذ حرارة أجسامنا. كلّ ما عملوه هو أنّهم أغلقوا علينا في هذا المكان بانتظار أن يروا كيف سيتطوّر الوضع. كانوا يسعون إلى معرفة سبب البلاء الذي يفتك ببعضنا. لعلّهم اكتشفوه، ومن تسمّم لم يعد يعنيهم في شيء.

بقينا متسمّرات في أماكننا كفرائس أمام مفترسيها. ألم يقل زيغلر: **لسنا بحاجة إلى ذائقات لا يذقن الطعام؟** إن لم يكن من الموت بدّ، فمن الأفضل أن نموت على الفور لكي تُنظّف القاعة وتُطهّر، وتُفتح النوافذ ليتجدّد الهواء. أليس في تقليص وقت الاحتضار رحمة بالمحتضر؟ هذا أمر مألوف مع البهائم، فلم لا يفعلونه مع البشر؟

انتصب الطبيب أمامي، فقلتُ وقد انخلع قلبي:

- ماذا تريد؟

التفت زيغلر وسمعني أصرخ في الطبيب:

- لا تلمسني.

أحنى عليّ زيغلر وأمسك بذراعي. لم يكن يبعد عن وجهي إلا ببضع سنتيمترات، مثلما وقع في الليلة السابقة. كان بوسعه أن يشمّ رائحتي العفنة. لن يُقبّلني.

- اسكتي، افعلي ما تؤمرين.

ثمّ قال وهو ينهض:

- صه جميعاً!

كانت ليني تحاول أن تتكوّم ما وسعها تحت المائدة كما لو أنّها ستتقلّص بذلك وتصبح في حجم منديل يمكن إخفاؤه في جيب. جسَّ الطبيب نبضي، ورفع جفني، ووضع السمّاعة على ظهري

t.me/qurssan

وأنصت إلى أنفاسي، ثمّ انصرف ليفحص تيودورا. غسلت الممرّضة جبيني بقطعة قماش مبلّلة، وناولتني كأس ماء.

قال الطبيب وهو يغادر، تتبعه الممرضة وزيغلر:

- كما قلت لك، أنا بحاجة إلى قائمة تبيّن ما أكلت كلّ منهنّ.

ثمّ أُغلِق الباب بالمفتاح من جديد.

تفاقم شعوري بالتنمّل تحت جلدي. أنا وإلفريد شربنا الحساء وأكلنا الحلوى الشهيّة، وبذلك كان ينتظرنا معاً المصير نفسه. قد يكون ما حلّ بي عقاباً نظير ما فعلت مع زيغلر، لكنّ إلفريد، ما ذنبها؟

هزّت كياني موجة غثيان من جديد، فتقيّأت الطعام الذي لم يأكله هتلر. أكان ذلك الأنين المبحوح المتوحّش صادراً عنّي؟ ماذا بقي من إنسانيّتي؟

وتذكّرت فجأة ما قال غريغور في رسالته الأخيرة، فأحسست بما يشبه الانفجار يهزّ كياني: أتصدُقُ المعتقدات الخرافية أيضاً على الجنود الألمان؟ **طالما أنّ زوجتك وفيّة لك، لن تموت.** كتبَ: **لا يسعني إلا أن أعوّل عليك.** بيد أنّني لم أكن من نوع النساء اللواتي يعوّل عليهنّ. لم يتفطّن لذلك ووثق بي، فكان مصيره الموت.

مات غريغور جرّاء خطئي. تباطأت دقات قلبي أكثر، انحبست أنفاسي، وثقل سمعي، وعمّ الصمت، ثمّ توقف قلبي.

t.me/qurssan

22

أيقظني طرق متواصل على الباب.

- نحن بحاجة إلى المرحاض، افتحوا!

كانت أوغيستين تضرب بقبضتَي يديها بعنف على الباب كما لو أنّها تسعى لكسره. ورأيت المنفذ إلى الساحة مغلقاً كذلك، والليل قد بدأ يخيّم. لا أعرف ما إذا كان جوزيف قد جاء للسؤال عنّي، وما إذا كانت هيرتا انتظرتني في النافذة.

تناولت أوغيستين السطل الموضوع بقربي.

- إلى أين أنت ذاهبة به؟

فقالت باندهاش:

- استيقظتِ؟ كيف حالك يا روزا؟

- كم الساعة؟

- مضى وقت قصير على موعد العشاء. لم يأتونا بالطعام، والماء نفد. الحرّاس لم يظهر لهم أثر. حالة ليني تقلقني: أصابها هي كذلك الجفاف رغم أنّها لم تتقيأ. ربّما من شدّة البكاء.

ثمّ أضافت كما لو أنّها تعتذر:

- هي بصحّة جيّدة وأنا أيضاً.

- أين إلفريد؟

t.me/qurssan

- نائمة هناك.

التفتّ فرأيتها. كانت لا تزال مستلقية على جنبها، وقد جعل الشحوب بشرتها الكامدة تبدو بلون الصَّوّان.

قالت ليني:

- هل أنت بخير يا روزا؟

بعد أن نفد صبر أوغيستين، قرفصت على السطل، وتبعتها نساء أخريات. على أنّه لم يكن من الكبر بحيث يسع الجميع. بعض النساء تبوّلن في ملابسهنّ، بينما تبوّلت أخريات على البلاطة الملطّخة الفائحة برائحة نتنة. لماذا لا يفتحوا لنا الباب؟ أتراهم أخلوا الثكنة وتركونا هنا؟ كنت أشعر بالدم يخفق في صدغي حلمت بكسر الباب والفرار، لكن الحرّاس كانوا بلا شكّ واقفين هناك في الخارج: لا بدّ أنّهم تلقّوا تعليمات صارمة بألا يفتحوا طالما أنّهم لم يعثروا على حلّ لمشكلة النسوة المحتضرات، سيتركوننا هنا إلى أجل غير مسمّى.

ساعدتني أوغيستين على الوقوف، فمشيت متهادية إلى أن بلغت السطل. أمسكتني هي وبيت من تحت إبطي وساعدتاني إلى أن قضيت حاجتي. لم يكن ذلك مذلاً. كلّ ما في الأمر هو أنّ جسدي لم يعد يستطيع المقاومة. وتذكّرت ملجأ بودينغاس وأمّي.

كان بولي حارقاً، وبشرتي حسّاسة بحيث أنّ مجرّد لمسها يؤلمني. لو كانت أمّي حيّة، لقالت: غطّي نفسك يا روزا حتى لا تصابي بنزلة برد. لكن الوقت كان صيفاً. إنّه أسوأ فصل يموت فيه الإنسان.

وددت لو أتسلّى، ووجدت فكرة التسلية هذه عذبة عذوبة آخر رغبة تُلبّى لإنسان يعيش لحظاته الأخيرة. تذكّرت أبي: كان رجلاً

t.me/qurssan

الغ الاستقامة. قلت في نفسي إنّ شفاعته لي قد تكون مقبولة. هكذا .حت أصلّي رغم أنّ الصلاة لم تكن من حقّي. صلّيت من أجل أن اكون أوّل من تموت حتّى لا أشهد موت إلفريد. ما عدت قادرة على فقدان شخص آخر. لكنّ أبي لن يغفر لي، والربّ كانت لديه أمور اخرى.

شعرت أولاً بالبرد يدبّ في سائر أوصالي، ثمّ بخفّة أشبه بالغشية.

فتحت عينَيّ قليلاً، ونظرت إلى السقف. كان الوقت فجراً.

رأيتُ الباب مفتوحاً، فاستيقظ جسدي. لا ريب في أنّ الحرّاس كانوا يتوقّعون العثور على جثتين أو ثلاث أو أكثر، سيتعيّن عليهم إخراجها. لكنّهم عثروا في الواقع على عشر نساء أيقظتهنّ من نومهنّ المتقطّع جَلَبة المفتاح. عشر نساء التصقت رموشهنّ، والتهبت أجوافهنّ، لكنهنّ ما زلن جميعاً على قيد الحياة.

حدّق فينا الحارس الفارع من فتحة الباب مرعوباً كما لو أنّه رأى أشباحاً، بينما تراجع حارس آخر وهو يغلق أنفه، فتردّدت خطواته على بلاطة الممرّ. نحن أنفسنا تهيّأ لنا أنّنا تحوّلنا إلى أشباح، فرحنا نتفحّص في صمت وقد انقطعت أنفاسنا، مفاصل أطرافنا. وشعرت بالعبارة تتسلّل من بين شفتي، وتعبر فتحة أنفي: ما زلت حيّة!

كان يلزم انتظار وصول زيغلر ليأمرنا بالوقوف، فتخرج ليني من تحت المائدة، وتدفع هايكي كرسيها إلى الخلف مذهولة، وتنقلب إلفريد على ظهرها مستجمعة قواها لكي تنهض، وتتثاءب إيلا، وأقفُ أنا مترنّحة على قدمي.

t.me/qurssan

قال آمراً:

- اصطففن.

صففنا أجسادنا المنهكة بانقياد سبّبته المعاناة أو فرضه الخوف

أين كان الملازم، عشيقي، طوال هذه المدّة؟ لم يرافقني إلى المرحاض ولم يبلّل صدغي ويغسل وجهي: هو ليس زوجي، فلم سيحرص على سعادتي؟ بينما كنت أصارع الموت، كان هو منهمكاً في الدفاع عن حياة أدولف هتلر، ولا شيء غير حياته، مُستغرقاً في البحث عن المذنبين، يحقّق مع كرومل ومساعديه، ومع الحرّاس وكلّ أعضاء جهاز الشرطة العسكرية المقيمين في مقرّ القيادة العامة، وكذا الممونين المحلّيين منهم والقادمين من بعيد، بل حتى ميكانيكيي القطارات. كان مستعدّاً للوصول إلى أقصى العالم من أجل القبض على الجُناة.

- هل نستطيع العودة إلى بيوتنا؟

شئت أن يسمع صوتي، ويتذكّر وجودي.

نظرَ إليّ بعينَيه الضيّقتَين كبُندُقتَين فجّتَين، ومسحَ عليهما بيده ليدلّكهما، أو لمجرّد تلافي النظر إليّ، وأجاب:

- الطبّاخ قادم. ينبغي أن تستأنفن العمل.

كانت معدتي مسدودة، ورأيت أكُفّاً موضوعة على الأفواه، وأصابع على البطون، وسحنات مشمئزّة. بيد أنّ أيّاً منّا لم تجرؤ على الجواب.

انصرفَ زيغلر، وقادنا الحرّاس إلى المراحيض مَثنَى مَثنَى لكي نغسل وجوهنا وأطرافنا. نُظّف المطعم، وتُرك الباب المفضي إلى الساحة مفتوحاً للحظة، ثمّ هُيّئ الفطور قبل الموعد المألوف. لا بدّ أن الفوهرر جائع، ولا يجوز أن ينتظر أكثر. لا شكّ أن النوم جَفاه

t.me/qurssan

،ن الجوع، أو لعلّ هذا الحادث فتح شهيته، وجعل بطنه يقرقر، ا ذن بسبب التهاب المعدة وانتفاخ الأمعاء والتوتّر. قد يكون صامَ ساعات أو لعلّه يخبّئ في ملجئه الحصين، لحالات الطوارئ كهذه، ،مية من الطعام سقطت عليه من السماء. أو لعلّه قاومَ الجوع بكلّ ،ساطة، لأنّه متعوّد على مقاومة أيّ شيء. مسحَ على شعر كلبته الناعم. هي أيضاً فُرض عليها الصيام.

جلسنا إلى المائدة في ملابسنا القذرة والرائحة النتنة تملأ المكان، ورحنا ننتظر ونحن نحبس أنفاسنا، ثمّ شرعنا نأكل بانقياد مثلما فعلنا في اليوم السابق. وأضاءت الشمس صحوننا ووجوهنا المهزولة.

كنت أمضغ على نحو آلي، وأجهدُ نفسي لكي أبلع.

أعادونا إلى بيوتنا في آخر المطاف دون أن يقدّموا لنا أيّ تفسير لما حدث.

خرجت هيرتا لاستقبالي، وضمّتني بين ذراعيها، ثمّ راحت تحكي لي وهي جالسة على سريري:

– مرّت الشرطة السرّية على كلّ المزارع، الواحدة تلو الأخرى، وأرهقوا المموّنين بالأسئلة. ظنَّ الراعي أنّ التحقيق معه لن يطول، لكنّ الغضب استبدّ بهم في الحظيرة. كانت ثمّة تسمّمات أخرى في القرية مؤخّراً، ولا أحد يعرف مصدرها. أمّا نحن، فبخير، أو بالأحرى شعرنا بالقلق، ليس على أنفسنا، بل عليك.

وعلّق جوزيف:

– من حسن الحظّ لم يمت أحد.

قالت هيرتا:

t.me/qurssan

- ذهبَ للبحث عنك.

- أكان جوزيف بانتظاري في الخارج؟

أجاب حماي كما لو أنّه يحاول التهوين من قلقه: كانت ثمّة والدة ليني والخادم الذي يساعد هايكي، وكذا أخواتٌ وأناس مسنّون مثلي. تسمّرنا أمام الثكنة، وألححنا في السؤال عن أخباركنّ، لكن لا أحد رضي أن يخبرنا بشيء. استعملوا كلّ أشكال التهديد قبل أن يجبرونا على الانصراف.

لم ينم جوزيف وهيرتا. لست أدري من نام تلك الليلة. حتّى الأطفال لم يخلدوا إلى النوم إلّا في وقت متأخّر من الليل بعدما أرهقهم البكاء تحت أنظار الجدّات والخالات. طفلا هايكي ألحّا في طلبها: اشتقنا إليها، أين هي؟ أورسولا الصغيرة ودّت أن تغنّي ترنيمتي طلباً للمواساة، لكنّها نسيت الكلمات. الإوزّة المسروقة، والثعلب المقتول، والصيّاد الذي عاقبه. لماذا كان أبي يغنّي لي أغنيات حزينة كهذه؟

أخبرني جوزيف حتّى زارت، الواقف بجانب هيرتا، ظلَّ يحدّق في باب المدخل كما لو أنّه يترقّب عودتي، أو كما لو أنّ عدوّاً يترصّده. وقد كان ثمّة عدو فعلاً: منذ إحدى عشرة سنة.

t.me/qurssan

23

لن يعود. لن يجرؤ على الوقوف تحت نافذتي ثانية بعدما صنع، أم تراه سيعود عمداً لكي يختبر مقدار سُلطته؟ أكنت، حين أدخلته إلى المخزن، أنتظر منه أن يعاملني معاملة خاصة؟ أن أكون الأثيرة؟ عاهرة الملازم؟

أغلقتُ مصراعَي النافذة رغم حرّ المساء. خشيتُ أن يتسلّل إلى غرفتي. خشيتُ أن أجده بجواري في السرير، أو فوقي. وشعرت بوخز في حلقي من هذه الفكرة.

طردتُها من رأسي، وكوّرت الغطاء عند قدم السرير. رحت أبحث عن بقع باردة أضع فيها ربلتَي ساقَي. إن جرؤ على المجيء سأواجهه بالرفض.

أشعلتُ المصباح المغلّف بالثوب، وجلست في النافذة. أشعرتني فكرة أنّه هو من يرفضني -بعدما رآني ملطّخة بالقيء- بالحَنَق. بوسعه أن يستغني عنّي. رحت أحدّق في الظُّلمة متخيّلة الطريق المُترَب المُفضي إلى القرية، ومنها إلى مفترق الطرق الذي يقود إلى القصر حيث بدأ كلّ شيء.

وعند الواحدة صباحاً أطفأت النور فهزّني أمام اعترافي بالهزيمة إحساسٌ مفاجئ بالكبرياء. زيغلر هو من انتصر. هو الأقوى. عدتُ

t.me/qurssan

إلى سريري وقد تشنّجت عضلاتي حتّى أنّني احسست بألم في ظهري. تكتكة الساعة وتّرت أعصابي، ثمّ سمعت صوتاً مرعِباً.

صوتُ أظافر تتشبّث بالنافذة. تملّكني خوف ذكّرني بغثيان اليوم السابق. كلّ ما كان يتردّد في الصمت المطبق هو صوت الأظافر تخدش النافذة ودقّات قلبي المتواثبة.

وما إن توقّف الصوت حتّى نهضت بقفزة واحدة، وفتحت المصراعَين: لا شيء متشبّث بالنافذة والطريق مُقفِر.

- كيف حالكنّ، سيداتي؟ أنا سعيد أنكنّ استعدتنّ العافية.

وجدت صعوبة في البلع. النسوة الأخريات توقّفن عن الأكل ورحن يسترقن النظر إلى زيغلر، كما لو أنّ النظر إليه ممنوع. ثمّ مضينا نتبادل النظرات عابسات.

بعد التسمُّم، بعد أن كشفَ المطعم عن حقيقته، عن كونه شَرَكاً، صار الخوف يتملّكنا كلّما بادَرَنا أحد الحرّاس بالكلام. أمّا إذا خاطبنا زيغلر، فيستبدّ بنا شعور بخطر محدق.

دارَ حول المائدة، واقترب من هايكي وقال:

- لا بدَّ أنّك مسرورة بنهاية ما وقع.

وتهيّأ لي للحظة خاطفة أنّه يلمّح للإجهاض. ربّما تهيّأ ذلك لهايكي أيضاً. سارعت إلى الإيماء برأسها موافقة على نحو فضح توتّرها. أحنى عليها من الخلف، ومدّ ذراعه نحو الصحن، تناول تفاحة، وغرس فيها أسنانه كما لو أنّه في مأدبة غداء في الهواء الطلق: وتردّد صوت العضّة واضحاً مقزّزاً. مضى يمضغ وهو يمشي وقد أخرج صدره، كما لو أنّه يغطس في الماء مع كلّ خطوة. كانت مشيته في منتهى الغرابة: لِمَ سأشتاق إليه؟

t.me/qurssan

- وددت أن أشكركنّ على تعاونكنّ في مواجهة ذلك الطارئ.

لم تفارق عينا أوغيستين التفاحة في يد الملازم بينما كانت إحدى فتحتَي أنفها تختلج. أنف إلفريد مسدود كعادته بحيث تجد صعوبة في التنفُّس. خدّا ليني تضرّجتا بلون أرجواني كما لو أنّ الدم تجمّد فيهما. وشعرتُ بنفسي مكشوفة. كان زيغلر يذرع القاعة جيئة وذهاباً وهو يمضغ بفتور حتّى ظننته سيغيّر لهجته بين فينة وأخرى. كنّا ننتظر أن ينقلب، مستعدّات لمواجهة الأدهى، مترقّبات حدوثه.

لكن زيغلر ما لبث أن توقّف خلفي.

- لم يكن بإمكاننا أن نتصرّف على نحو مختلف، لكنّنا في نهاية المطاف، كما رأيتنّ، دبّرنا الطارئ، وعادت الأمور إلى نصابها. استمتعن إذاً بطعامكنّ.

وضع لبّ التفاحة في صحني وغادر.

قامت بيت من مكانها في الجهة الأخرى من المائدة، وأحنت لكي تلتقط ذيل لبّ التفاحة بين أصابعها. كنت من الاضطراب بحيث لم أتساءل لماذا. كان ما بقي من التفاحة الذي عضته قواطع زيغلر، وبلّله لعابه، قد بدأ يسودّ.

كان يرغب في ابتزازي. سيعرف الجميع حقيقتك. يريد أن يعذّبني، أو لعلّ الشوق هزّه فأراد أن يراني. لقد مارسنا الحب، وكان يلزم ألا يتكرّر ذلك. إن لم يعرف أحد بما وقع، ستكون تلك الليلة في حُكم العدم. ليلة مضت، كما لو أنّها لم توجد. قد يحلّ يوم، بعد مرور الزمن، أتساءل فيه عمّا إذا كانت تلك الليلة وُجدت فعلاً. لن أخبر بها أحد، وسأكون صادقة.

عدت إلى الأكل. شربت حليبي، ووضعت الإناء على المائدة

t.me/qurssan

برعونة غير مقصودة: تهادى ثمّ انقلب ومضى يتكوّر إلى أن بلغ إلفريد. قلت: «المعذرة! - لا عليك أيّتها البرلينية». مدّته إليّ ثمّ نشرت منديلاً على بركة الحليب.

خلدت إلى فراشي مبكّراً بحثاً عن نوم يخلّصني من هواجسي. تخيّلت، وقد جفا النوم مقلتيّ، أنّ زيغلر قدم، وانتابني الخوف من أن يقترب ويخدش زجاج النافذة بأظافره كما حصل في الليلة السابقة، أو يضربها بحجر فيكسرها، ويأخذ بخناقي. سيهبّ جوزيف وهيرتا لنجدتي، ولن يفهما شيئاً ممّا يحصل، فأعترفُ، كلا، أنكر إنكاراً قاطعاً. ورحتُ أرتعدُ في الظلام.

في اليوم الموالي خرج الملازم إلى الساحة بعد العشاء. كنت أتحدّث مع إلفريد وهي تدخّن. رأيته يقصدني فصمتّ فجأة. سألَت إلفريد:

- ماذا جرى؟

- ارمي السيجارة.

التفتّ إلى الخلف، فكرّر زيغلر:

- ارميها فوراً.

تردّدتْ قبل أن تتركها تسقط، كما لو أنّها كانت ترغب في أن تسحب منها نَفَساً أخيراً.

قالت مبرِّرة:

- لم أكن أعلم أنّ التدخين ممنوع.

- من الآن فصاعداً هو ممنوع. لا أسمح بالتدخين في ثكنتي. أدولف هتلر يكره التدخين.

t.me/qurssan

كان زيغلر يسعى إلى الانتقام منّي. لم يكن غضبه موجّهاً إلى الفريد، بل إليّ أنا.

أحنى برأسه وتشمّمني مثلما فعل قبل أربعة أيام تحت نافذتي:

- لا ينبغي للمرأة الألمانية أن تدخّن.

شعرت برجفة تسري في جسدي.

- ... أو على الأقل لا ينبغي أن تفوح برائحة التبغ.

قلت:

- لم يسبق لي أن دخّنت.

نظرت إليّ إلفريد نظرة متوسّلة لكي أصمت.

قال زيغلر:

- أأنت متأكّدة؟

كان لون لبّ التفاحة قد صار بنيّاً الآن. وضعته بيت على المائدة، قرب شمعدان أسود وعلبة صغيرة. أشعلت شمعة بعود ثقاب. كانت الشمس على وشك الغروب، والظلام لم يحلّ بعد، لكن توأميها كانا قد ناما في غرفتهما. وكنت أنا وليني وإلفريد جالسات حولها.

لم تكن هايكي معنا. منذ أجهضت، وقع تباعُد صامت بين الصديقتَين. لم تشرك هايكي صديقتها في حادث خطير عاشته، ما خلق نوعاً من التجافي غير المُعلن. والواقع أنّها كانت تتعامل مع كلّ أعضاء مجموعتنا بنوع من التحفُّظ كما لو أنّ إشراكنا في سرّ كهذا كان يضايقها: لم تغفر لنا معرفة ما كانت تتمنّى أن تنساه.

أبدت أوغيستين ارتيابها المعتاد من حماقات العرّافة الصغيرة، ومكثت في منزلها متذرّعة بالأطفال. قالت بيت:

t.me/qurssan

- سنعاقب زيغلر. إن نجحنا، فهذا ما نرجوه، وإلا يكفينا أنّنا نتسلّى.

فتحت العلبة الصغيرة التي كانت تضمُّ إبراً، فسألتها ليني بشيء من القلق:

- ما الذي تنوين فعله؟

لم يكن يزعجها إيلام زيغلر، لكن ما أرهقها هو أن ما يتمنّاه المرء لغيره من شرّ، قد يحلّ به هو.

قالت بيت موضّحة:

- سأستعمل شيئاً لمِسّه الملازم. أغرس فيه الإبر: إن نحن ركّزنا تفكيرنا على تخيُّل أنّه هو لبّ التفاحة، لن يلبث أن يشعر بالألم.

قالت إلفريد:

- ما هذا الهراء. أمن أجل هذه الترّهات أتيت؟

فردّت بيت:

- لا تفسدي علينا الجلسة مثلما تفعل أوغيستين! فيمَ يؤذيك هذا؟ هذه تسلية. هل لديك شيء أفضل يسلّينا؟

سألت ليني بفضول:

- وفي الأخير تحرقين اللبّ بالشمعة؟

أجابت العرافة الصغيرة:

- كلا.

قالت إلفريد:

- هذه أوّل مرّة أسمع فيها عن حشو بقايا تفاحة بالإبر.

فردّت بيت:

- ليس لدينا شيء لمسه زيغلر غيره. لذلك سنكتفي به.

t.me/qurssan

قالت إلفريد:

- هيّا أسرعي، وإلا قضينا الليلة بكاملها هنا. لا أدري حتّى لماذا أنصت إليك.

تناولَت بيت إبرة من العلبة، وجّهتها نحو الجزء الأعلى من اللبّ الفاسد، وغرستها فيه، وقالت:

- هذه إبرة في الفم...

لقد قبّلت هذا الفم.

- ... هكذا لن نسمعه قطّ يصرخ علينا.

قالت ليني وهي تضحك:

- طُق!

- كلا يا بنات، ينبغي أن نظلّ جادّات، وإلا لن ينجح الأمر.

قالت إلفريد مستعجِلة:

- هيا أسرعي يا بيت!

عكست أصابع بيت، في ضوء الشمعة، ظلّاً طويلاً مرتجفاً. وحين اقتربت من اللبّ، أخفته، فبدا كشيء مقلِق. منحته شكلاً شبيهاً بهيئة إنسانية، مُشاكلاً لجسد زيغلر كما عرفته.

مضَت بيت تغرس الإبر معدّدة أجزاء الجسم. الكتفان اللذان ضممتهما، والبطن الذي احتككت به، والساقان اللذان اشتبكت بهما ساقاي.

لقد لمست جسد زيغلر. لو غرسن الإبر في لحمي، لكانت العملية أنجع.

أشارت بيت إلى ما بقي من البشرة الحمراء على ذيل اللبّ وقالت:

- الرأس.

t.me/qurssan

شعرت بوخز في رقبتي.

سألت ليني بصوت خافت:

- أمات الآن؟

- كلا، بقيَ القلب.

مضت الأصابع تقتربُ ببطء محسوب، فشرعَ قلبي يخفق. وبينما كانت الإبرة على وشك أن تخترق البلرة، مددت يدي بينهما.

- ماذا تصنعين؟

- آآي!

وخزتني الإبرة، ولاحت نقطة دم على إبهامي بدت متلألئة في ضوء الشمعة.

سألت بيت:

- أجُرحت؟

أطفأت إلفريد الشمعة ونهضت.

قالت صاحبة البيت بنبرة متذمّرة:

- لماذا فعلتِ هذا؟

ثمّ أضافت:

- هيّا، لنتوقّف عند هذا الحدّ.

أشعرتني رؤية الدم على طرف إصبعي بالشلل.

سألَت ليني مذعورة:

- ماذا أصابك يا روزا؟

اقتربت منّي إلفريد وأخذت تدفعني إلى الغرفة بينما راحت الأخريات يراقبننا صامتات.

- أما زلت تخافين من الدم أيّتها البرلينية؟ ألا ترين أنّها وخزة صغيرة لا تكاد تظهر؟

t.me/qurssan

كان التوأمان ينامان على جنبيهما، وخدّاهما موضوعان على ا احنيهما، وقد فتحا فميهما على شكل دائرة مثقوبة.

همغمتُ:

- ليس بسبب الدم.

- انظري.

التقطَت يدي، وأدخلَت طرف إصبعي بين شفتيها، وأخذت امصّ. تفحّصته لترى ما إذا كان لا يزال ينزف، ثمّ مصّته من جديد.

قالت وهي تتخلّص من إصبعي:

- الآن كوني واثقة من أنّك لن تموتي من النزيف.

- لست خائفة من الموت. لا تسخري منّي.

- ماذا جرى لك؟ لماذا استبدّ بك الانفعال؟ من يراك على هذه الحال لا يظنك بنت المدينة. خيّبت ظنّي.

- المعذرة.

- أتعتذرين على أنّك خيّبت ظنّي؟

- أنا أسوأ ممّا تظنّين.

رفعت ذقنها بحركة متحدّية لا تخلو من سخرية، وقالت:

- أتعرفين ما ظنّي بك؟ فتاة وقحة.

وارتسمت ابتسامة على شفتي.

ثمّ قلت محاولة تبرير الموقف:

- كانت الليلة الماضية في الثكنة رهيبة.

- صحيح رهيبة. وقد تتكرّر. لا شيء يمنع من تكرارها. مهما اختبأنا، الموت قادم لا محالة، عاجلاً أم آجلاً. سيلحق بنا على كلّ حال.

ثمّ قستُ ملامح وجهها، وبدا لي شبيهاً بذاك الذي تفرّسني

t.me/qurssan

خلال أخذ عيّنات الدم في اليوم الموالي لالتحاقنا بالثكنة. لكن أساريرها ما لبثت أن تطلّقت، ووجدت بعض المواساة في عينيها.

- أنا أيضاً ركبني الخوف. كنت أشدّ خوفاً منك.

نظرتُ إلى الثقب المتناهي الصغر، في طرف إصبعي: لقد جفّ. وانفلتت من فمي عبارة «أحبّك».

عطّلت المفاجأة قدرتها على الجواب. وصدر عن أحد التوأمين صوت شبيه بصوت القوارض، وغضّن أنفه كما لو أنّه شعر بحكّة مفاجئة. حكّ أنفه مع الغطاء ثمّ انقلب على ظهره واضعاً ذراعيه فوق رأسه. بدا مثل يسوع الطفل وقد نذر نفسه للصلب.

قلت:

- يا للسخف! أنت محقّة.

- ما هو الشيء السخيف، أنّك تحبّينني؟

- كلا، مهزلة الإبرة هذه.

- وجدتها مسلّية.

تناولَت يدي وضغطت عليها ثمّ قالت:

- هيّا، لنلتحق بالأخريات.

لم تحرّر يدي إلا عندما بلغنا عتبة باب المطبخ.

لم أقف في النافذة تلك الليلة أيضاً، وكذلك الأمر في الليالي التالية. ظننتني نجحت، وأنّ تلك الحكاية انتهت. لم يعد يأتي، وحتى لو كان يأتي، لم يعد يخدش زجاج النافذة. قد لا يكون أتى قط، وأن ذلك الصرير صادر عن عظامي.

اشتقت إليه، لكنّه لم يكن شوقي نفسه إلى غريغور. ينقلبُ القدر، وتفنى الوعود، لكن لا بأس. حضنتُ وسادتي. كان قطنها

t.me/qurssan

مئناً وملتهباً. لم يكن ألبرت زيغلر هو المشكلة، بل أنا. عضضتُ غطاء الوسادة، واعترتني رجفة من خشونة احتكاكها بأسناني. لا فرق بين أن يكون زيغلر أو غيره. هذا ما كنت أظنّه. عاشرته لأنّني لم أعاشر رجلاً منذ مدّة طويلة. نزعت مزقة ثوب ومضغتها. علق خيط بين قواطعي، فرحت أمصّه وأكوّره بلساني، وبلعته مثلما كنت أفعل في صغري: لن يقتلني هذه المرّة أيضاً. وقلت في نفسي: لم أشتق لألبرت زيغلر، بل لجسدي، جسدي المهجور من جديد، المجبَر على الاكتفاء بذاته.

لم أعد أذكر عدد الأيّام التي مرّت على غيابه حين دخل الحارس الفارع إلى المطعم وأمرني بالنهوض.

- سرقتِ من جديد.

ما معنى هذا؟

- كلا، لم أسرق.

كان كرومل قد تحمّل عنّي مسؤولية قنينتَي الحليب اللتين عثروا عليهما في حقيبتي، وبذلك جنّبني تهمة السرقة.

- هيّا، أسرعي!

نظرت من حولي بحثاً عن تيودورا وغيرترود وسابين. كان الخوف بادياً عليهنّ مثلي، ولم يكن ثمّة شيء يوحي بالوشاية.

سألتُ وقد انقطعت أنفاسي:

- ماذا سرقت؟

أجاب الحارس:

- أنت أدرى بما سرقت.

هزّت إلفريد رأسها كأمّ نفد صبرها:

t.me/qurssan

- البرلينية. . .

صرخت وأنا أنهض:

- أقسم أنّني ما سرقت شيئاً!

لم أرتكب أيّ تصرّف متهوّر. لا بدّ أن يصدّقوني.

سحبني الحارس من ذراعي وقال:

- اتبعيني.

أغلقت ليني منخاريها ورمشت بعينيها.

- هيّا، امشي أمامي.

غادرت المطعم والحارس من خلفي.

في الممرّ، أخذت ألتفت وأسأل بأيّ سرقة يتّهمونني.

- كرومل من قال لك ذلك؟ هو غاضب منّي.

- هو غاضب منك لأنّك تسرقين من المطبخ يا ساور، لكنّك ستعضّين على أناملك ندماً جرّاء ذلك.

- إلى أين تأخذني؟

- اخرسي.

وضعت يدي على صدري:

- أتوسّل إليك، أنت تعرفني منذ شهور، وتدرك أنّني لن. . .

قال مؤنّباً وهو يدفعني:

- كيف تسمحين لنفسك بأن تخاطبيني هكذا؟

مشيت لاهثة إلى أن بلغت مكتب زيغلر.

طرق الحارس الباب، فأُذن له. أدخلني فأُمِر بالانصراف حتّى لا يشهد التحقيق معي رغم الفضول البادي في عينيه. وتساءلتُ عمّا إذا كان سيتنصّت علينا خلف الباب.

قام زيغلر للقائي. شدّ ذراعي بقوة آلمتني، ودفعني دفعة

t.me/qurssan

ارتكت أن تنخلع معها مفاصلي، وشعرت بعظامي ترتطم بالأرض. ضمّني بشدّة إليه، فأيقنت بأنّني سليمة، وأنّ عظامي لم تتكسّر.

- كرومل هو من أخبرك؟

- إن لم تخرجي هذه الليلة، سأكسر زجاج النافذة.

- هو من حدّثك عن الحليب؟ هو من أوحى لك بحكاية السّرقة هذه؟

- أسمعتِ؟

- كيف سنسوّي إذاً هذه الحكاية التي اختلقتها؟ ماذا سأقول للأخريات؟

- ازعمي أنّك استدعيت خطأ، اللّهمّ إذا كنت تفضّلين الاعتراف بالسرقة بعد أن صفحوا عنك المرّة السابقة. والآن انسي هذا الموضوع.

- قد لا يصدّقن.

نظر إليّ مليّاً، فاضطررت إلى أن أغمض عيني لحظة. كانت رائحة بزّته لا تزال تملأ أنفي، وهي الرائحة نفسها التي تفوح من جسده حين يكون عارياً.

قلتُ:

- أكنتم تريدون قتلنا؟

لم يجب.

- كنت ستقتلني.

استمرّ ينظر إليّ نظرة جادّة كعادته.

- تكلّم!

- ألم تسمعي ما قلت: إن لم تخرجي، سأكسر زجاج النافذة.

t.me/qurssan

شعرتُ بألم خاطف يعبر جبيني، فرفعت يدي لأضعها على صدغي.

- ماذا بك يا روزا؟

كانت تلك هي أوّل مرّة يناديني فيها باسمي الشخصي.

قلت وقد اختفى الألم كلّياً وسرى شعور بالارتياح في سائر جسدي:

- أراك تُهدّدني.

t.me/qurssan

24

لم تكد تمضي ساعات حتّى كنّا مستلقيَين جنباً إلى جنب مثل شخصَين في مرج يتأمّلان السماء، رغم أنّها كانت محجوبة. تبدّدت القوّة التي ضمّني بها زيغلر في مكتبه بعد ظهر ذلك اليوم. كان يكفيه أن يعرف أنّني ما زلت في متناوله لكي يعود إلى هدوئه. ما كدنا ندخل إلى المخزن حتّى استلقى دون أن يلمسني. ظلّ ببزّته، ولزم الصمت: لعلّه نام، لم أكن أعرف تنفّسه خلال النوم، أو لعلّه يفكر، لكن ليس فيّ أنا. كنت مستلقية إلى جانبه في قميص النوم وكتفانا يتلامسان، وشعرت بالخزي من أنّ هذا التلامُس لم يحرّك فيه ساكناً. كنت قد صرت رهينة رغبته. لم يكلّفه الوصول إليّ كبير عناء. أتى ذات ليلة إلى نافذتي، فكان له ما أراد. لبّيت رغبته كما لو أنّني استجبت لاستدعاء. وها هي لا مبالاته الآن تشعرني بالمَهانَة. لماذا أتى بي إلى هنا إن كان لا يرضى حتّى أن يكلمني؟

فارقَ كتفه كتفي فجأة كما لو أنّ عصفة ريح قوية أزاحته، ثمّ استوى جالساً. خلته سينصرف دون أن يكلّف نفسه تبرير سلوكه. هل برّر مجيئه أوّل مرّة لكي يبرّر الآن انصرافه؟ لم أسأله ولم أطلب منه تبريراً قطّ.

قال:

t.me/qurssan

- العسل هو السبب.

لم أفهم قصده.

- شحنة فاسدة من العسل. هذا هو مصدر التسمُّم.

الحلوى اللذيذة التي أعجبَت إلفريد.

اعتدلتُ جالسة بدوري، وسألت:

- باعوكم عسلاً خطيراً؟

- عن غير قصد.

أمسكت بذراعه.

- فسّر لي.

التفت إليّ، فأحسستُ بصوته يرتدّ على وجهي.

- هذا شيء ممكن الحدوث. قد يحطّ النحل على نباتات مسمومة قرب الخليّة، فيسمِّم العسل. هذا كل ما في الأمر.

- أيّ نباتات؟ ومن أثبت ذلك؟ وماذا فعلتم بصاحب العسل؟

- العسل لا يقتل إلّا في حالات نادرة.

وشعرت بحرارة مفاجئة تلهب خدّي. إنّها يده.

قلت وأنا أمسكها بكفّي وأبعدها، ثمّ أشدّ عليها:

- كنت تجهل أنّه غير قاتل حين كنت أتقيّأ. أكنت تجهل ذلك حين كنت أتقيّأ وأرتعد من البرد ويغمى عليّ؟ أكنت ستتركني أموت؟

دفعني زيغلر فلامسَ رأسي الأرض برفق. غطّى وجهي بأصابعه الخمسة، وأغلقتْ راحتُه فمي، وضغطت أطرافُ أصابعه على جبيني. شدّ على أنفي وجفنيّ كما لو أنّه يهمّ بسحقهما وتمزيقهما.

- أنت لا تزالين على قيد الحياة. لم تموتي.

حرّرَ وجهي من قبضته واستلقى فوقي، وتسلّلت أصابعه تحت

t.me/qurssan

اقفصي الصدري، وأمسكت بضلعي الثاني عشر كما لو أنه ينوي نزعه، ويسعى لاسترجاعه باسم أبناء آدم.

قلت:

- ظننت أنني سأموت، وأنت أيضاً. لكنّك لم تفعل شيئاً.

رفع قميصي وعضَّ ذلك الضلع الذي لم يستطع انتزاعه. خيّل إليّ أنّه سيكسره بين أسنانه أو أنّ أسنانه هي التي ستتكسّر. لكن ضلعي بدا كما لو أنه ينزلق تحت قواطعه على نحو ناعم لَدْن. وقال وهو جاثم على صدري:

- لكنّك لم تموتي.

قبّل فمي وأضاف:

- لا تزالين على قيد الحياة.

وتهدّج صوته فيما يشبه السُّعال. كنت أداعبه كما تداعب أمّ صبيًا لتُفهِمه أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّ لا شيء حدث. ثمّ نزعت ملابسه.

t.me/qurssan

25

دأبتُ على الخروج كلّ ليلة لألتقي به. أتوجّه بخطى عسكرية حثيثة إلى المخزن، بتصميم من يسعى لمواجهة أمر محتوم. تزدحمُ الأسئلة في رأسي، فأُخرسها. على أنّها لا تلبث أن تعود في اليوم الموالي لكي تعذّبني. على أنّني لا أكاد أدخل إلى المخزن حتّى تستحيل إلى خرق بالية معلّقة على أسلاك شائكة، غير قادرة على اختراق حصن إرادتي.

كان الخروج خلسة من دون علم أحد ضرباً من التمرُّد. كان هذا السرّ الذي لا يعلمه سواي يشعرني بحرّية مُطلقة: بما أنّني لم أكن أملك أيّ سلطان على حياتي، كنت أستسلم لمجرى الأحداث العشوائي.

كنّا عشيقَين، وكان من السذاجة البحث عن الكيفيّة التي يصبح بها شخصان عشيقَين. شاهدني زيغلر، أو بالأحرى رآني. هذا كلّ ما في الأمر. لم نكن بحاجة، في هذا المكان وفي هذه اللحظة، إلى أكثر من ذلك.

قد يفتح جوزيف الباب في ليلة من الليالي، فيفاجئنا ملتصقَين، لا تسترنا غير بزّة نازيّة. كيف لم يحصل ذلك حتّى الآن؟ وفي الصباح كنت أقول في نفسي لو حدث، سيكون إقراراً للعدالة. كنت

t.me/qurssan

ا.هب في أن أُسحب إلى منصّة الإعدام وسط استنكار الناس ،استهجانهم. ستقول رفيقاتي: تُهمة السرقة إذاً لم تكن باطلة. كلّ ا.يء واضح الآن، ولا مجال للشُّبهة. وستقول هيرتا: كنت واثقة من أنّ المرء لا يمكن أن يطمئنّ لسكرتيرة برلينية.

تشبّثت بجسد عشيقي في الظلام لكي لا أسقط. وشعرت ،الحياة تتسارع فجأة، وتلزم جسمي حتى تُفنيه: يتساقط شعري وتنكسر أظافري.

- أين تعلمتِ الغناء؟ وددت أن أسألك هذا السؤال منذ ليلة الحفل؟

لم يسألني ألبرت قطّ عن أموري الشخصية. أكانت حياتي الخاصة تعنيه حقّاً؟

- منذ كنت تلميذة في برلين. أنشأنا جوقة في المدرسة، وكنّا نلتقي بعد الظهر مرّتين في الأسبوع. وفي نهاية السنة، كنّا نقيم حفل غناء يحضره آباؤنا... كم كان الأمر مضنياً بالنسبة إليهم.

- كيف تقولين هذا مع أنّك تجيدين الغناء.

كان يتكلّم بنبرة لا كلفة فيها كما لو أنّنا تحدّثنا طويلاً من قبل مع أنّها كانت أوّل مرّة فيما أذكر.

- كانت لدينا أستاذة رائعة، تعرف كيف تحفّزنا. لمستْ فيّ حبّ الغناء، فكانت تعهد إليّ بمقاطع غنائية فردية. كم كنت أتسلّى في المدرسة!

- أمّا أنا، فكنت بخلافك تماماً. في الصفّ الأوّل من المدرسة الابتدائية، كانت المعلّمة تأخذنا إلى المقبرة.

- المقبرة؟!

t.me/qurssan

– لكي تعلّمنا القراءة. كانت الحروف والأرقام على الشواهد كبيرة وبارزة. كانت تقدّر أنّها طريقة بسيطة ونَاجِعة.

– الظاهر أنّها امرأة ذات حسّ عمليّ.

أيمكن المزاح معه؟

– كانت تأمرنا في الصباح بأن نصطف مَثنَى مَثنَى، وتصحبنا إلى المقبرة. تنصحنا بأن نصمت احتراماً «للموتى المساكين»، ثمّ يروح كلّ واحد منّا يقرأ شاهداً. كانت فكرة وجود ميّت مدفون تحت التراب تثيرني إلى حدّ أنّني أُصاب بالحُبسة، وأصير عاجزاً عن نطق كلمة واحدة.

قلت وأنا أضحك:

– عذر مقبول.

هذا ممكن. وراح يضحك أيضاً.

ثمّ استرسلَ يقول:

– وفي الليل، أفكّر في أولئك الموتى، وأتخيّل أحد والدَيّ، أبي أو أمي، مدفون، فيجفوني النوم.

ماذا كان يحصل لنا؟ كنّا كغريبَين يحكي كلّ منهما حياته للآخر. هل تستطيع الحميمية الجسدية أن تخلق الودّ؟ كنت أشعر بميل غامض إلى حماية جسده.

– ثمّ كانت المعلّمة تجسّ نبضنا وتقول: الملل لا وجود له. إن شعرتم بالملل، ضعوا أصابعكم هنا –يمسك زيغلر بمعصمه– وعدّوا: واحد، اثنان، ثلاثة. كلّ نبضة تمثل ثانية، وستون ثانية تساوي دقيقة. بإمكانكم أن تعرفوا كم مرّ من الوقت من دون حاجة إلى ساعة.

– هذه طريقة نَاجِعة لمقاومة الملل في نظرها؟

t.me/qurssan

- كنت أستعملها كلّما جفاني النوم بسبب التفكير في الأموات.
ااا، يخيّل إليّ أنّنا حين نقتحم مجالهم لا نقدّرهم حقّ قدرهم، ومن
ا.، لأنّهم سينتقمون منّا عاجلاً أم آجلاً.

حاكيت صوت غول كبير شرير:

- سآخذك إلى العالم الآخر؟

ثمّ أمسكت بمعصمه:

- هيّا، سأجسّ نبضك كما كانت تفعل المعلّمة. فيجاريني. ما
،ات على قيد الحياة يا ملازم زيغلر.

يلزم كثير من الفضول لتخيُّل الناس أطفالاً. زيغلر الطفل هو
،مسه اليوم، لكنّه مختلف مع ذلك. كنت أسعى لأبرم تحالُفاً مع هذا
الطفل الذي لن يؤذيني. لهذا السبب كنت أستطيع ملاعبة ألبرت،
،الضحك -وأنا واضعة كفّي على فمي لكي لا أحدث ضجّة- من
كلّ شيء ومن لا شيء، على غرار ما يفعل العشّاق.

قال:

- الأموات ينتقمون.

وددت لو أحمل بين ذراعَي هذا الطفل الذي كان يخاف الأموات، وأداعبه إلى أن ينام.

مكثنا صامتَين مدّة ستين نبضة متتابعة من نبضات قلبه، ثمّ حاولت أن أستأنف الحديث:

- لقد درست على يد أساتِذة بارعين. وفي الثانوية، سقطت في غرام أستاذ الرياضيات. كان اسمه آدم وورتمان. لطالما تساءلت عن مصيره.

- آه، لقد ماتت عشيقتي، وبعد فترة قصيرة تبعتها أختها التي كانت تسكن معها. كانت ترتدي دائماً قبّعات غريبة.

t.me/qurssan

- السيد وورتمان ألقي عليه القبض. جاؤوا يبحثون عنه في المدرسة. كان يهودياً.

لزم ألبرت الصمت، وأنا أيضاً.

ثمّ خلّص معصمه من يدي وتناول سترته الموضوعة على كومة الخشب.

- ستنصرف؟

ردّ وهو ينهض واقفاً:

- ينبغي أن أنصرف.

كانت ثمّة في وسط صدره حفرة صغيرة، وكنت أحبّ تمرير سبّابتي في ذلك التجويف، لكنّه لم يمهلني لأفعل. زرّر بزّته، وانتعل حذاءه، وتثبّت بحركة آلية من وجود مسدسه في غمده. قال وهو يضع قبّعته: «مع السلامة»، ثمّ اختفى دون أن ينتظرني لنغادر معاً.

t.me/qurssan

26

كثيراً ما كانت البارونة تدعوني إلى القصر. كنت أزورها بعد الظهر، عند الفراغ من عملي وقبل أن تعود الحافلة في إثري. كنّا نجلس في الحديقة معاً على انفراد مثل مراهقتَين محتاجتَين إلى هذه الخلوة لكي يعزّزا صداقتهما. في ظلّ شجر السنديان، وبين القرنفل والفاوانيا والعنبري التي بذرَها جوزيف في شكل مجموعات عوض خطوط -لأنّ الطبيعة كما كانت تقول ماريا ليست مرتّبة-، كنّا نتحدّث عن الموسيقى والمسرح والسينما والكتب التي كانت تعيرني بعضها، أعيدها لها بعد قراءتها وأخذ فكرة عن مضمونها. ذلك أنّها كانت تحبّ أن نتناقش حولها لساعات. كانت تستفسرني عن حياتي في برلين، فأتساءل عن مبعث الإثارة التي تجدُها في حياة الطبقة البرجوازية الصغيرة، لكن الظاهر أنّها كانت شغوفة بكلّ شيء، وتحبّ الاطّلاع على كلّ شيء.

صار الخَدَم يستقبلونني كواحدة من المتردّدات القديمات على البيت. يفتحون لي البوابة، ويرحّبون بي. يرافقونني حتّى جناح البارونة، ويهبّون لإخبارها إن لم تكن موجودة هناك مستغرِقة في القراءة ترتشف مشروباً وتروّح عن نفسها بالمروحة. كانت تقول إنّها تشعر بالاختناق في البيت من كثرة أثاثه، وهو ما كنت أجد فيه

t.me/qurssan

مغالاة وتصنّعاً. على أنّ شغفها بالطبيعة كان صادقاً. قالت لي يوماً على سبيل المزاح:

- حين سأتقدّم في السنّ، سأصير بستانية لكي أزرع كلّ ما يستهويني.

ضحكتْ ثمّ أضافت:

- لا تسيئي فهمي. فجوزيف يتقن عمله. أنا محظوظة بعثوري عليه. لكنّني طلبت منه أن يغرس زيتونة، فقال إنّ المناخ غير مناسب. لم يقنعني كلامه. منذ سافرت إلى إيطاليا وأنا أحلم ببستان زيتون خلف البيت. وأنت يا روزا، ألا تجدين الزيتون شجراً رائعاً؟

جاريتها في حماسها رغم أنّني لم أكن أملك رأياً في الموضوع.

بينما فتحت لي إحدى الخادمات البوابة يوماً، أخبرتني أنّ البارونة موجودة في الاسطبل مع الأطفال. كانت قد عادت من جولة على صهوة حصان، وطلبت أن ألحق بها.

لمحتهم ثلاثتهم في الباحة ذات الأرضية الطينية قبالة الاسطبل واقفين، كلّ منهم بجانب حصان. كانت ماريا تداعب عُرف مطيّتها، في سترتها الضيقة التي تبرز صدرها الرشيق، وسروال الفروسية الذي يظهر قدّها الممشوق وردفيها المستديرين، بحيث لا يصدّق من يراها أنّها أنجبت طفلين.

صاح ميكائيل ويورغ:

- روزا.

وانطلقا يجريان للقائي.

جثوت لكي أقبّلهما، وقلت:

t.me/qurssan

- ما أجملكما!

قال ميكائيل:

- انظري، هذا سَوطي.

فقاطعه أخوه الأكبر:

- أنا أيضاً أملك سَوطاً، لكنّني لا أستعمله، لأن الحصان يطيعني بمجرّد أن يراه.

لقد تشرّب قواعد الطاعة رغم أنّه لم يكن جاوز التاسعة من عمره.

لحقت بنا ماريا. سبقها ظلّها الذي امتدَّ إلينا. قلت وأنا انهض:

- ها هي أمُّكما قادمة. صباح الخير.

- صباح الخير صديقتي العزيزة. كيف حالك؟

واتّسعت الابتسامة الناعمة على محيّاها.

- اعذرينا، فقد تأخّرنا.

هي دائماً هكذا، جمّة الأدب.

- كنت أتوقّع أن يكون ركوب الخيل مرهِقاً بسبب حرارة الشمس... ألحّ عليّ الطفلان، فلبّيت طلبهما. وقد تبيّن في نهاية المطاف أن رأيهما سديد. قضينا لحظات ممتعة، أليس كذلك؟

أمّن الطفلان على كلامها بالتقافُز من حولها. ثمّ أضافت وهي تخلّل بأصابعها شعرها الذي أفلتت بعض خصلاته الذهبية من المشابك:

- لعلّ مظهري غير لائق. هل ترغبين في القيام بجولة على صهوة الحصان يا روزا؟

كان واضحاً في عينيها أنّها لم تستطع مقاومة هذه الفكرة.

t.me/qurssan

فهتف الأطفال بحماس:

- قولي نعم!

- شكراً جزيلاً، لكنّني لم أركب الخيل قطّ.

- حاولي يا روزا، إنّه شيء رائع!

وراح ميكائيل ويورغ يتواثبان من حولي.

- لست أشكّ في أنّه شيء رائع، لكنّني لا أعرف ركوب الخيل.

- أرجوك يا روزا، الطفلان يلحّان. سيساعدك صبي الاسطبل.

هكذا كان الأمر معها دائماً: لا سبيل إلى معاكسة إرادتها.

دخلتُ إلى الاسطبل مثلما غنّيتُ في الحفل، لا لشيء إلا نزولاً عند رغبة البارونة. وهدّأت رائحة الروث والعرق وحوافر الخيل من روعي. فقد اكتشفت في غروس-بارتش أنّ رائحة الحيوانات تبعث الطمأنينة في النفس.

ما إن اقتربت من الحصان حتّى حَمحَمَ، ورفع رأسه. وضعت ماريا ذراعها على رقبته وقالت:

- كُن وديعاً!

أشار صبي الاسطبل إلى رِكاب السرج، وقال:

- أدخلي قدمك ها هنا يا فرو ساور. كلا، القدم اليُسرى. حسناً، الآن استعدّي للوثب. استندي عليّ.

حاولتُ، لكنّني كدت أسقط إلى الخلف لولا أنّه أمسك بي. انفجر ميكائيل ويورغ ضاحكَين، فنهرتهما ماريا:

- أهكذا نعامل أصدقاءنا؟

حاول ميكائيل أن يعتذر:

- أترغبين في ركوب فرسي القزم؟ فهو أصغر.

t.me/qurssan

ثمّ أردف يورغ:

- سنساعدك على الركوب!

وهبّ يدفعني من ربلتي:

- هيّا!

وانضمَّ إليه ميكائيل يدفع هو أيضاً.

لم تلبث ماريا أن استغرقت في الضحك. ضحكة طفولية كشفت عن أسنان صغيرة. وحَمحَمَ الحصان من جديد.

رفعني صبي الاسطبل من خصري، ووضعني على السرج طالباً منّي أن أجلس على نحو مستقيم، وألّا أسحب الزمام. فهو من سيقود الدابّة. خرجنا من الاسطبل، وانطلق الحصان يخبّ. بالكاد كنت أهتزّ، إذ اعتمدت على ساقي لكي لا أفقد التوازُن.

قمنا بجولة صغيرة أمام الاسطبل، الصبي يسحب الحصان بالحبل، وأنا فوقه أميل معه حيث مال.

سألت البارونة:

- أراقك هذا يا روزا؟

شعرتُ بنفسي مثيرة للضحك. شعور مبالغ فيه لم أستطع التخلّص منه. لقد عرضت عليّ ركوب الحصان من باب حُسن الضيافة، لكنّ حركاتها كشفت على أنّنا لا ننتمي إلى العالم نفسه.

قلت:

- شكراً. الطفلان محقّان: هذا رائع.

صاح ميكائيل في صبيّ الاسطبل:

- انتظر!

قصدني الطفل جارياً، ومدّ لي سَوطه. ماذا عساني أصنع به؟

t.me/qurssan

لم يكن الحصان بحاجة إلى تهديد. فهو طيّع مثلي تماماً. تناولته وطلبت من الصبي أن ينزلني.

قُدِّم لنا في شرفة الحديقة مشروب منعش، وعُهد بالطفلَين إلى مربيّتهما بعد أن غيّرا ملابسهما وجاءا لتوديع أمّهما التي ظلّت بملابس الفروسية. لم ينتقص شعرها المنفوش شيئاً من أناقتها، وهو أمر كانت ماريا تدركه. قالت وهي تودّعهما:

- طيّب، اذهبا لتلعبا!

كنت متحفّظة، والبارونة لا تعرف السبب. أمسكتْ يدي بين يديها كما كانت تفعل مع جوزيف، وقالت:

- لم يمت، هو مفقود فحسب. لا تدعي اليأس يتسرّب إلى نفسك.

ما كان يشغل بالي في نظرها، وهو أمر لم يكن يداخلها فيه شكّ، هو التفكير في غريغور. كلّما ذكّرتني، هي أو غيرها، بالحالة النفسية التي يُفترض أن أكون عليها، أيّ حالة زوجة محزونة، إلّا وانتابني الخوف من نفسي.

لم يكن غريغور قد عزَبَ عن فكري. كان جزءاً منّي مثل ساقَيّ أو ذراعيّ. كلّ ما في الأمر هو أنّه كان حاضراً في ذهني دون أن يشغله تماماً بحيث أقضي كل أوقاتي أفكّر فيه. فالمرء لا يمشي وهو مركّز ذهنه على حركة قدميه، ولا يغسل الملابس وهو يفكر في حركة ذراعيه. كانت حياتي تمضي دون أن يعرف عنها شيئاً، مثلما كانت أمّي تدعني في المدرسة وتعود إلى البيت من دوني، أو لمّا أضعت القلم الجديد الذي أهدتني. لعلّ أحداً سرقه أو جمعه مع لوازمه دون أن ينتبه. لم يكن بإمكاني تفتيش محافظ رفاقي. القلم النحاسي الذي

t.me/qurssan

اشترته لي أمّي أضعته، وهي لا تعلم بذلك. كانت ترتّب سريري وتطوي ملابسي غير مدركة ما وقع. كان شعوري بالتقصير نحوها من الضخامة بحيث لم أجد بدّاً لكي أتحمّله سوى أن يخفت حبّي لها، ان أحفظ السرّ ولا أخبرها بشيء. كان السبيل الوحيد للاستمرار في حبّ أمّي هو خيانة هذا الحب.

ثمّ أضافت ماريا:

- حتّى حين يفقد المرء الأمل تعود الأمور إلى نصابها في نهاية المطاف. تذكّري ذلك المسكين شتوفنبرغ. كنّا نعتقد أنّه سيظل أعمى بعد أن داست سيارته قنبلة في تونس. صحيح أنه فقدَ عيناً، لكنّه اليوم بخير.

- ليس عيناً فحسب...

- نعم، فقدَ يده اليُمنى أيضاً، وخنصر اليد اليُسرى. لكنّه لم يفقد سحره. طالما قلت لنينا زوجته: لقد تزوّجتِ أوسم الرجال.

وذهلت من الحرية التي كانت تتحدّث بها عن رجل لم يكن زوجها. لكن الأمر لم يكن فجوراً، فماريا امرأة عفيفة. كان مجرّد إعجاب طاهر.

واسترسلت تقول:

- يعجبني الحديث مع كلوس في الموسيقى والأدب، مثلك تماماً. كان يحلم في طفولته أن يصير موسيقاراً أو مهندساً معمارياً. لكنّه حين بلغ التاسعة عشرة، التحق بالجيش. يا للأسف! كان صاحب موهبة. كثيراً ما سمعته يدين هذه الحرب التي طالت أكثر من اللازم. وهو يرى أنّنا سنخسرها. ورغم ذلك، طالما قاتلَ استجابة لنداء الواجب. ربّما لأنّه شخص مؤمن. بينما كنّا نتحدّث ذات يوم، ذكر بضعة أبيات لشاعره المفضّل ستيفان جورج: «شاعر

t.me/qurssan

أبكم يفعل ما بوسعه/ منتظراً وهو ساهم أن تهبّ السماء لمساعدته»
إنّها الأبيات الأخيرة من ديوان فارس بامبيرغ. على أنّ كلاوس لا ينتظر العون من أحد. صدّقيني، إنّه يتصرّف من تلقاء نفسه، وهو لا يخشى شيئاً.

تركَتْ يديّ، وشربَتْ ما بقي في كأسها. لا بدَّ أنّ الاسترسال في الكلام أشعرها بالعطش. وأتت الخادمة بحلوى فواكه وكريم شانتيه، فضربت ماريا على صدرها وقالت:

- يا للهول، كم أنا شرهة! آكل حلويات كلّ يوم. لكنّني لا آكل اللّحم أبداً، ربما شفع لي هذا؟

كان ذلك تصرُّفاً غريباً في تلك الأيّام. لم أكن أعرف أحداً يُعرض طوعاً عن اللّحم، باستثناء الفوهرر. بل حتّى الفوهرر لم أكن أعرفه حقّاً. كنت أعمل لديه، لكنّني لم ألتقه البتّة.

وأخطأت ماريا من جديد في تأويل صمتي:

- أراكِ محزونة يا روزا اليوم.

لم أرَ فائدة في الدفاع عن نفسي. وأضافت:

- ينبغي أن تبحثي عن شيء تروّحي به عن نفسك.

دعتني إلى الطابق العلوي. كانت تلك أوّل مرّة أدخل إلى غرفتها. توجد فيها نافذة كبيرة تشغل جداراً بكامله تقريباً، تنشر نوراً دافئاً. وفي وسط الحجرة مائدة دائرية من الخشب الغامق، تعلوها كومة من الكُتُب. وفي كلّ الأرجاء تنتشر مزهريات مليئة بالورود، بينما شغلَ البيانو ركناً، وعلى مقعده، وكذا على السجّاد، تناثرت أوراق كتبت عليها مقطوعات موسيقية. التقطتها ماريا ثمّ جلست ودعتني:

- تعالي.

t.me/qurssan

وقفت متسمّرة خلفها. فوق البيانو عُلّقت صورة كبيرة لهتلر.

تُظهر الصورة ثلاثة أرباعه. عيناه تنظران إلى الكاميرا. عينان ا خطتان يعلوهما حاجبان، وخدّان مترهّلان. يرتدي معطفاً طويلاً .ادي اللون، مفتوحاً بحيث تظهر بارزة النياشينُ التي كسبها في الحرب الكُبرى. كان أحد ذراعيه مطويّاً، والكفّ على الخصر: أشبه ,امّ توبّخ ابنها، أبعد ما يكون عن مقاتل، أقرب إلى ربّة بيت وقفت ,رتاح لحظة بعد أن غسلت البلاطة. كانت صورته تشي بشيء من الأنوثة بحيث يبدو شنبه كما لو أنّه مصطنع، ألصقه من توّه ليؤدّي وصلة في أحد الملاهي. وهو أمر لم يسبق لي أن لاحظته من قبل.

التفتت ماريا، فرأتني واقفة أتأمّل الصورة.

- هذا الرجل سينقذ ألمانيا.

كيف كان أبي سيتصرّف لو سمعها؟

- في كلّ مرّة ألقاه، يتهيّأ لي أنّني أتحدّث إلى نبيّ. في عينيه البنفسجيتين جاذبية. وحين يتكلّم، يخيّل إليك أنّه يحرّك الهواء من حوله. لم أعرف في حياتي شخصاً بهذه الكاريزما.

ما الشيء المشترك بيني وبين هذه المرأة؟ لماذا أنا في غرفتها؟ لماذا ألفي نفسي منذ فترة في أماكن لا أرغب في أن أوجد فيها، ومع ذلك أرضى بالحضور فيها من دون ممانعة؟ لماذا يزداد إذعاني كلّما خُطف منّي شخص عزيز؟ إنّ القدرة على التكيُّف هي سرّ قوّة الكائن البشري، لكنّني كلّما أمعنت في التكيُّف، زاد شعوري بفُقدان آدميّتي.

- يخيّل إليّ أنّه يتلقّى كلّ يوم سيلاً عارماً من الرسائل تبعثها إليّه نساء معجبات! لمّا تعشّيت معه بلغَ بي التأثُّر بحيث أنّني لم ألمس صحني، حتّى أنّه قال لي لحظة توديعي وهو يقبّل يدي -محاولةً تقليد

t.me/qurssan

صوته- «حاولي أن تأكلي أكثر يا ابنتي العزيزة. ألا ترين كم أنتِ نحيلة؟».

فاعترضتُ كما لو أنّني أجيب عن سؤال:

- لستِ نحيلة على الإطلاق.

- هذا ما أعتقده أنا أيضاً. على الأقل لست أنحل من إيفا براون مع أنّني أطول منها.

زيغلر أيضاً ذكرَ عشيقة الفوهرر السرّيّة. كان التفكير فيه بمحضر البارونة أمراً غريباً. أتُراها لاحظت شيئاً؟ هل تغيّرت سحنتي حين فكّرت في زيغلر؟

- لكنّ هتلر أضحكني كثيراً كذلك. لمحتني أُخرج مرآة صغيرة من حقيبتي، فقالَ لي إنّه كان يملك مثلها في طفولته. عمَّ صمت مطبق. وسأله كليمانس: ماذا كنت تصنع بمرآة نساء أيّها الفوهرر؟ يا لها من وقاحة! فأجابه هتلر: كنت أستعملها لأعكس أشعة الشمس وأبهر المعلّم. استغرق الجميع في الضحك -وضحكت ماريا ظانّة بأنّني سأجاريها- لكنّ المعلّم أنذره ذات يوم. وخلال الاستراحة قرأ هو ورفاقه خلسة ما دوَّن المدرّس في السجلّ. بمجرّد ما دقّ الجرس، عادوا إلى مقاعدهم، ومضوا يغنّون جماعةً: «هتلر وقح، يبهر زملاءه في الصفّ». كانت هذه هي الملاحظة المدوّنة على السجلّ. . . غنّوها كما لو كانت أنشودة. بيد أنّ المعلم كان على حقّ. فقد كان هتلر يحمل بذور الشغب، وهو شيء لازمه إلى الآن بوجه من الوجوه.

- ألهذا السبب سينقذ ألمانيا؟

قطّبت ماريا حاجبيها:

- لا تظنّيني غبيّة يا روزا. لست أعِد أحداً بذلك.

t.me/qurssan

فقلت:

- المعذرة، لم أقصد إساءة الأدب معك.

وكنت صادقة.

- نحن بحاجة إليه، وهو يعرف هذا. لو خُيّر الناس بين هتلر وستالين، لاختاروا كلّهم هتلر. وأنت، ألا تختارينه؟

كانت معرفتي بستالين والاتحاد السوفييتي لا تتجاوز ما قاله لي غريغور: الجنّة البلشفية مأهولة بأكواخ يسكنها الأبالسة. حنقي على هتلر يعود لأسباب شخصية. فهو قد حرمني من زوجي، وأنا أجازف بحياتي كلّ يوم من أجله. الشيء الذي كنت أكرهه هو أنّ مصيري بين يديه. فهو يطعمني، وطعامه يمكن أن يقودني إلى حتفي. لكنّ إعطاء الحياة، كما كان يقول غريغور، هو في العمق دائماً حُكم بالموت. فمقابل الخلق، هنالك دائماً شبح الإبادة.

سألت البارونة من جديد:

- وأنت ألا تختارينه يا روزا؟

كدت أحدّثها عن ثكنة كراوزندورف، وكيف عاملتنا الشرطة العسكرية حين ظنّوا أنّنا تسمّمنا، لكن عوض ذلك، هززت رأسي على نحو آلي مؤيّدة. لماذا كان قدري كذائقة سيثير شفقتها؟ لعلّها كانت تعلم بذلك. فالبارونة تتعشّى مع هتلر، وتدعو زيغلر إلى حفلاتها. أكان الملازم صديقها؟ وفجأة تملّكتني رغبة في أن أتحدّث عنه بدل هتلر. وددت أن أراه من خلال عينيها. وفجأة لم يعد لمصيري كذائقة أيّ أهمية.

- كلّ تغيير له جانب سلبيّ للأسف. لكنّنا نعيش جميعاً في ألمانيا الجديدة حياة أفضل. وأنت أيضاً.

رفعتُ غطاء مفاتيح البيانو طاوية بذلك مؤقّتاً صفحة القضية

t.me/qurssan

الألمانية. لديها موضوع آخر. فماريا تهتمُّ بكلّ شيء، وبالشعر نفسه. بإمكانها أن تحدّثك عن الفوهرر أو عن حلوى الفواكه وكر... الشانتيه. أن تنشد قصيدة لستيفان جورج أو تغني مقطوعة لفر... الكوميدي هارمونست التي منعها قائدها المبجّل: بالنسبة إليها ... الأمور تتساوى.

لم ألُمْها على ذلك، إذ لم يعد بوسعي أن ألوم أحداً. بالعكس، كانت تعجبني الطريقة التي تهزّ بها رأسها وحاجبيها وهي تحثّني على الغناء.

t.me/qurssan

27

سألتُ ألبرت عمّا إذا كان لقي هتلر شخصياً. بالطبع التقاه، يا
ا، من سؤال! والتمست منه أن يصف لي شعور المرء حين يقترب
ـه، فذكر هو أيضاً أنّ في عينيه جاذبية.

- ولكن لماذا تتحدّثون جميعاً عن العينَين؟ وبقية جسده، ألا
ستحقّ النظر؟

ربّت على فخذي.

- يا لك من مشاغبة!

- لا تمزح! ها أنت تتهرّب من سؤالي! صف لي كيف هو؟

- لا أريد أن أتحدّث عن مظهر الفوهرر الجسدي.

- ساعدني لكي أراه إذاً. خذني إلى فولفشانزي.

- كوني عاقلة، دعك من هذا!

- خبّئني في صندوق شاحنتك الصغيرة.

- ألم تسبق لك رؤيته حقّاً؟ حتّى خلال الاستعراضات العسكرية؟

- أتأخذني؟

- أتظنّين نفسك ذاهبة إلى حفل؟ هناك حواجز من الأسلاك

t.me/qurssan

الشائكة إنّ كنت لا تعلمين، وهي مكهربة، والغام: لا يمكن أن تصوّري عدد الأرانب البرّية التي لقيت حتفها بسبب الألغام.

- يا للفظاعة!

- فهمتِ الآن؟

- ولكنّني سأدخل معك.

- الظاهر أنّك لم تفهمي. للوصول إلى المكان المحصّن الذي يعيش فيه هتلر، يلزم التوفّر على جواز مرور. وللحصول على الجواز تلزم دعوة شخصية. وكيفما كان الحال، فهو يخضع للتفتيش. ليس كلّ الناس مرحّب بهم عند هتلر.

- يا له من رجل عديم الكرم.

- كفى.

أزعجه مزاحي، كما لو أنّني انتقصت من مقامه.

- هو لم يشيّد مقرّ قيادته وسط الغابة لكي يدخله أيّ كان كما لو أنّه داخل إلى طاحون.

- ألم تقل إنّ هذا المكان يعيش فيه ألفا شخص، ويشتغل فيه أربعة آلاف! قرية آهلة! كيف لهم أن ينتبهوا إلى دخولي؟

- لست أفهم لماذا تصرّين كلّ هذا الإصرار. ليس ثمّة شيء يستحقّ المشاهدة في ذلك المكان الذي لا تشرق فيه الشمس أبداً.

- لماذا لا تشرق فيه الشمس أبداً؟

تنهّد منزعجاً.

- لأنّهم نشروا شبكة بين الأشجار كدّسوا فوقها الأوراق. وفوق أسقف المخابئ غرسوا أشجاراً وأحراشاً. إذا نظرت من الأعلى، لا ترين غير الغابة. لا أحد يستطيع العثور علينا.

فعلّقت مازحة:

t.me/qurssan

- يا لها من عبقرية!

لماذا كنت مصرّة على التصرُّف كذلك؟ ربّما لأنّ كلّ تلك الطاقة التي صرفت من أجل التمترس والاختباء تحت الأرض أثارتني.

- ها أنت ستثيرين حفيظتي.

- أريد أنِ أعرف أين تقضي وقتك. هل توجد نساء هناك؟

تظاهرَ بأنّه ينظر إليّ شزراً.

- لم تجبني.

قال وهو يبتسم:

- ليس الكثير، للأسف.

قرصتُ ذراعه، فأمسك بيدي، وضغطها. لكنّني لم أستسلم.

- أحضر لي شعرة من الفوهرر على الأقل. سأصنع لها إطاراً.

- ماذا تخرّفين؟

واحتضنني.

كان النهار على وشك أن يطلع، والنور بدأ ينفذ من الكوّات. داعبتُ نتوء الوشم الموجود أسفل ذراعه الأيسر، حرفي AB ورقم التسلسل. دغدغَتْه مداعبتي، فانتفض. واصلت الدغدغة إلى أن أمسك بكفّي وأوقفه.

- ماذا ستصنعين بشعرته؟

قلت بينما كان يعضّ ترقوتي وذراعي:

- سأعلّقها فوق سريري... وإذا تعذّر عليك نزع شعرة منه، فأتني بشعرة من كلبته بلوندي.

- أنت إذاً ترغبين في الحصول على تذكار من رجل يفعل هكذا. ورفع زاوية فمه إلى الأعلى مِرَاراً محاكياً حركات الفوهرر.

t.me/qurssan

استغرقتُ في الضحك حتّى ترقرقت عيناي، وجاراني ألبرت ضحك حادّ متقطّع.

- دافعتَ عنه في البداية، ثمّ ها أنت تسخر منه؟!

- لا ذنب لي إن كانت حركاته كذلك.

- أظنّك اختلقت كلّ هذا. أنت إنّما تردّد تعليقات منتقديه والساخرين منه! وبهذا فأنت تخدم أعداءه!

لوى معصميّ حتّى كادا ينكسران. وقال متحدّياً:

- أعيدي ما قلت!

طلع الفجر وحان موعد افتراقنا، لكنّني لم أستطع تحويل بصري عنه الآن بعد أن اتّضحت قسماته. كانت تغضّنات جبينه واستدارة ذقنه تخفي شيئاً بثّ الخوف في نفسي. تفرّسته دون أن أستطيع الإحاطة بصورة وجهه كاملة. ولم ألمح غير صلابة فكّه البارز إلى الأمام، وشقّ حاجبه العميق الشبيه بأخشاب سقالة منهارة. ما يُظهر ابتذال تلك الصلابة هو فقدان التناسُق تحديداً. لكن رغم ابتذاله، قد يكون مثيراً شأنه شأن كثير من الأشياء المبتذلة.

- هل تسمح أن أقول لك شيئاً؟ كان حقّك أن تكون ممثّلاً لا ملازماً في الشرطة العسكرية!

- كفى، لقد تجاوزتِ الحدود.

خنقني بإحدى يديه بينما شلّت يده الأخرى معصميّ. ضغط لبضع ثوانٍ، لستُ أعرف عددها، فشعرت بألم صعد حتّى صدغي. ولم يحرّرني إلّا بعدما جحظت عيناي.

مسح على صدري، ثمّ مضى يدغدغني بأصابعه وأنفه وشعره. ورغم أنّني تصنّعت الضحك، كان الخوف ما زال يتملّكني.

t.me/qurssan

حكى لي ألبرت العديد من طرائف الفوهرر. والظاهر أنّ المحاكاة كانت تستهويه: حين كان يجلس إلى مائدة الطعام، كثيراً ما يحكي حوادث ماضية من حياة معاونيه. كان يتمتّع بذاكرة قويّة، إذ لم يكن يغفل أيّ تفصيل. ولم يكن المعاونون يتبرّمون من أن يضحك منهم الضيوف، بل كان ذلك يشرّفهم.

كان هتلر شديد التعلّق بكلبته بلوندي. يأخذها كلّ صباح في جولة لتقضي حاجتها وتجري، وهو ما كان يزعج إيفا براون. لعلّها كانت تغار من الكلبة لأنّ عشيقها يسمح لها بدخول غرفته، بينما لم تُدعَ هي أبداً إلى مركز قيّادة رازتنبورغ. هذا علاوة على أنّها لم تكن عشيقة رسمية. وبينما كانت تنعت بلوندي بالعِجلة، كان هتلر يكره الكلاب الصغيرة التي لا تليق برئيس دولة عظيم، ويلقّب نيغوس وستازي، كلبَي إيفا الضئيلَين، بالمكنستين الصغيرتَين.

- أتعلمين أنّها تغني على نحو أفضل منك؟

- إيفا براون؟

- كلا، بلوندي. أقسم لك. يأمرها بأن تغنّي، فتشرع في إصدار أنين متصاعد. كلّما أمعن في تشجيعها والثناء عليها، استمرّت في الأنين حتّى يستحيل أنينها إلى ما يشبه العواء. فيقول لها: «هذا ليس غناء يا بلوندي، ينبغي أن تغنّي بصوت أخفت مثل زارا ليندر». أقسم لك بأنّها تطيعه.

- هل شاهدت هذا بأمّ عينيك أم سمعته؟

- حضرت بعض حفلات الشاي التي تُقام ليلاً. هو لا يدعوني دائماً، وأنا لست متحمّساً في الحقيقة لحضورها. فهي غالباً ما تمتدّ إلى وقت متأخّر، لأنّ الفوهرر لا ينام أبداً قبل الخامسة صباحاً.

- كما لو أنّك أنت تنام أكثر...

t.me/qurssan

داعبَ طرف أنفي.

- وبوسعك أن تعود إلى فولفشانزي في أيّ وقت يروقك رغم حالة الطوارئ وإطفاء الأنوار ليلاً؟

- لن أعود. سأنام فوق أريكتي في كراوزندورف، في الثكنة.

- أجننت؟

- أتظنّين سريري أريح؟ ثمّ إن الغرفة بالغة الضيق. هذا علاوة على أنّها تكون في هذا الوقت ملتهبة، ولا يمكنني تشغيل المروحة الموجودة في السقف لأنّ ضجّتها تثير أعصابي.

- نومك خفيف يا مسكين!

- وأنت؟ كيف تستدركين النوم الذي تضيّعينه معي؟

- منذ أتيت للعيش هنا وأنا أعاني من السُّهاد.

- كلّنا نعاني من السُّهاد، حتّى هو.

حكى لي ذات يوم أنّ معاوني الفوهرر لجؤوا إلى الزيوت النباتية لمقاومة الحشرات التي غزت المكان، فقضوا، عن غير قصد، على الضفادع. لم يكن هتلر يستطيع النوم من دون نقيقها الحادّ الرتيب. أصابه الأرق، فبعث رجاله إلى الغابة ليبحثوا عن ضفادع أخرى.

تخيّلت رجال الشرطة العسكرية وهم يغوصون ليلاً في وحل المُستنقعات حيث يتوالد البعوض بسلام، وحيث العلق متعطّش للدماء. أصابَ هؤلاء الرجال الألمان الذعر من العودة خاويي الوفاض. وبذلك قضوا الليل يطاردون الضفادع المتقافزة في الوحل، دون أن يقبضوا عليها. راحوا ينادونها بلطف مثلما أنادي أنا زارت، يفرقعون بألسنتهم كما لو أنّهم يودّون تقبيلها. ثمّ حلّت البهجة:

t.me/qurssan

ـمحت أيديهم في الإمساك بإحداها، لكنّها ما لبثت أن أفلتت منهم.
ـالقبض عليها من جديد، ارتموا على وجوههم في الوحل.

لقد كانت هذه الليلة في الحقيقة ضربة حظّ بالنسبة إليهم. لقد اذن لهم هتلر بأن يعودوا إلى الطفولة، ويلعبوا مثلما لم يعد بإمكانهم أن يلعبوا. أعيدت الضفادع إلى المكان، وتخيّلتُ رجال الشرطة العسكرية يتضرّعون: أتوسّل إليك أيّتها الضفدعة الجميلة، نقّي! نقّي أيّتها الحسناء! هكذا برهنَ الفوهرر مرّة أخرى على ما في قلبه من رأفة. ثمّ خلد إلى النوم.

نام ألبرت أيضاً وأنفه مضغوط إلى بطني. وبقيت مستيقظة أترقّب أدنى حفيف. كان المخزن هو وكرنا نحن، إذ لكلّ جريمة وكرها.

t.me/qurssan

28

جفا النوم عيني الذئب تلك الليلة. بإمكانه أن يتحدّث من دون انقطاع حتّى الفجر. نام رجال الشرطة العسكرية الواحد تلو الآخر. يتأرجحُ الرأس ثمّ يسقط على الكفّ، يتهادى المعصم المثبّت على المائدة، لكنّه يظلّ يسند الرأس. المهمّ هو أن تستمرّ الحراسة حتّى لو بقي حارس واحد مستيقظاً. الذئب لا يرغب في النوم هذه الليلة، لا يريد الاستسلام. فالنوم يمكن أن يكون فخّاً. رُبّ نائم أغمضَ عينَيه واثقاً من أنّه سيفتحهما في الصباح، فدارت عليه الدوائر. النوم كالموت، لا يمكن الوثوق به. كانت أمّي تقول له: نمْ، وهي تغمز بعينها السليمة بينما الأخرى مطوّقة بهالة سوداء، لأنّ زوجها كان يضربها، لا سيّما إذا ثمِل. تقول أمّي: اصمت، نمِ الآن يا ذئبي الصغير. لكنّ الذئب كان يعرف أنّ عليه أن يظلّ دائم الترقُّب، لا تغفل له عين لأنّ الخونة يحيطون به من كلّ جانب. هناك دائماً عدوّ متأهّب لتصفيتك. امسك بيدي وابقَ معي هنا، أمّي كانت تضغط عليهما، فيومئ الحارس برأسه موافقاً. ينتظر أن يفعل المسحوق مفعوله، أن ينام الفوهرر. يساعده إلى أن ينهار. يراقب تنفّسه: فمه مفتوح وهو يغطّ في نوم عميق كالرضيع. الآن يمكن أن ينصرف ويتركه يستريح.

t.me/qurssan

يبقى الفوهرر بمفرده بينما الموت يتربّص به، خطر يتعذّر التحكّم فيه، عدوّ لا يمكن أن يقهر. أنا خائف. ممَّ أيّها الذئب الصغير؟ من الهولندية البدينة التي حاولت تقبيلي على مرأى من الناس في الألعاب الأولمبية ببرلين. ما أغباك! أنا خائف من الخونة ومن الغيستابو، من سرطان المعدة. تعالَ يا صغيري، سأدلّك بطنك. سترى، سيزول وجعك. بالغت في أكل الشوكولاته. السمّ، أنا خائف من السمّ. لكن أنا هنا بجانبك، أذوق طعامك مثلما تسكب أمٌّ الحليب من الرضّاعة على ظهر يدها، مثلما تذوق أمّ ملعقة الحساء، فإذا وجدته بالغ السخونة، نفخت عليه، وتأكّدت من أنه بارد قبل أن تلقمه صغيرها. أنا هنا، أيّها الذئب الصغير. بفضل إخلاصي يمكن أن تضمن خلودك.

t.me/qurssan

29

بسطنا مانشفنا على العشب. ماء البحيرة بالكاد يتحرّك، لكنّ الحرارة كانت مناسبة للاستحمام. دخلت أورسولا وماتياس إلى الماء، ورفضا الخروج منه. نامت هايكي مستلقية على جنبها، بينما جلست إيلا فوق قارب مسحوب من الماء على الضفّة، وقد شبكت ساقيها، وبين الفينة والأخرى تعيد حمّالات سروال السباحة فوق كتفيها. أمّا ليني، فسارعت إلى الارتماء في الماء، وظلّت تسبح كما لو أنّها في سباق، في حين مضيت أنا أقرأ رواية استعرتها من ماريا، وكنت أرفع بصري عند الانتهاء من كلّ صفحتين لكي أطمئنّ على طفلَي هايكي.

أثارَ انتباهي شيء منتصب غير بعيد عن مناشفنا: مجدافان، أحدهما مغروس في الرمل والثاني سُمِّرت عليه خشبة فيما يشبه الصليب، عُلّقت في إحدى ذراعيها خوذة عسكرية.

متى سقط هذا الجندي؟ وفي أيّ حرب؟ ثمّ، أتُراه قتل هنا؟ أم أنّ أباً أو أمّاً أو أختاً قرّروا تخليد ذكراه هنا أمام البُحيرة، لأنّ المكان هادئ ومريح، ولأنّه المكان الذي شارك فيه هذا الابن أو هذا الزوج أو هذا الأخ في مسابقات غطس مع رفاقه؟

t.me/qurssan

إذا كان غريغور أيضاً يستحقّ، عاجلاً أم آجلاً، أن يُنصب له صليب في مكان أحبّه، فلن يكون بإمكاني أن أخلّد ذكراه.

وسمعت فجأة صراخ أورسولا تنادي أمّها: «ماما!» فالتفتُّ. استيقظَت هايكي مذعورة.

صاحت الطفلة: «ماما، ماتياس ابتعد كثيراً عن الضفة، سيغرق!».

اندفعت إلى الماء وهايكي تتبعني. قالت:

- أنا لا أعرف السباحة، الحقي به أرجوك.

ارتميت في الماء وأنا أنادي ليني التي لم تعد تبدو سوى نقطة صغيرة في البعيد، لكنّها لم تسمع ندائي. هي السبّاحة الماهرة، أمّا أنا فكنت بالكاد أطفو على الماء، بطيئة وأتعب سريعاً. أين ذهبت إيلا؟ تقدّمتُ سابحة على صدري. صاحَت هايكي إلى ابنها مطمئنة: «لا تخفْ»، بينما راحت أورسولا تقلّدها. سبحتُ بأقصى سرعة أستطيعها، ورأيت رأس ماتياس يغطس ثمّ يظهر. كان يتخبّط ويشرب الماء. لم أشأ أن أتحمّل تلك المسؤولية بمفردي. لماذا لا تعود هذه البلهاء، ليني؟ وإيلا، مع أيّ عشيق عابر اختفت حتّى لا تشهد هذا الموقف؟ كانت أنفاسي قد بدأت تنهك بينما كان رأس ماتياس لا يزال بعيداً. استرحتُ لحظة، لحظة قصيرة، ثمّ انطلقت، فلاحَ لي ماتياس يغطس من جديد ويختفي. اندفعت بكلّ ما أوتيت من قوّة، وبينما كنت أتقدّم، لاحَ لي رجل يسبح بسرعة. غطس ثمّ ظهر بعد هنيهة والولد على ظهره. وما هي إلا لحظة حتّى أعاده إلى الضفّة.

عدت لاهثة. كان ماتياس قد استرجعَ أنفاسه وهو مستلقٍ على حافّة الماء.

t.me/qurssan

صرخت هايكي في وجهه:

- لماذا توغّلت في البحيرة هكذا؟ ألم آمرك بألّا تبتعد؟

- وددت أن ألحق بليني.

- يا لك من غبيّ!

قالت إيلا:

- كفى، اهدئي. كلّ شيء على ما يرام الآن.

كان يقف بجانبنا رجلان شبكا أيديهما، يتابعان المشهد، لعلّ أحدهما هو من أنقذ ماتياس.

قلت:

- شكراً على أنّك سبقتني. كانت أنفاسي على وشك أن تنقطع.

أجابني أطولهما:

- لا شكر على واجب.

ثمّ توجّه إلى الطفل قائلاً:

- إن رضيت، علّمتك السباحة، لكن شريطة ألا تجازف بالتوغّل في الماء طالما لم تتعلّم.

هزّ ماتياس رأسه وهبّ واقفاً فجأة وكأنّ شيئاً لم يقع.

مدّ له الشاب يده وهو يقول:

- اسمي هاينر.

قدّم الطفل نفسه بدوره.

فقال الآخر:

- وأنا إرنست، الرقيب إرنست فورتيش.

ثمّ ضربَ ضربة خفيفة على كتف هاينر.

جنديان شابّان من القوات البرّية الألمانية. كان هاينر شغوفاً

t.me/qurssan

السينما، يقضي معظم وقته في الجبهة خلف الكاميرا، لكنّه شغل أيضاً وظيفة عارض أفلام. قال لنا شارِحاً بعد لحظة وهو جالس على منشفة هايكي:

- الفنّ السينمائي الحقيقي اليوم هو الفيلم الوثائقي.

كنّا جالسين جميعاً، بما في ذلك ليني التي عادت بعد عومها الطويل بحيث لم تشهد شيئاً ممّا حدث. ثمّ أضاف هاينر:

- حين ستنتهي الحرب، سأعمل مخرجاً سينمائياً.

أمّا إرنست، فطالما حلم -بالمقابل- بالقتال في صفوف القوّات الجوّية. ذلك أنّه كان يرسم الطائرات ويصنعها مذ كان في المدرسة الابتدائية، لكنّه اضطرّ، بسبب قصور خلقي في البصر، إلى الاكتفاء بالانتساب إلى القوات البريّة.

كانا قد أقاما قاعة سينما غير بعيدة عن فولفشانزي، عبارة عن خيمة يعرضان فيها الأفلام المُباحة: وهي ليست كثيرة في الواقع. علّق إرنست بأنّ ذلك لا يمنع من أن تكون بينها بعض الدُّرَر. ثمّ أضاف وهو يحدّق في بشرة ليني الصافية، البادية من سروال الاستحمام الأسود:

- ليتكنّ تحضرن أحد العروض في يوم من الأيّام. سيكون أمراً رائعاً.

سألت إيلا عن عدد من أفلام زارا ليندر:

- هل لديكما باراماتا وسجن النساء؟ وماغدا؟ هذا هو فيلمي المفضل!

نشأت بيننا صداقة، لا سيّما عَبْر ليني التي استجابت عن طيب خاطر لإعجاب إرنست دون أن تتساءل إن كانت ترغب فيه فعلاً. انقادت لاشتهاء هذا الرجل كما لو أنّها تؤدّي مهمّة لا تستطيع

t.me/qurssan

رفضها. كانت ليني ضحيّة مثاليّة. لولا استبداد الخوف بها، لجسّدت الذائقة المثالية بيننا جميعاً.

لم يكن تصرّفي مع زيغلر يخالف تصرّفها.

بدت نظرات هيرتا في الصباح كما لو أنّها تلصّصت عليّ، وبدا صمت جوزيف كما لو أنّه يخفي خيبة. وفي كراوزندورف، فتّشني الحارس بحماس زائد، وشعرت كما لو أنّه يستبيح جسدي، لأنّه جسد داعر. ثمّ في المطعم، مضت إلفريد تتفرّسني كما فعلتُ يوم ارتديت فستاني ذي المربعات -منذ متى لم أخرجه من الخزانة؟ حتّى خلتها خمّنت ما أسرّ في قرارة نفسي. أو ربّما انتابتني هذه الهواجس لأنّني لا أستطيع أن أتصوّر نفسي أفلت من العِقاب.

غالباً ما كنت أبحث خلال فترة ما بعد الظهر عن آثار ألبرت في المخزن. لم يكن ثمّة داعٍ يدعوني إلى الذهاب إليه، وكنت آمل ألا تلاحظ هيرتا، التي تكون منهمِكة في إعداد الخبز، شيئاً. أمّا جوزيف، فيكون منشغلاً بالعناية بحديقة القصر حيث تلعب ماريا مع ميكائيل ويورغ إن لم يكونا مع مربّيتهما.

فتحتُ الباب الضَّخم، فزكمت أنفي رائحة التبن الجاف. رائحة صارت مرتبطة في ذهني لاحقاً بزيغلر، أتذكّره كلّما شممتها، فأشعر بردفَيّ يتفتّتان. ردفان هشّان يتكسّران.

لم أعثر لألبرت على أثر، مثلما لم أعثر على أثر لنا معاً. لا شيء من الأدوات والأثاث القديم نُقل من مكانه. كلّ شيء ظلّ كما هو. لم تغيّر لقاءاتنا شيئاً من مسار العالم. كانت تجري في زمن معلّق، وبمباركة مُخزية.

t.me/qurssan

30

هززته بينما هو نائم:

- هل سمعت يا ألبرت؟

بلع ريقا لزجاً وهو يغمغمُ:

- كلا، ماذا؟

- جلبة، كما لو أن أحداً يدفع الباب.

- لعلّه الريح.

- ريح غريب، لا يحرّك ورقة من أوراق الشجر.

قلت في نفسي: لعلّه جوزيف. هو يعرف الحقيقة منذ أسابيع، والآن قرّر أن يجهر بأنّه يعرف. قد تكون هيرتا حرّضته عليّ، قالت له: رضيتُ بأن أهان في بيتي، تحت سقفي. أتفهم معنى هذا يا جوزيف؟

ارتديتُ قميص النوم على عجل ونهضت.

سأل ألبرت:

- ماذا تصنعين؟

- ارتدِ ملابسك!

دفعته برجلي الحافية. لم أطق أن يرى حماي وحماتي منظراً فاحشاً عند فتح الباب.

t.me/qurssan

قام ألبرت، فرُحت أبحث على نحو غريزي عن كيف أخفيه. ولكن أين؟ كان الباب لا يزال يَصِرّ. لماذا لا يفتحه؟

لا بدَّ أنّهما جاءا بعد أن استبدّ بهما الغضب، لكنّهما ما إن وقفا أمام باب المخزن حتّى تسمّرا في مكانهما. لم يشاءا أن يريا هذا المشهد. قدّرا على الأرجح أنّ الأولى بهما أن يعودا إلى النوم. فأنا صرتُ بمثابة ابنتهما، ومن ثمّة يمكن أن يصفحا عنّي أو يكنّا لي ضغينة أبدية من دون فضيحة ولا محاسَبة. ضغينة خرساء مثلما يحدث في كلّ الأُسر.

استمرَّ اهتزاز الباب.

- هل سمعت الآن؟

أجاب ألبرت: «نعم»، وبدا لي صوته مشوباً بالقلق. وساورتني رغبة جامحة في إنهاء الأمر، فاندفعتُ نحو الباب وفتحته.

ما إن رآني زارت حتّى راح يموء. رأيتُ فأراً بين أنيابه الحادّة، اخترقت رأسه حتّى كادت تقطعه، فتراجعتُ مشمئزّة. لم يكن جوزيف وهيرتا عند الباب.

غمغمَ ألبرت:

- هديّة غير منتظَرة.

أدرك أنّ صبري عيل، وأنّني كنت أحاول أن أهدّئ من روعي.

- الهرّ يعرف أنّني هنا.

واحد على الأقل يعرف الحقيقة الآن: كلا، لا يمكن أن نظلّ بلا عقاب. اطّلع زارت على سرّنا. قتل فأراً، وحمله إلينا. كان ذلك أقرب إلى الإنذار منه إلى الهدية.

سحبني ألبرت إلى الداخل، وأعاد إغلاق الباب. طوّقني بين ذراعَيه بلُطف، ثمّ حضنني. كان خائفاً، ليس على نفسه -مِمَّ

t.me/qurssan

.سيخاف؟- بل عليّ. لم يكن يودّني أن أتعذّب بسبب علاقتنا. عانقته المرّة ليعلم أنّني أعزّه. وفكّرت في تلك الأثناء بأنّ حبّنا جدير الاحترام، وأنّه لا يقلّ قيمة عن غيره، عن أيّ شعور موجود على هذه الأرض، وأنّه لا يشينه شيء. ذلك أنّني لمّا كنت أحضن ألبرت بين ذراعَي، أحسستُ بأنّني أتنفّس من جديد. استلقينا في سكينة مثلما كنت أستلقي أنا ويولين على السرير في برلين.

t.me/qurssan

31

قد يستلطف المرء الضجّة التي تملأ المطعم إذا أغلق عينيه. طقطقة أواني المائدة على الصحون، هزيز الماء المنسكب، ارتطام الزجاج بالخشب، احتكاك الأسنان وهي تمضغ، وقع الأقدام على البلاطة، شقشقة الطيور ونباح الكلاب، أزيز جرّار يتسلّل عبر النافذة من بعيد. هذه هي الأصوات التي كانت تتخلّل وجباتنا. إنّ حاجة الإنسان إلى الأكل من أجل البقاء شيء مؤثّر.

لكنّني حين فتحت عينَيّ، رأيت الحرّاس ببزّاتهم وأسلحتهم المشحونة، وحدود القفص الذي أودعونا فيه، وسمعت جَلَبة أواني المائدة تتعالى من جديد كصدى لانفجار وشيك. وتذكّرت الليلة السابقة، والهلع الذي ركبني خشية اكتشاف أمري، والفأر المقتول. ما عدت قادرة على الاستمرار في الكذبة. كلّما وجدت نفسي مع شخص، يتهيّأ لي أنّها بادية عليّ، وأستغرب كيف أنّه لا يلاحظها. وينتابني القلق: سيراها طالَ الزمن أم قصر. كنت أعيش في ترقّب دائم.

بينما كنت خارجة لأستقلّ الحافلة ذلك الصباح، تمسّح الهرّ بكاحلي، فسحبته بفظاظة. بدا كما لو أنّه يهدّدني قائلاً: اطّلعت على سرّك، لست في أمان. سألَتْ هيرتا:

t.me/qurssan

- لماذا تتضايقين من الهرّ؟

فشعرت كما لو أنّ الموت غشاني.

خرجَت النساء وظللت أنا جالسة في مكاني. هدأت ضجّة المطعم، لكن صوت أظافر زارت وهي تكشط الباب ظلّ يعذّبني.

جلست إلفريد بجانبي على المائدة وقد وضعت ذقنها فوق مرفقها، وقالت:

- أأصابك عسر الهضم أيّتها البرلينية؟

حاولت أن أبتسم.

- السّمك يصيبني بحرقة في المعدة كما تعرفين.

- في هذه الحالة، عليكِ بالحليب، لكن تجنّبي السرقة هذه المرّة، أرجوك.

ضحكنا. أدارت إلفريد كرسيّها بحيث تستطيع متابعة ما يجري في الساحة.

كانت هايكي جالسة في الأرجوحة، وبيت تدفعها كتلميذتين في فُسحة مدرسة. لعلّهما لعبا هكذا في طفولتهما.

قلت وقد لاحظت أنّ إلفريد تنظر إليهما أيضاً:

- إنّهما صديقتان حميمتان.

- ومع ذلك غابت بيت يوم واجهَت هايكي تلك المشكلة.

كانت تلك أوّل مرّة تلمّح فيها إلى الإجهاض، مع حرصها على عدم التلفُّظ باسمه.

فعلّقت قائلة:

- ولكن هايكي هي من اختارت ألا تخبرها لسبب لا يعرفه سواها.

t.me/qurssan

- لأنّها لا تريدها أن تعلم بأنّ أب الجنين فتى في السابعة عشرة من العمر.

إلفريد أيضاً تعلم ذلك. لا بدَّ أن هايكي أسرّت لها بالأمر وهما في طريق العودة من الغابة.

ثمّ أضافت:

- ما زالت على صلة به. الناس هكذا، مهما كان السلوك، يبرّرونه بالحب.

تلقّيت هذه الجملة مثل طعنة خنجر. وتراءى لي من جديد باب المخزن، والقلق البادي على وجه ألبرت، ثمّ الفأر المقتول بين أنياب زارت. وكان عليّ أن أستجمع قواي لأردّ:

- وهل هذا خطأ في نظرك؟

- المشكلة أيّتها البرلينية هي أن الشخص يستطيع أن يبرّر أيّ تصرُّف يصدر عنه. يعثر دائماً على عُذر.

التفتت إليّ وأضافت:

- لو كانت تظنّ حقّاً أنّها على صواب، لما أخفت ذلك عن صديقتها. تعرفين لماذا لا تتحرّج منّا؟ لأنّ حبّها لنا أقلّ من حبّ بيت.

رفعت عينيها إلى جهة اليسار، كما لو أنّها تتعقّب فكرتها، ثمّ أردفت:

- وإلا فإنّ هايكي تتخيّل أنّ بيت ليست مستعدّة لمعرفة ذلك، أو لا تريد أن تعرف. المعرفة تشكّلُ عبئاً أحياناً. وهي تفضّل ألا ترهقها بذلك. على كلّ حال، فقد حالفها الحظّ بعثورها على من يحمل معها هذا السرّ، ولم تحتفظ به لنفسها.

t.me/qurssan

لقد كشفَت أمري. إنّها تتحدّث عنّي، وتدعوني لأعترف. لم
يكن من اللازم أن أحتفظَ بكلّ ذلك لنفسي. بإمكاني أن أتقاسم معها
العبء. هي ليست بيت. ستفهّمني.

أم تراها تقصد أنّني أتصرف على نحو أسوأ من هايكي؟

لم يعد ذلك يهمّني. وددت لو أكون صادقة مع إلفريد على
الأقل، وأن أتوهّم أنّني أفضل من الإنسانة التي صرتها. ستطمئنني
بأنّ الفأر المقتول ليس نذير شؤم، وسأصدّقها.

قامت واقتربت من أحد الحرّاس، وطلبت منه الذهاب إلى
المراحيض. أكانت تلك إشارة؟ أتُراها تريدني أن أتبعها، مثلما
فعلت في المرّة الأخيرة؟ أم قصدت أن توحي لي بعكس ذلك؟ لا
تُسرّي لي بشيء، ولا تجعليني شريكتك في الجريمة.

كانت تنّورتها تبلغ منتصف ربلتيها، وعضلات ساقيها تنشدّ
وترتخي بالتناوب تبعاً لحركة الكاحل ورأس القدم. مشيتها المستقيمة
المختالة تسحرني. والحقيقة أنّ افتتناني بإلفريد كان منذ البداية:
تأسرني كلّما وقع عليها بصري. لهذا السبب ربّما وجدت نفسي
أجري في إثرها، وأقول للحارس:

- أنا أيضاً أريد الذهاب للمراحيض.

بينما همّت إلفريد بإغلاق باب أحد المراحيض، أوقفتها.
سألت:

- ألن تقضي حاجتك؟
- كلا، أستطيع الانتظار. أريد أن أتحدّث إليك.
- أما أنا فلا أستطيع الانتظار.

t.me/qurssan

- إلفريد. . .

- اسمعي أيّتها البرلينية. ليس لدينا وقت. أأطلعك على سرّ تحفظينه؟

شعرت بكياني يرتجّ.

حشرت إلفريد يدها في أحد جيوبها، وأخرجت بحذر شديد سيجارة وعلبة عود ثقاب.

- آتي إلى هنا لأدخّن خلسة. هذا هو السرّ.

قرفصَت في أحد أركان المرحاض، وأشعلَت سيجارة. سحبت منها نَفَساً ونفثت الدخان في وجهي وهي تبتسم. كنت مستندة على عِضَادة الباب، وعوض أن يثبّط هذا التهوّر الصادر عن إلفريد أحياناً همّتي، زادني رغبة في الكلام. ستفهّمني وتواسيني.

وسُمع صوت نسائي في الخارج فجأة، فسحبتني إليها وأغلقت الباب بسُرعة. سحبت نَفَساً أخيراً من السيجارة وسحقتها على البلاطة. وضعت إصبعها على فمها وهمست: «ششت»، بينما دخلت امرأة وأغلقت على نفسها في مرحاض آخر.

ألفينا نفسينا متقاربتَين على غرار المرّة السالفة، لكنّ إلفريد لم تكن تقصد تخويفي هذه المرّة. كانت تنظر إليّ بعيتين تنضحان بمَكر لم يسبق لي أن رأيته فيهما، والسيجارة ما زالت بين أصابعها، بينما تلوّح بيدها اليُسرى لتبديد رائحة التبغ. كانت تتسلّى بانتهاك القواعد. مضى أنفها ينخر فأغلقته وهي تحشر عنقها بين كتفيها. كنّا قريبتَين ومتواجهتَين، وهي تغالب الضحك. ونسيت للحظة كيف لقيتها، وما الذي جذبني إليها. إنّ وجودي معها في المكان نفسه أشعرني بنوعٍ من الامتلاء، وولّد في نفسي انتشاء كذاك الذي تحسّ به تلميذة مدرسة ثانوية. كنّا رأساً لرأس، مراهقتَين مختبئتَين في

t.me/qurssan

«رحاض، تشتركان في سرّ بريء. سرّ قد لا يكون ضرورياً أن يضاف إلى لائحة الأسرار.

وبمجرّد ما غادرت المرأة المراحيض، قرّبت إلفريد وجهها من وجهي بحيث كاد جبينها يلامس جبيني، وقالت بصوت خافت:

- ماذا ترين؟ أأشعلها ثانية أم في ذلك خطورة؟

- لا بدَّ أنَّ الحارس يتساءل عمّا نصنع، لن يتأخّر في النداء علينا...

قالت وعيناها تتلألآن مَكراً:

- أنت محقّة.

أخرجت عُلبة الثقاب.

- لكن إن شئت إشعالها، سأنتظرك ريثما تفرغين.

- صحيح؟

- على الأقلّ سأسحب نَفَسَين.

قُدِح عود الثقاب، وأحرَقَت الشعلة الورق.

قالت وهي تضع السيجارة بين شفتَي:

- نَفَسٌ لكِ.

سحبتُ نَفَساً من السيجارة على نحو أخرق، وعوض أن أستنشق الدخان، ابتلعته، فشعرتُ بالغثيان.

قالت إلفريد مبتسمة وهي تستعيدُ السيجارة:

- أحسنت، لم تسعلي.

استنشقت الدخان بعمق وعيناها نصف مغمضتَين، وقد بدت عليها السكينة.

- ماذا ستفعلين أيّتها البرلينية إن ضُبطنا؟

أجبت وأنا أضع يدي على قلبها على نحو استعراضي:

t.me/qurssan

- سأبقى إلى جانبك.

- على كلّ حال، إن هم ضبطونا، فأنا من ستعاقَب. أمّا أنت فلا دخل لك.

عندئذ قرّر الحارس أن يطرق الباب:

- ألن تخرجا؟

ألقت إلفريد عقب السيجارة في الماسورة، وسحبت طرادة الماء. فتحت باب المرحاض حيث كنّا مختبئتَين وخرجنا.

عدنا على أعقابنا دون أن نتكلّم. وبدت إلفريد فجأة مركّزة على شيء لم أستطع تخمينه. لم تعد عيناها متلألئتين، وفارقت الضحكة وجهها، وتبخّرت الألفة التي كانت تعلوه قبل لحظات. وشعرتُ بما يشبه الخزي.

لم نكن تلميذتَين مراهقتَين تتصرّفان بطيش. هذه المرأة تستعصي على فهمي.

وحين عدنا إلى المطعم، تذكّرَت:

- على فكرة أيّتها البرلينية، فِيمَ كنت تريدين أن تكلّميني؟

إن كنت لا أفهمها، فلماذا يتحتّم عليها أن تفهمني؟

- شيء تافه.

- كلا، قولي من فضلك، لم أتعمّد مقاطعتك، أنا آسفة.

مفاتحة أيّ كان في موضوع زيغلر تُعدّ مجازفة بالغة الخطورة. يا للعبث! كيف اعتقدت أن ذلك ممكن؟

- شيء تافه حقّاً.

- كما تشائين.

بدت عليها الخيبة. اتّجهت نحو الساحة، ولكي أستبقيها، وأستاثر بها لفترة أطول، قلت:

t.me/qurssan

- لمّا كنت صغيرة، كنت أقترب من أخي وهو نائم في مهده، واعضّ يده بشدّة.

انتظرت إلفريد إلى أن أنهيت كلامي، ولم تجب.

- يُخيّل إليّ أحياناً أنّ هذا هو السبب الذي جعله لا يكاتبني.

t.me/qurssan

32

كنت أعلم أنّ ألبرت متزوّج وله أطفال، لكنّه حين أخبرني أنّه عائد إلى بيته في بافاريا في الأسبوع الثاني من شهر يوليو، أحسست كما لو أنّني لم أعلم بذلك قطّ. فهو لم يسافر خلال الأسابيع التي كنّا نلتقي فيها في إجازة أبداً: كانت أُسرته بالنسبة إليّ مفهوماً مجرّداً.

تكوّمت على جنبي، وخلوتُ إلى نفسي في الظلام. لمسني، فحاول ظهري أن يصدّه، لكنّه لم يزدجر. ماذا كنت أعتقد؟ أنّه سيحجم عن السفر لكي لا يتركني وحيدة مع صورته وهو يحضن أطفاله، ثمّ وهو نائم بجوارها في السرير؟

في البداية كنت أتصوّر أنّني قادرة على فراقه بلا صعوبة، بل كنت أشعر بالحاجة إلى ذلك الفراق. كنت أتخيّله مع نساء غيري. تتراءى لي إيلا وهي تغازله. وتتمثل لي ليني وهي تداعبه. كنت أتخيّل أنّ ألبرت هو من تسبّب في حمل هايكي. ولم يكن ذلك يؤلمني، بل يواسيني. وتأخذني العزّة فأقول في نفسي: أنا قادرة على فراق هذا الرجل.

لكن ليلة أخبرني بسفره، أحسست كما لو أنّ باباً أُوصد أمامي،

t.me/qurssan

... لو أنّ ألبرت صفقها في وجهي، وأغلق عليّ الغرفة مع زوجته، ، حياته، وانصرف دون أن يأبه بتركي في العراء أنتظره.

قال ويده لا تزال تلمسُ أسفل ظهري:

- ماذا تريدينني أن أصنع؟

أجبت دون أن أستدير:

- اصنع ما تشاء. سأعود إلى برلين بعد الحرب. بوسعك أن .ساني حالاً إن شئت.

- ولكنّني لا أستطيع.

ساورتني الرغبة في الضحك، ضحك لا يشبه في شيء قهقهة العشّاق اللامبالية. كانت تلك بداية النهاية، وكنت أضحك بمرارة.

- لماذا تتصرّفين هكذا؟

- لأنّك سخيف. نحن محبوسان هنا، ولا ننتظر سوى شيء واحد: المغادرة. ثمّ إنّك عنصر من الشرطة العسكرية تعاشر امرأة لا خيار أمامها.

سحب كفّه من ظهري، وبزوال هذا الاتصال الجسدي، ساورني شعور بالخطر. لم يجب، ولم يرتدِ ملابسَه، ولم ينم. بقي جامداً في مكانه، منهَكاً. تمنّيت لو أنّه يلمسني ثانية، لو يحضنني بين ذراعيه. لم أشأ أن أنام ولا أن أشهد الفجر يطلع.

وتذكّرت من جديد أنّه لا يحقّ لنا، نحن معاً، أن نتحدّث عن الحبّ. فنحن نعيش في زمن موبوء، زحزح اليقينيات، وشتّت الأسر، وشوّه كلّ غرائز البقاء.

بعد سماع ما قلت، لا بدّ أنّه اقتنع بأنّ ما يدفعني إلى إدخاله

t.me/qurssan

إلى المخزن هو الخوف لا الأُلفة التي يظهر أنّها نشأت بيننا منذ مدّة طويلة.

كان يسود بين جسدَينا نوع من الإخاء، كما لو أنّنا لعبنا معاً حين كنّا طفلَين. كما لو أنّ كلاً منّا عضّ معصم الآخر، ونحن في الثامنة من العمر، لكي يرسم فيه «ساعة»، تاركاً آثار أسنانه تلمع من اللُّعاب. كما لو أنّنا نمنا في المهد نفسه، بحيث أنّ أنفاس كلّ منّا الحارّة كانت بالنسبة إلى الآخر هي رائحة العالَم.

ومع ذلك لم تكن تلك الأُلفة عادية البتّة. كانت إنذاراً بالكارثة. مرّرت إصبعي في التجويف الموجود وسط صدره فإذا بتاريخي الشخصي يتبدّد، والزمن يلتوي ويتعرّج ويتحوّل إلى مدّة لا تتقدّم. وضعتُ يدي على بطنه، فراحَ يحملق بعينَيه، ويقوّس عموده الفقري.

لم يخطر على بالي قط أنّني يمكن أن أطمئنّ لكلامه، لأنّه قليلاً ما كان يتحدّث، وإذا تحدّث لا يفصح عن كلّ ما لديه. ما كان يحكيه يوحي بأنّه يشعر بالإقصاء. لم يُبعث إلى الجبهة، أعفته منها إصابته بنفخة قلبية، لكنّ حماسه وصرامته في خدمة ألمانيا مكّناه من تسلُّق الدّرجات في الشرطة العسكرية. ثمّ طلب بعد ذلك إلحاقه بوظيفة أخرى. سألته بفضول:

– أيّ وظيفة أخرى؟

لم يجبني ذلك اليوم.

على أنّه في هذه الليلة، الليلة التي صددته فيها، وبينما كنت مديرة له ظهري، أعلن في الظلام:

t.me/qurssan

- كانوا ينتحرون. كانوا في شبه جزيرة القرم.

استدرت وسألت:

- من؟

- ضبّاط الشرطة العسكرية وضبّاط الجيش النازي. كلّهم. كان بينهم المكتئبون والمدمنون على الكحول والعُنن.

وبدت على وجهه تكشيرة جعلته يبدو غريباً.

- وكان ثمّة من يحاولون الانتحار.

- ماذا كنت تصنع هناك؟

- بعض النساء كنّ باهرات الجمال. يقفن عاريات بعد أن يُجبرن على نزع ملابسهنّ: تُغسل تلك الملابس، وتوضع في حقائب لكي يعاد استعمالها. ثمّ يجري تصويرهنّ.

- من هؤلاء النساء؟

كان جامداً لا يتحرّك وقد أدار وجهه نحو العارضة، كما لو أنّه لم يكن يتحدّث إليّ أنا.

- كان الفضول يجذب الناس. منهم من كان يصطحب أطفاله، ويلتقطون صوراً. بعضهنّ كنّ يأسرن النظر من فرط جمالهنّ. أحد رجالي لم يستطع الاحتمال، رأيته يسقط أرضاً على بندقيته. أغمي عليه. وأسرّ لي آخر بأنّ النوم جفاه... كان على المرء أن يؤدّي واجبه بابتهاج.

رفع صوته، فوضعت كفّي على فمه، لكنّه استرسل يقول:

- هذا ما ينتظرونه منّا.

لم يزح يدي. أنا من أزلتها.

- ماذا كان عساي أقول لهم؟ كنت أعلم أنّهم يعاشرونهنّ.

t.me/qurssan

كانوا يعاشرونهنّ جميعاً رغم المنع. مهما يكن، لا يستطعن قول شيء. قَتْلُ خمسين شخصاً في اليوم يخوّل حصّتين من الطعام. إنّه عمل مضنٍ، حتّى بالنسبة إلينا.

تغضّن وجه ألبرت. «خمسون شخصاً في اليوم»، وتملّكني الخوف.

- ثمّ ذات صباح، فقدَ أحد رجالنا رشده. عوض أن يصوّب سلاحه عليهنّ، صوّبه نحونا، فأطلقنا عليه النار.

في تلك اللحظة شعرت بأنّه كان عليّ أن أعرف. أن أعرفَ بوجود مقابر جماعية، ويهود يستلقون على بطونهم في طوابير ينتظرون الموت برصاصة على القفا. كان عليّ أن أعرف بالتراب والرماد وهيبوكلوريت الكالسيوم التي تلقى على الجثث لكي لا تنتن، وبصفوف أخرى من اليهود يمشون على الجثث، ويسلّمون قفاهم. كان عليّ أن أعرف بوجود أطفال يُرفعون من شعورهم ويطلق عليهم الرصاص، وبصفوف تمتدّ على مدى كيلومتر من اليهود أو الروس -فهم آسيويون، ولا يشبهوننا- على وشك أن يسقطوا في حُفر أو يصعدوا إلى شاحنات تقودهم إلى حيث يجري خنقهم بأوّل أوكسيد الكربون. كان عليّ أن أعلم بذلك قبل نهاية الحرب. كان عليّ أن أسأل. لكنّني كنت خائفة، ولم أكن أستطيع الحديث ولا أريد أن أعرف.

ماذا كنّا نعرف في ذلك العهد؟

أعلنت إحدى الجرائد خلال شهر مارس من سنة 1933 عن افتتاح معتقل داشو الذي يسع خمسة آلاف سجين. معتقل أشغالٍ شاقّة حسبما كان يقول الناس. أخبر أحد العائدين منه حارسة

t.me/qurssan

العمارة أنّ السجناء يُجبرون على ترديد نشيد الحزب الوطني الاشتراكي الألماني تحت السياط. علّق كنّاس قائلاً وهو يؤدّي رقصة دائرية دون أن يتوقّف عن الكنس: لهذا السبب يسمّونه «معتقل الحفلات». كان بوسعه أن يلعب ورقة الدعاية المعادية -وكان الجميع يلعبها-، ويصمت، لكنّ بديهته خانته. ثمّ إنّ العائدين منه كانوا يقولون: لا تسألني أرجوك، لا أستطيع أن أحكي شيئاً. وهنا كان القلق يساور الناس. كان البقّال يؤكّد ذلك، لا سيّما إذا وجد من ينصت إليه: إنّه معتقل مخصّص للمجرمين. مكان يرمى فيه المنشقّون والشيوعيون وطويلو الألسن. وصارت: «أعِنّي يا إلهي لكي أصون لساني، فأنا لا أريد أن أنتهي في داشو» من الأدعية. كان الناس يقولون: يُمنحون أحذية طويلة مخصّصة للجيش الألماني، ويُجبرون على المشي بها كي تلين، فلا تتقرّح بذلك أقدام الجنود الذين يرتدونها لاحقاً. قال الحدّاد موضّحاً: إنّه معهد لإعادة التأهيل. هناك يتعرّض المرء لغسل الدماغ: يجتثّون منك التذمّر والشكوى اجتثاثاً قبل أن تغادر. وإذا أراد الآباء تهديد أبنائهم قالوا: كُن رزيناً وإلا بعثت بك إلى داشو. يهدّدونهم بداشو عوض الغول. داشو هو معقل الغول.

عشتُ في رعب دائم من أن يرسلوا أبي إلى هناك. هو من كان لا يحفظ لسانه. حذّره زميل له ذات يوم قائلاً: الغستابو تراقبك. خضّته أمّي بعنف وقالت: هل تعرف معنى أن تقذف الدولة الوطنية الاشتراكية؟ لم يجب، وغادر صافقاً الباب خلفه. ماذا عساه يعرف هو من كان موظّف سكك حديدية؟ أرأى القطارات المزدحمة، حيث كُدِّس رجال ونساء وأطفال في مقطورات الدواب؟ أكان يصدّق هو أيضاً أنّ الأمر لا يعدو أن يكون إعادة توطين اليهود في الشرق كما

t.me/qurssan

كان شائعاً؟ وزيغلر، أكان عالِماً بكلّ شيء؟ بمعسكرات الإبادة، بالحلّ النهائي.

تلمّست قميص النوم في الظلام لأنّني كنت عارية، وانتابني إحساس بأنّني مهدّدة. خشيت من أن يتفطّن لذلك، فيغضب. استدارَ نحوي.

- كانوا يقولون إنّ ذلك ليس مشكلة، وأنّهم سيعهدون لنا بوظائف أخرى. وكنت من أولئك الذي حالفهم الحظّ وغادروا. ما سمحوا لي بالانتقال من ذلك المكان إلّا لوجود حشود من المتطوعين. لكن مهما يكن، فذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً. كان من الممكن الاستغناء عنّي على رأس الفرقة، لأنّ آخرين مستعدّون لتعويضي.

انزلقتُ خلسة خارج الحيّز الذي كنّا ننام فيه، وابتعدت ببطء، كما لو أنّ ذلك لم يكن من حقّي، وقلت وأنا أنهض:

- طلع الفجر.

- حسناً. اذهبي لتنامي.

- أتمنّى لك سفراً سعيداً.

- نلتقي بعد عشرين يوماً.

لم أجب. كان يطلب منّي المساعدة، لكنّني لم أفهمه، والأدهى، أنّني رفضت أن أقدّمها له.

كان بإمكاني أن أعاشر زيغلر دون أن أعرف عنه شيئاً: لم يكن في المخزن سوى جسدَينا، ولَعِبنا، وهذا الطفل الذي تحالفتُ معه، ولا شيء غير ذلك. كنت قادرة على معاشرة زيغلر رغم أنني فقدت زوجاً. زوج قتل هو أيضاً عساكر ومدنيين، وقد يكون أصيب

t.me/qurssan

السُّهاد أو العنّة، أو عاشر نساء روسيات -فهنّ آسيويات، ولا يشبهننا-، لأنّه تعلّم القتال، وخبرَ حقيقة الحرب.

بعد ذلك بسنوات، تخيّلتُ زيغلر على سريره في المعسكر القرم، واضعاً كوعَيه على ركبتَيه، وجبينُه مسنود على أصابعه المتشابكة، غير قادر على حسم قراره. هو يريد أن يغادر، أن يطلب تعيينه في مكان آخر، لكنّه يخشى الإضرار بمستقبله في الجيش. إن هو غادر وحدات التدخُّل، عليه أن ينسى الترقّي. المسألة ليست أخلاقية. فالروس واليهود والغجر، لا أهميّة لهم بالنسبة إليه. هو لا يكرههم، لكنّه لا يكنّ لهم حبّاً خاصّاً، ولا لسائر الجنس البشري، ومن ثمّة فهو لم يكن يؤمن قطعاً بقيمة الحياة الإنسانية.

كيف يعلي من قيمة شيء مهدّد بالتوقّف في أيّ لحظة، شيء بهذه الهشاشة؟ القيمة تُمنح لمن يملك قوّة، والحال أن الحياة لا قوّة لها. تُمنَح القيمة لما يتعذّر تدميره، بينما الحياة بائدة. كانت هذه الحقيقة من الصلابة بحيث قد يطلبون منك التضحية بحياتك من أجل شيء في مُنتهى القوّة كالوطن. حقيقة آمن بها غريغور وترجمها من خلال التحاقه بالجيش.

الأمر لا يتعلّق بالإيمان: فزيغلر رأى المعجزة الألمانية بأمّ عينَيه. كثيراً ما سمع رجاله يقولون: **إن مات هتلر، فلأمُت أنا أيضاً!** كانت الحياة من الرُّخص بحيث أنّها لا تكتسب قيمة إلا إذا نُذرت لشخص آخر. حتّى بعد حصار ستالينغراد، ظلَّ الرجال يثقون في الفوهرر، واستمرّت النساء يبعثن له وسائد طُرِز عليها النسر والصليب المعقوف. قال هتلر إنّ حياته لن تنتهي بموته، بل ستكون تلك هي لحظة بدايتها. وزيغلر مقتنع بأنّه على حقّ.

t.me/qurssan

وهو فخور بكونه في جانب من هُم على حقّ. لا أحد يحبّ الخاسرين، ولا أحد يحبّ الجنس البشري بأسره. لا يسع المرء أن يبكي على ملايير الحيوات التي توقّفت خلال ستة ملايين سنة. أليس هذا هو الوعد الأوّل: كلّ نفس ذائقة الموت عاجلاً أم آجلاً؟ صهيل حصان مرعوب يخترق أذنيك أشدّ إفجاعاً من فكرة موت شخص مجهول، لأنّ الأموات هم المادة التي يُبنى بها التاريخ.

الشفقة الكونية لا وجود لها، كلّ ما يوجد هو التعاطُف مع مصير كائن إنساني. الحَبْر العجوز الذي يصلّي واضعاً يدَيه على صدره لأنّه موقن بأنّه ميّت. اليهودية الحسناء التي سيجري تشويهها. الروسية التي حضنتك ومنحتك الإحساس بالحماية للحظة خاطفة. أو آدم وورتمان، أستاذ الرياضيات، الذي أوقفوه أمام عينيّ، وصارَ بالنسبة إليّ في ذلك العهد رمزاً لكلّ الضحايا الآخرين، كلّ ضحايا الرايخ، ضحايا الأرض.

خافَ زيغلر من ألّا ينجح في التعوّد على الفظاعة، فيقضي بذلك كلّ لياليه جالساً على سريره، عاجزاً عن إغماض عينَيه. يخاف التعوّد على الفظاعة، فيصير غير قادر على الشعور بالتعاطُف مع أيّ كان، حتّى أبنائه. خافَ من أن يصيبه الجنون، فقرّر أن يطلب نقله إلى مكان آخر.

سيُخيِّب ظنّ قائده فيه: ينبغي أن يظلّ زيغلر الذي لم يهرب قطّ، المعروف بالبسالة رغم مشاكله الصحيّة. كيف السبيل إلى إخبار هتلر بذلك؟ لقد تركتَ لديه انطباعاً رائعاً، لن يقبل بأن يغيّر رأيه فيك.

دمُ زيغلر يصفرُ في جسده عوض أن يدورَ بصمت دون أن يزعج

t.me/qurssan

ا مداً: حين يستلقي على سريره طلباً للنوم، يتهيّأ له أنّه يسمع هدير ...ه. لذلك التمسَ أن يُنقل إلى مكان آخر، وصرف نظره عن كلّ ا.ء، لكن قلبه واصلَ الصفير. إنّه قلب معطوب لا سبيل إلى إصلاحه. العاهات الخلقية لا علاج لها مثلما أنّ الحياة لا علاج اها، لأنّ غايتها هي الموت. فلماذا لا يسعى الإنسان إلى الاستمتاع بها قبل فوات الأوان؟

عندما التحقَ المُلازم زيغلر بكراوزندورف، كان يعلم أنّه محكوم بأن يظلّ ملازماً. لن يُسمح له بارتقاء الدرجات. فهو مسكون برغبة الانتقام التي تسكن المحبطين، لذلك فرضَ على الآخرين الصرامة نفسها التي أوصلته إلى هذا الوضع، ومع ذلك، كان يشعر بنفسه ينهار. ثمّ ذات ليلة، جاء تحت نافذتي، ومضى ينظر إليّ.

اعتقدتُ لسنوات أنّ أسراره -الأسرار التي لم يكن بإمكانه البوح بها، والتي لم أكن أريد سماعها- هي التي منعتني من أن أحبّه. كان الأمر سخيفاً. فأنا لم أكن أعرف عن زوجي أكثر ممّا عرفته عنه. قضينا بالكاد سنة تحت سقف واحد، ثمّ غادر إلى الجبهة: كيف لي أن أعرفه؟ ثمّ إنّ الحبّ ينشأ بين الغُرباء، بين من يتحرّقون لاختراق الحدود. ينشأ بين أشخاص يخافون بعضهم بعضاً. ليست الأسرار هي التي قضت على هذا الحبّ، بل سقوط الرايخ الثالث.

t.me/qurssan

33

مع حلول الصيف، انتشرت رائحة مُستنقعات نفّاذة بحيث يتهيّأ لك أنّ كلّ شيء يتحلّل: وتساءلت عمّا إذا كنت أنا أيضاً سأتحلّل. ليس غروس-بارتش هو الذي نخرني. فقد كنت مصابة بالغنغرينة منذ البداية.

ابتلانا شهر يوليو بحرٍّ شديد -من فرط الرطوبة تلتصق الملابس بالأجسام- وبجحافل من حشرة الطيثارية، تهاجمنا بلا هوادة.

انقطعت عنّي أخبار ألبرت منذ سفره، وساورني شعور بأنّ الناس يختفون دون أن يكاتبوني.

بينما خرجت من العمل ذات خميس، ذهبت أنا وإيلا وليني إلى السينما مع هاينر وإرنست. كان الحرّ لا يطاق. أوشكنا على الاختناق في الخيمة المغلَقة التي لا توجد فيها نسمة هواء. لكنّ إيلا أصرّت على مشاهدة فيلم بعد الظهر. أمّا ليني فلم تكن ترغب إلا في لقاء إرنست، وراحت تلحّ عليّ: تعالي معنا، تعالي أرجوك.

الفيلم قديم، يعود إلى عشر سنوات خلت. عرفَ نجاحاً منقطع النظير. مخرجته امرأة كانت معروفة بعنادها حسبما قالت إيلا الخبيرة بخبايا عالم السينما. لعلّها قرأت ذلك في إحدى المجلات التي دأبت على تصفّحها حتّى وهي في الثُّكنة، أو لعلّها فكرة من بنات

t.me/qurssan

عيالها. وكانت تزعم أنّ هناك علاقة غرامية بين المخرجة والفوهرر. وقد كانت في الواقع امرأة جميلة.

قال إرنست وهو يفتح الخيمة لليني لكي تدخل: «اسمها مثل اسمك: ليني ريفنشتال»، فابتسمت ليني وهي تلقي نظرة في الداخل بحثاً عن مكان. لم يسبق لها، بخلافي، أن شاهدت هذا الفيلم.

كانت المقاعد الخشبية مشغولة بالكامل تقريباً. الجنود يضعون أحذيتهم الموحلة على المقاعد الموضوعة أمامهم، وحين رأونا داخلات، اعتدلَ بعضهم في جلسته، وراحوا ينظّفون الكراسي أمامهم بظهور أيديهم، بينما ظلَّ آخرون مسترخين، مقوّسين ظهورهم، شابكين أذرعهم، لا يظهر أنّهم متحفّزون لنفض الخمول والتوقُّف عن التثاؤب المتكرّر. وجدنا أيضاً سابين وغيرترود، عرفتهما من ضفائر شعريهما الملفوفة على جوانب رأسيهما. رمقتانا، لكنّهما لم تكلّفا نفسيهما تحيّتنا.

جلسنا في المقاعد التي نجح مرافقانا في العثور عليها. جلسَ إرنست وليني في الصفّ الموجود يميناً، بينما جلستُ أنا وهاينر وإيلا إلى اليسار.

أكّد هاينر، وهو مهووس بالابتكارات التكنولوجية، أنّ انتصار الإرادة فيلم طلائعي. فتنته المشاهد المصوّرة من الجوّ، والطائرة التي شقّت السُّحُب مقتحمة كتلة الدخان الكثيفة من دون خشية أن تعلق فيها.

رحت أقرأ البيانات المعروضة على الشاشة: «بعد عشرين سنة على نشوب الحرب العالمية»، «بعد ستّ عشرة سنة على بداية المعاناة الألمانية»، «بعد تسعة عشر شهراً على انبعاث ألمانيا»، وإذا بي أشعر كما لو أنّ الغيوم تندفع نحوي، فتعميني. كانت نورمبرغ

t.me/qurssan

تبدو من أعلى رائعة، بأبراج كنائسها المتشامخة، مثلما يبدو ظل الطائرة المنعكس على شوارعها ومنازلها وسكّانها نعمة لا نقمة.

نظرت إلى ليني: كانت فاغرة الفم، واضعة لسانها بين أسنانها، تحاول أن تفهم كلّ شيء، ولا تترك شيئاً يفلت منها. ربّما سيطوّق إرنست خصرها قبل نهاية الفيلم.

كنت أروّح بيدي، وحين أعلن هاينر: «ها هو سيحطّ هنا» لكي يحثّنا أنا وإيلا على الانتباه، تنهّدتُ. كان قفا الفوهرر على الشاشة عارياً، بائساً ككلّ قفا عارٍ، وأنغام فاغنر المصاحبة للصورة لم تنجح في تجميله. ردَّ الفوهرر على آلاف الأذرع الممدودة دفعة واحدة لتحيّته، لكنّ مرفقه ظلّ مثنياً، ويده موضوعة بإهمال على معصمه، كما لو أنّه يعتذر ولسان حاله يقول: لا دخل لي في الأمر.

لم يكن بإمكاني أن أعرف، وهو أمر لم أعلم به إلا لاحقاً، أنّه في اللحظة نفسها، في مكان غير بعيد عن الخيمة التي حُوّلت إلى قاعة عرض سينمائي، كانت يد أخرى تجاهد من أجل أن تحمل حقيبة. ورغم أنّها لم تكن تملك سوى ثلاثة أصابع، تناولت بهمّة ملقطاً، وكسرت كبسولة زجاجية ليتدفّق منها الحامض الذي سيذيب السلك: سلك معدني دقيق سيذوب في عشر دقائق.

شدّ العقيد على أسنانه وفتح منخاريه. كان عليه أن يجمع كلّ شيء في الملفّ، ويضعه في الحقيبة مخفياً بعناية بين بقيّة الملفّات، مع أنّه لم يكن يملك سوى يد واحدة، ليس فيها غير ثلاثة أصابع. كان جبينه ينضح عرقاً، لكن ليس بسبب الحرّ.

لا ينبغي أن يتأخّر. فالاجتماع جرى تقديمه إلى الثانية عشرة والنصف زوالاً بسبب زيارة موسوليني المرتقبة، كما أنّ الماريشال

t.me/qurssan

..هل الذي كان ينتظره أمام المسكن الموضوع تحت تصرُّفه
،امشانزي -حيث دخل العقيد بذريعة من الذرائع- يلحّ عليه بأن
رع. بدأ صبره ينفد: هو يستعجله، لكن دون أن يخلّ بالاحترام
اللازم لشخص فقدَ أطرافه في الحرب مثل كلاوس شينك غراف فون
، فنبرغ، العقيد الوسيم الذي كان يعجب ماريا كثيراً.

خرج شتوفنبرغ حاملاً الحقيبة بينما راح كيتيل ينظر إليه بتذمّر. لا غرابة في أن يصل المرء إلى اجتماع بحقيبة مليئة بالملفّات، لكنّ شتوفنبرغ كان يضمّها إليه على نحو مغالٍ أثار استغراب الماريشال. قال العقيد: «كلّ شيء في هذه الحقيبة. الوثائق المتعلّقة بكتائب ،ولكسغريناديير الجديدة التي سأقدّمها للفوهرر». حرّك الماريشال رأسه في صمت موافقاً ثمّ انطلق. وبما أنّ اجتماعاً مستعجلاً كان ينتظرهما في لاجباراك، كان من الطبيعي عدم إيلاء أهمية لأمور تثير الاستغراب.

كنت أتصبّب عرقاً في هذه الخيمة اللعينة التي ما كنت لآتي إليها لولا إلحاح ليني. أمّا هي فكانت مستغرقة في الحديث مع إرنست، تقهقه وقد علت وجنتيها وأذنيها وعنقها بُقع حمراء كما لو أنّ الوردية اجتاحت كلّ سنتيمتر مربّع من بشرتها.

كانت إيلا تتجسّس عليهما عوض أن تتابع الفيلم، بينما كان هاينر ينقرُ بأصابعه على المقعد. لقد ضاقَ ذرعاً بكلام كبار شخصيات الحزب، لا بسبب فحوى ما يقولون، بل بسبب المشاهد المتكرِّرة. كان يربت على الخشب بسبّابته كما لو أنّه يحثّ المتحدّثين على الإسراع في كلامهم، لكن في مؤتمر الحزب الوطني الاشتراكي المنعقد بتاريخ 5 سبتمبر 1934، كان كلّ واحد حريصاً على أن يدلي بدلوه. مضى رودولف هيس، الذي لم يكن هتلر قد

t.me/qurssan

أعلن عن جنونه بعد، يصرخ في الشاشة: «لقد أعطيتمونا النصر، ينبغي الآن أن تتركونا وشأننا».

لا أحد يعلم ما إذا كان الجنرال هوزينغر قد شارك في هذه التوقُّعات. كنت أجهل -وهو أمر لم أعلم به إلّا لاحقاً- أنّه عند دخول شتوفنبرغ إلى قاعة المؤتمرات وجد نائب قائد الأركان، هوزينر، الجالس يمين هتلر، يتلو تقريراً محبِطاً. أعلن أنّ الجيوش الألمانية ألفت نفسها بلا حماية بعد الاختراق الأخير للجبهة الروسية الوسطى. رشق كيتيل شتوفنبرغ بنظرة حانقة: كان الاجتماع قد بدأ منذ مدّة. قال العقيد في نفسه: **الساعة الآن الثانية عشرة وستّ وثلاثون دقيقة، لم يبقَ سوى ستّ دقائق لكي يأتي الحمض على السلك.**

كان هتلر جالساً إلى طاولة إينوس ثخينة مديراً ظهره للباب، تداعبُ يداه مكبِّرة يستعين بها لقراءة الخرائط المنشورة أمامه. جلس كيتيل إلى يساره في حين قعد شتوفنبرغ بجانب هانز براندت. وبينما كان تسجيل صوت ديتريش يعلو في الخيمة مطالباً الصحافة الأجنبية بأن تقول الحقيقة عن ألمانيا، تمدّد من جديد منخارا شتوفنبرغ، والتقطا نَفَساً عميقاً. يكفي أن ينظر المرء إلى عينَيه ليفهم، لكنّه كان يضع عصابة على عينه اليسرى، ويطأطئ رأسه. وبرجفة لا تكاد تُدرَك، دفع الحقيبة برجله تحت الطاولة أقصى ما يستطيع لتكون قريبة من ساق الفوهرر، ومسحَ قطرة عرق سالت ببُطء على شفته قبل أن يقوم ويغادر القاعة بخطى مترفّقة. لم يتفطّن له أحد: كلّ الحاضرين كانوا مركّزين انتباههم على خرائط يعلّق عليها هوزينر بسحنة متجهّمة. لم يفضل على ذوبان السلك بكامله سوى أربع دقائق.

في الخيمة حيث كان جنود الفيرماخت يشاهدون الفيلم، أمسك

t.me/qurssan

إرنست بيد ليني التي لم تسلّمها له فحسب، بل وضعت رأسها على كتفه. حوّلت إيلا بصرها وعضّت على أحد أظافرها بينما لكزني هاينر بكوعه، لا ليُعلّق على علاقتهما الغرامية بل ليسألني بحماس كما لو أنّ قيمة الفيلم بالنسبة إليه مسألة شرف: «الجزء الثاني رائع. أتذكرين حين ملأ النسر الصورة بكاملها من دون صوت؟»، وعلى الشاشة دوّى صوت ستريخر محذّراً: «الشعب الذي لا يدافع عن نقائه العرقي محكوم عليه بالزوال».

كان السلكُ الحديدي في حقيبة شتوفنبرغ على وشك أن يذوب، والعقيد يسير بأعصاب هادئة نحو مخرج البناية. لم يكن بوسعه أن يجري بالطبع، لكنّ قلبه كان يخفق بشدّة كما لو أنّه يجري.

أحنى هانز براندت على الخريطة في لاجباراك لكي ينظر عن قُرب -كانت الحروف بالغة الصّغر، وهو لم يحضر معه عدسة مكبّرة- فاصطدمت جزمته بالحقيبة المهجورة. دفعها بحركة آلية لكي يفسح مكاناً وهو مشغول البال بتقرير هوزينر. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة وأربعين دقيقة. لم يتوقّف شتوفنبرغ بل واصلَ سيره منتصب القامة. لم يفضل سوى دقيقتين.

تَعالَى صوت لاي تحت الخيمة: «نصبو إلى أن نجعل العمّال الألمان مواطنين أحراراً معزّزين ومتساوين في الحقوق»، بينما كان إرنست قد ضمّ إليه ليني، وبدا مصمّماً على تقبيلها، وهو أمر تنبّه إليه حتّى هاينر. همّت إيلا بالوقوف والمغادرة، لكنّه أمسك بها وهمس في أذنها: «هل رأيتِ العاشقَين؟»، وتذكّرتُ أبي حين كان يقول إنّ النازية تذوّب الصراع الطبقي في الصراع العرقي.

بدا هتلر على الشاشة منتصباً وهو يحيّي جيشاً من خمسين ألف عامل لبّوا النداء وانتظموا في صفوف طويلة.

t.me/qurssan

هتفَ فيهم: «ارفعوا رُؤوسكم».

ورُفعت الرُّؤوس في الهواء كالبنادق، وسُمع دويّ انفجار يصمّ الآذان في الخيمة أوقعنا على الأرض، وشعرت برأسي يرتطم بالتراب، ثمّ لم أعد أشعر بشيء.

وبينما كنت أموت، فكّرت في أنّ هتلر يموت أيضاً.

t.me/qurssan

34

صُمّت إحدى أذنَيّ طوال ساعات بعد الانفجار.

كنت أسمع صفيراً حادّاً يثقب طبلة أذني، رتيباً ومرهِقاً، شبيهاً بصوت صفارات الإنذار ببرلين. كان يدوّي في جمجمتي ويشعرني كما لو أنّني في فُقّاعة تعزلني عن العالم الخارجي وعن الفوضى العارمة.

كانت القنبلة قد انفجرت داخل فولفشانزي. مضى الجنود يجرون في كلّ اتّجاه وهم يردّدون: «مات هتلر». سقطَ الكشّاف الضوئي بسبب الانفجار فعمَّ الظلام وتعالى طنين لا ينقطع. راحت ليني ترتجفُ وتبدو محطّمة كما كانت أوّل يوم في المطعم. لم يعد يعنيها الآن إرنست الذي سأل هاينر ذاهلاً: «ماذا سنفعل؟»، لكنّه لم يجبه.

قالت إيلا مصعوقة: «لقد مات». لم يصدّق أحد يوماً أنّ هتلر يمكن أن يموت. وقفتْ قبل الجميع، ونظرت حولها وهي لا تزال تشعرُ بالدوار، وقالت هامسة دون أن تشعر: «انتهى الأمر».

تراءى لي وأنا على بطني مطروحة أرضاً وجهُ أمّي وهي ترتدي قميص نوم تحت المعطف. ماتت في لباس مُضحِك. ضممتها بين ذراعَيّ، شممت رائحتها، كانت كما عهدتها، لم تتغيّر. تراءت لي

t.me/qurssan

أمّي خلال القصف بينما كانت تملأ سمعي نغمة لم أستطع تحديدها: خُيّل إليّ أنّها عقوبة أُعدّت لي قصداً.

الواقع أنّ الفوهرر كان يشاركني الألم نفسه، ويزيد عليه. لكي يخرج من حُطام لاجباراك استندَ على كيتيل الذي نجا سالماً، وبدا بالسُّخام الذي سوّد وجهه، والدخان المنبعث من رأسه، وذراعه الشبيه بذراع الكراكوز، وسرواله الممزّق إرباً، بمظهر أكثر إضحاكاً من مظهر أمّي.

الفرق الوحيد بينهما هو أنّه كان حيّاً ومصمّماً على الانتقام.

سمعناه أنا وهيرتا وجوزيف حوالي الساعة الواحدة ليلاً يعلن عن ذلك على أثير الإذاعة ونحن جلوس إلى مائدة المطبخ، مستيقظين رغم العياء الشديد. لم نفارق المذياع تلك الليلة، بل نسينا حتّى أن نتعشّى. توقّفت الخدمة في كراوزندورف بعد ظهر ذلك اليوم، ولم تأتِ الحافلة لتأخذني، وحتّى لو أنّها أتت، ما كانت لتجدني. فأنا لم أنجح في العودة إلى البيت راجلة وغير قادرة على الكلام إلا بعد ساعات على الانفجار. تركت ليني وإيلا مستغرقتَين في تخميناتهما: ماذا سيحدث الآن بعد أن مات هتلر؟

على أنّ هتلر كان لا يزال على قيد الحياة. وعلى أمواج إذاعة ألمانيا أخبرَ الأمّة وأوروبا بأسرها: نجاتهُ من الموت تعني أنّه سينجز الواجب الذي كلّفته به العناية الإلهية.

هذا ما قاله أيضاً موسوليني الذي لم يصل إلّا على الساعة الرابعة عصراً بسبب تأخُّر القطار، مع أنّ الاجتماع جرى تقديمه من أجله. عاينَ الحُطام برفقة قائد مترع بالجراح، قائد كان قد أوفد

t.me/qurssan

كوماندو في السنة السابقة لتحرير الدوتشي بغران ساسو. حتى زوج ابنته، غالياتسو تشانو، كان قد صوّت ضدّه في يوليو الفارط: إنّ شهر يوليو لم يكن قطعاً شهر حظّ بالنسبة إلى الطواغيت. لكن موسوليني راهنَ بتفاؤل على ثقة الملك، الملك نفسه الذي نعته سابقاً بأنّه لا يعدو أن يكون محافِظاً على إحدى المقاطعات التابعة لهتلر.

هكذا هم الإيطاليون: من المؤكّد أنّهم معروفون باللامبالاة والخمول، وأنّهم ليسوا أفضل الجنود، لكنّهم متفائلون. وموسوليني كان رفيقاً جيّداً. في يوم من الأيّام ينبغي أن يريه هتلر كيف يقلّد ضحكة فيكتور إيمانويل بإتقان. من بين كلّ القادة الذين كان يستهوي هتلر التعرّض لهم، القزم ذو الضحكة الحادّة هو المفضّل لديه. ولم يكن أحد يتمالك نفسه من الضحك. لكنّ المقام لم يكن مقام ضحك. كانت ربلتاه محروقتَين، وذراعه مشلولة، وهو يرافق موسوليني بين الأنقاض لسبب واحد: إن طاوع طبيبه ولزم الفراش، ستتناسل الإشاعات من حوله.

أبدى الدوتشي التفاؤل المتوقّع منه أمام الخطر المحدق بصديقه: من المستحيل أن ينهزم هو وهتلر بعد هذه المعجزة. ثمّ إنّه هو صانع هذه المعجزة رغم جهل هتلر بذلك. فتغيير موعد الاجتماع لم يترك لمدبّري الاغتيال الوقت الكافي، بحيث لم يتمكّنوا من تفجير سوى إحدى القنبلتين، والحال أن قنبلة واحدة لم تكن كافية. فموسوليني إذاً هو من أنقذَ حياته.

أدان هتلر على المذياع، بصوت عالٍ، عصابة المجرمين، أشخاصاً غرباء عن روح الفيرماخت وعن روح الشعب الألماني. ستفكّك العصابة بلا هوادة.

عضّ جوزيف على غليونه فطقطق فكّه. كاد أن يفقدني أنا أيضاً

t.me/qurssan

مثلما فقد ابنه. حتى زارت بقي جاثماً تحت المائدة ولم يجرؤ على الاقتراب بسبب هيئته المتصلّبة وقبضتيه الموضوعتين على المائدة.

لم ينقطع الصفير الذي كان يعذّبني، ثمّ تفوّه هتلر باسم شتوفنبرغ، فشعرت كما لو أنّ خنجراً غُرسَ في أذنيّ، ورفعت يدَيّ لأحميها. هدّأني للحظة فارق الحرارة بين غضروفهما الساخن وراحتيّ الباردتين.

أعلن هتلر أنّ المسؤول عن محاولة الانقلاب هو شتوفنبرغ، وتبادرت إلى ذهني ماريا. لم يكن بإمكاني أن أعرف ما إذا كان العقيد قد قُتل رمياً بالرصاص، ولا المصير الذي ينتظر صديقتي.

كانت النافذة مفتوحة في تلك الليلة من ليالي يوليو. لم يكن ثمّة أحد واقف في الطريق، والمخزن موصد، والضفادع تنقّ في دعة غير آبهة بالخطر الذي حاقَ بسيّدها قبل ساعات، بل غير واعية حتّى بأنّ لها سيّداً.

وحين صاح هتلر قائلاً: «سنسوّي حساباتنا بالكيفيّة الوطنية الاشتراكية التي هي كيفيتنا»، تكسّر الغليون بين أسنان جوزيف.

t.me/qurssan

35

عدا أن ماريا ألقي القبض عليها هي وزوجها في اليوم الموالي، ونُقلا إلى سجن في برلين. وسرعان ما علم سكان القرية بذلك: شاع الخبر في طوابير النسوة في المزرعة التي يجلبن منها الحليب، وعند الآبار، وفي الحقول. بل بلغ حتّى بحيرة موي حيث يستحمّ الأطفال، بمن فيهم طفلا هايكي، اللذان كانا قد تعلّما السباحة. كان الناس يتصوّرون القصر الواسع خالياً بعد أن غادره البارون والبارونة، وبعد أن وضع الخدم عرائض على مصاريع النوافذ. يتخيّلون أنفسهم يتسلّلون إليه بدافع الفضول، ربّما بعد كسر باب خلفيّ. فما أن يدخلوا حتّى تشدههم مظاهر ترف لم يسبق لهم أن شاهدوها، ثمّ يخرجون من الباب الرئيس كما لو أنّهم يغادرون بعد نهاية حفل دعوا إليه، مخبّئين ما غنموا تحت قمصانهم أو في سراويلهم. على أنّ القصر كان محروساً ليل نهار، لا يستطيع أحد دخوله.

وجدَ جوزيف أيضاً نفسه عاطلاً. قالت هيرتا: «هذا أفضل. فأنت تقدّمَ بك العُمر، ألا تلاحظ ذلك؟». تبدو كما لو أنّها غاضبة عليه لأنّه اشتغل لدى البارونة لسنوات عديدة، بينما كانت في الواقع قلقة من أن يأتوا لاستجوابه واعتقاله.

t.me/qurssan

كانت تخشى عليّ أنا أيضاً، وتريد أن تعرف كلّ شيء: ما جمعني بتلك المرأة، أكنت مطّلعة حقّاً على سريرتها؟ هل التقيت عندها بأناس غريبي الأطوار؟ وسرعان ما تصبح ماريا إنسانة خطيرة ليتني تجنّبتها. وتصير صديقتي المدلّلة محطّ اهتمام خاص: سجنوها في زنزانة غير مقسّمة، وحرموها من الفستان الذي طلبت أن يُخاط على غرار فستاني.

قرّر هتلر أن يسرّع الإجراءات: محكمة شعبية عوض المحكمة العسكرية. محاكمة سريعة وتنفيذ فوري للأحكام شنقاً بحبل مصنوع من أوتار البيانو، يعلّق إلى خطّاف جزّار. لم تقتصر الملاحقة والنفي على من طالتهم شُبهة المشاركة في محاولة الاغتيال من قريب أو بعيد، بل شملت أيضاً أُسرهم وأصدقاءهم. كما أنّ كلّ من آوى الهاربين حُكم عليه بالإعدام. كان كليمانس فون ميلدرنهاغن وزوجته ماريا صديقَين قديمَين للعقيد شتوفنبرغ، استقبلاه مراراً في قصرهما. وحسب صكّ الاتّهام، فإنّ شتوفنبرغ دبّر مؤامرته هناك، ومن ثمّة فبارون وبارونة غروس-بارتش كانا يبطنان خلاف ما يظهران.

لكن، ماذا يعرف من صاغوا صكّ الاتهام عن حماس ماريا المتّقد، وعن أفكارها المستقيمة التي لا اعوجاج فيها؟ كانت تعرف الزهور والأغاني ولا شيء غيرها، اللّهُمَّ بعض الأمور المحتاجة إليها. لا شكّ أنّ العقيد تصرّف من دون علمهما، مستغلّاً القصر في غفلة منهما لضرب مواعيده، وقد يكون البارون متواطئاً، لكنّه ترك زوجته بمنأى عن كلّ ذلك: لست أدري، فأنا في الواقع لم أعاشرها لفترة طويلة. لكنّني واثقة من أنّ ماريا تحبّ شتوفنبرغ حبّها لهتلر، وأنّهما معاً خاناها.

على منضدة السرير، قرب قنديل الزيت، ينتصب آخر كتاب

t.me/qurssan

أعارتني إياه، والذي لم يكتب لي أن أعيده لها: ديوان ستيفان جورج. كان هدية من زوجها، كما يشهد على ذلك الإهداء في صفحة الغلاف. لا بدّ أنّه كان كتاباً عزيزاً على قلبها، ومع ذلك أعارته لي. قلت في نفسي إنّ ماريا كانت متمسّكة بي أكثر ممّا كنت أنا متمسّكة بها، أنا من كنت مولعة أساساً بأسلوبها الرقيق في العيش.

رحت أنزع صفحات الكتاب الواحدة تلو الأخرى، وأكمّشها، ثمّ أضرمت فيها النار في الباحة الخلفية. لمّا رأى زارت ألسنة النار تتراقص، جرى إلى البيت ليختبئ. كنت أحرق كتاباً من دون ضجّة ولا بهرجة، ولا حتّى ضوضاء الدجاجات التي يمكن أن تضفي طابعاً احتفالياً على المشهد. كنت مرعوبة من احتمال أن يأتي النازيون بحثاً عنّي، فيعثروا على توقيع شتوفنبورغ على الديوان، ويعتقلونني. أحرقت الكتاب لكي أتنكّر لماريا، لكن هذه النار التي كانت تمحو كلّ ما تبقّى لي منها كانت أيضاً شعيرة وداع خرقاء.

استجوبوا جوزيف، لكنّهم سرعان ما أخلوا سبيله. أمّا أنا فلم يهتمّ أحد بأمري. أجهل المصير الذي آل إليه طفلا ماريا. لم يكونا سوى طفلَين، والألمان، كما هو معروف، يحبون الأطفال.

التدابير الجديدة المتعلّقة بحماية الفوهرر شملت الذائقات أيضاً. أمرونا بإعداد حقائبنا، وجاءوا لأخذنا من البيوت. مضت هيرتا تنظر إليّ إلى أن اختفيت عند منعطف غروس-بارتش وقد ألصقت أنفها إلى زجاج النافذة، والقلق يعصر قلبها مثل أوّل يوم أخذوني فيه.

قبل أن يدخلنا الحرّاس، فتّشونا في الساحة تفتيشاً دقيقاً كما

t.me/qurssan

فتّشوا حقائبنا. وبذلك صرنا نتناول وجبة الغداء ووجبة العشاء وننام في كراوزندورف التي صارت سجننا. ولم يكن يسمح لنا بالنوم في بيوتنا إلّا يومَي الجمعة والسبت. أمّا باقي الأسبوع فمخصّص للفوهرر الذي اشترى حياتنا كاملة بالثمن نفسه، دون أن يترك لنا مجالاً للمُساومة. كنّا ونحن مسجونات في الثكنة جندياتٍ من دون سلاح، إماء من درجة رفيعة. كنّا شيئاً لا وجود له، إذ لا أحد كان يعلم بوجودنا خارج رازتنبورغ.

عاد زيغلر غداة محاولة الاغتيال وأعلن أنّنا سنخضع لمراقبة دائمة. فإذا كانت الأحداث الأخيرة أثبتت أنّ لا أحد يمكن الوثوق به، فنحن أدعى إلى عدم الثقة، نحن النساء القرويات المتعوّدات على صحبة الدواب: ماذا عسانا أن نفهم من الشرف أو الإخلاص، كلمات نسمعها بلا شكّ على أمواج الإذاعة الألمانية -كما تقول أغنية الجنيريك: **تَحَلَّ دائماً بالإخلاص والوفاء**-، لكن نحن، الخائنات بالقوة، نحن من يمكن أن نبيع أطفالنا مقابل كسرة خبز، ونفتح أفخاذنا لأوّل قادم، تدخل هذه الكلمات من أذن وتخرج من الأخرى. لذلك سيحبسنا كما تحبس الدواب في الأقفاص: ستتغيّر الأمور الآن بعد عودته.

كان الحرّاس واقفين مطأطئي الرؤوس، متضايقين -فيما بدا لي- من هذا الخطاب المرتبِك الذي لا صلة له بمحاولة الانقلاب، بل هو أقرب إلى التنفيس الذاتي. قد يكونون حدّثوا أنفسهم بأنّ الملازم ربّما باغت زوجته في السرير مع شخص آخر. لا بدّ أنّه وديع في البيت -بعض النساء يطوّعن أزواجهنّ تطويعاً-، وهو الآن بحاجة إلى أن يتدارك، إلى أن ينتفخ ويرفع صوته: بحاجة إلى أن

t.me/qurssan

يرى عشر نساء خاضعات مذعنات حتى يشعر من جديد برجولته. كان يكفي أن يُعهد له بتسيير ثكنة مؤقّتة ليعتبر نفسه صاحب سُلطة، ويشتطّ في استخدامها.

هذا ما كنت أفكّر فيه.

انحبس تنفُّس إلفريد، ومضَت أوغيستين تلعَن همساً محاذرة أن يلحظها زيغلر، أمّا أنا فرحت أحدّق فيه بانتظار أن تتقاطع نظراتنا، لكنّه كان يتجنّب النظر إليّ: وتهيّأ لي أنّه يقصدني أنا بكلامه. وإلا لكان اكتفى بالرجوع إلى لائحة من العبارات البذيئة ينشئ منها خطاباً صادماً يفرضه علينا مثل أيّ مونولوج لا يتطلّب جواباً. لا شكّ أنّ لديه شيئاً يخفيه، هو من كان يتبادلَ أطراف الحديث مع شتوفنبرغ والبارون في القصر خلال تلك الليلة من ليالي مايو: تساءلت ما إذا كان زملاؤه أخضعوه للتحقيق، وما إذا كان أحد اشتبه فيه. أم أنّه صار مهمّشاً، لا يُحسب له حساب، بحيث لم يلاحظ أحد وجوده بجانب مدبّر المؤامرة والمتواطئين معه. كان زيغلر محبَطاً وغاضباً: غاب في وقت وقع فيه حدث استثنائي.

لكنني قلت في نفسي لاحقاً قد يكون سفره إلى بافاريا محسوباً على الأرجح، وأنّني لم أفهم منه شيئاً، مثلما لم أفهم من ماريا. لقد كذبا عليّ معاً. لم أعرف أبداً الحقيقة، ولم أكلّف نفسي البحث عنها.

وضعوا أسرّة عسكرية في حُجرات الطابق الأوّل، وهو مكان في الثكنة لم يسبق لنا زيارته. ثلاث نساء في كلّ حُجرة، باستثناء الحُجرة الكبرى التي آووا فيها أربع. سمحوا لنا باختيار السرير

t.me/qurssan

والرفقة. اخترت السرير القريب من الجدار، بجانب إلفريد، وكانت ثالثتنا هي ليني. اقتربت من النافذة، فأبصرت حارسَين. كانا يقومان بجولة حول المدرسة، تستغرق مناوبتهما الليلة بكاملها. لمحني أحدهما، فأمرني بأن أنام. كان الذئب ساهراً في وكره يترصّد، جريحاً، محروق الشعر، غاشماً، ومحكوماً عليه بأن يبقى كذلك. أمّا زيغلر، فكان ينام في الحزام الخارجي لفولفشانزي، محرّم عليه الوصول إلى قلب مقرّ القيادة العامة.

همس لي ذات صباح، بعد أيام من ذلك، بينما التقينا في الممرّ: «اشتقت إليك». كنت قد تخلّفت عن الأخريات، إذ عثرت قدمي وفقدت فردة من حذائي. كان الملازم يراقبني من بعيد بينما كان يتابع النسوة وهنّ ذاهبات إلى المطعم. «اشتقت إليك»، رفعت رأسي وقدمي ما زالت لم تدخل الحذاء، والألم لم يبرح كاحلي. وبينما كنت أنتعل الحذاء، اقترب منّي تعبيراً عن الاهتمام بحالي: أدخلت كعبي في الحذاء مستعينة بإصبعي، محاولة حفظ توازني وأنا أقفُ على الساق الأخرى، وبحركة غريزية حاولت الاعتماد على ألبرت، فمدّ لي هو أيضاً يده بحركة لا إرادية. هذا الجسد الذي أعرفه حقّ المعرفة، لا أستطيع أن ألمسه. الآن بعد أن لم أعُد ألمسه، لم أصدّق أنّه هو.

لا يوجد سبب يمكن أن يبرّر انقطاع علاقة غرامية، علاقة مثل تلك التي كانت تجمعنا، بلا ماضٍ ولا وعود ولا التزامات. قد يطمسها الفتور. يتسرّب الخمول إلى الجسد، فيؤثّر الجمود على هزّة الشهوة. كان يكفي أن ألمسه مرّة أخرى، ألمس صدره وبطنه، أو مجرّد تمرير يدي على بزّته، لكي أشعر بالزمن يتفتّت، وتنفتح على

t.me/qurssan

صراعَيها هاويةُ هذه العلاقة الحميمية. لكنّ ألبرت تسمّر في مكانه، استعدت رباطة جأشي. وحين استأنفت السير مستقيمة دون أن أجيبه هرعَ إليّ أحد الحراس، وقرع كعب حذائه رافعاً يده للتحيّة بينما خفض الملازم زيغلر يده.

t.me/qurssan

36

كنت أقضي أوقات فراغي يومَي السبت والأحد مع هيرتا وجوزيف: نجمعُ الخضروات من الحديقة، نتنزّه في الغابة، نجلسُ خلف المنزل نتحدّث أو نلوذ بالصمت ممتنّين أن جمعنا هذا المكان نحن الثلاثة، أنا يتيمة الوالدين، وهما من فقدا ابنهما: فعلاقتنا تقوم على هذا الفُقدان المشترَك، بل على تجربة هذا الفُقدان بالذات.

كنت لا أزال أتساءل عمّا إذا كانا يرتابان في الليالي التي قضيتها مع زيغلر. لقد خنت ثقتهما، وكنت أشعر بنفسي غير أهل لحنانهما، وإن كان هذا لا ينال من صدق حبّي لهما. لطالما أدهشتني السهولة التي يمكن أن يخفي بها الإنسان جانباً من حياته. والحقيقة أنّنا لو كنّا نستطيع الاطّلاع على كلّ شاذّة وفاذّة من حياة الآخرين في حينها لأصابنا الجنون. لكي نعيش حياة طبيعية، نحن بحاجة إلى هذا الجهل.

كان شعوري بالذنب يقتصر على هيرتا وجوزيف لأنّهما كانا حاضرَين، بلحمهما ودمهما، بينما لم يكن غريغور سوى اسم، فكرة تخطر عند الاستيقاظ، صورة في إطار المرآة أو في الألبوم، وكمشة تذكارات، دموع تترقرق ليلاً من دون سابق إعلام، شعور بالغضب والهزيمة والخزي. لم يعد غريغور غير فكرة، لم يعد زوجي.

t.me/qurssan

كنت عندما لا أكون مع حماي وحماتي، أخصّص وقت فراغي للبني التي ترغب في لقاء إرنست بعد الخدمة، لكنّها لم تكن تتجرّأ على الذهاب بمفردها. لذلك تصحبنا معها، أنا وإيلا أو بيت وهايكي مع أطفالهما. وفي بعض الأيّام كانت تنضمّ إلينا إلفريد رغم تضايقها من هذين الجنديّين، وهو أمر لم تكن تخفيه.

قالت بيت بعد ظهر ذات يوم أحد وهي جالسة في شرفة مقهى قبالة بحيرة موي:

- ألست عرّافة عظيمة؟

تدخّلت إلفريد:

- تقصدين ما وقع لهتلر؟ صحيح أنّك تنبّأت بانقلاب أحواله، لكن نبوءتك كذبت.

سألَ إرنست:

- بماذا تنبّأت؟

قالت إيلا:

- هذه عرّافة صغيرة. قرأت طالعه.

علّق هاينر:

- لعمري أنّه كاد يلقى حتفه. لم تكن نبوءتك بعيدة يا بيت، لكن لا أحد يستطيع القضاء على الفوهرر.

حدجته إلفريد بنظرة ازدراء لم ينتبه إليها. عبَّ كأس الجعة ومسحَ شاربيه بظهر يده.

قالت:

- نحن أيضاً كدنا نلقى حتفنا. أوشكوا على تسميمنا، والأدهى هو أنّهم لم يعرفوا المادة التي سمّمتنا.

قلت:

t.me/qurssan

- لم يكن سمّاً. مجرّد عسل فاسد.

سألتني:

- وكيف عرفت؟

وشعرتُ فجأة بقدمَيّ تخوران وأنا على طرف الهاوية، فغمغمت:

- لا أدري. مجرّد استنتاج. أولئك اللواتي ظهرت عليهنّ الأعراض أكلن العسل.

- أين كان هذا العسل؟

- في الحلوى يا إلفريد.

قالت هايكي:

- هذا صحيح، أنا وبيت لم نتقيأ. أنتما الوحيدتان من أكلتما الحلوى ذلك اليوم.

- لكن الحلوى كانت تحتوي أيضاً على اللبن الرابي، ثمّ إنّ تيودورا وغيرترود مرضتا أيضاً مع أنّهما لم تأكلا تلك الحلوى. أكلتا الجبن الأبيض.

بادرتني إلفريد بنبرة غاضبة:

- كيف تجزمين بأنّه العسل، يا روزا؟

- لست أدري، قلت إنّه مجرّد افتراض.

- كلا، أكّدتِ ذلك. هل كرومل هو من أخبرك؟

فقالت إيلا:

- ألا تعلمين أنّ كرومل لم يعد يكلّمها!

ثمّ التفتت إلى الجنديَّين وراحت تشرح لهما لكي تشركهما في المحادثة.

- صديقتنا روزا ارتكبت حماقة كبيرة.

t.me/qurssan

لزما الصمت لأنّهما لم يفهما قصدها.

قلت وأنا أتوجّه إلى بيت وهايكي:

- كانت غلطة أوغيستين، غلطتكنّ جميعاً.

فقالت إلفريد بإلحاح:

- لا تغيّري الموضوع. كيف عرفت؟ أخبريني؟

فنطقت بيت ساخرة:

- هي أيضاً عرّافة!

سألَت الصغيرة أورسولا:

- ما معنى عرّافة؟

قلت وأنا لا أزال أشعر بقدمَيّ خائرتين:

- لماذا أنت غاضبة هكذا يا إلفريد؟ قلت لك لا أدري. تحدّثت مع حماي في الأمر، فخلصنا معاً إلى هذا الاستنتاج.

علّقت إيلا:

- إذا أنعمنا النظر، نلاحظ أنّهم لم يقدّموا لنا عسلاً منذ ذلك اليوم. خسارة يا روزا! الحلوى التي أعطيتني قطعة منها خُلسة كانت لذيذة.

انتهزتُ الفرصة وسارعت إلى القول:

- أنت محقّة. لعلّني استنتجت ذلك من أنّهم لم يعودوا يقدّمون لنا العسل. على كلّ حال، ما أهمية العودة إلى هذا الموضوع؟

كرّرت أورسولا:

- ما معنى عرّافة؟

أجابت بيت:

- ساحرة تستطيع التنبؤ بأشياء تقع في المستقبل.

قال أحد التوأمَين مباهياً:

t.me/qurssan

- ماما تستطيع فعل ذلك.

قالت إلفريد وهي لا تزال تتطلّع إليّ:

- كلّ شيء مهمّ يا روزا!

ولم أستطع احتمال نظرتها.

اعترضَت بيت وهي ترفع صوتها:

- ولكن اتركوني أنهي كلامي! لم أكن ألمّح للفوهرر. فأنا لا أتقنُ قراءة الأبراج كإتقاني لقراءة أوراق التاروت، وزيغلر صادرها منّي.

وانتابتني الرجفة المعتادة التي تنتابني لمّا أسمع اسمه.

- . . . كنت أقصد ليني.

خرجت ليني من النشوة التي تغرق فيها كلّما وجدت نفسها بجانب إرنست.

سحبَها إليه، وقبّل جبينها، ثمّ قال:

- تكهّنتِ بمستقبل ليني؟

همستُ:

- تنبّأتُ بأنّها ستلتقي برجل.

لم أجرؤ على رفع صوتي كما لو أنّني حرصت على ألا تسمعني إلفريد عساها تنسى وجودي معهم.

قالت:

- وبعضهم يظنّ النبوءة تحقّقت.

أكنتُ الوحيدة التي شعرت بالنبرة الساخرة، أم أنّ كذبي عليها، وشعوري بالذنب هو الذي حرّف إدراكي للأشياء؟

قرّب إرنست فمه من أذن ليني المحمرّة، وقال:

- أأنا هو؟

t.me/qurssan

ثمّ ضحك، فضحك هاينر أيضاً ومعهما ليني. أجهدتُ نفسي لكي أجاريهم.

راحوا يضحكون. كانوا يعتقدون أنّ الضحك ما زال مُباحاً، ويظنّون أنّ بإمكانهم أن يثقوا في الحياة والمستقبل. لكنّ إلفريد لم تكن من رأيهم.

كانت تنظر إلى قاع فنجان القهوة دون أن تخطر ببالها فكرة لمراءته. كانت قد أعلنت حرباً لا هوادة فيها على المستقبل، ولا أحد منّا تنبّه إلى ذلك.

في الليلة التي انكشفت فيها الحقيقة لليني، عاودني ذلك الحُلم الذي أسمّيه الاختطاف. وبينما أزاحت الأغطية بلا ضجّة، وغادرت الغرفة حافية القدمين، كانت إلفريد تتنفّس على نحو صاخب: لم يكن شخيراً، بل تأوّهاً حادّاً. كنت أتصبّب عرقاً. بيد أن لا أحد كان يضمّني بين ذراعَيه.

كنت مستغرقة في النوم أحلم. كان ثمّة طيّار، وكان يشعر بالحرّ. شربَ جَرعة ماء، وفكّ طوقه، ثمّ استعدّ لكي يرسم بطيّارته انعطافاً حادّاً، فلاحت له من النافذة في الظلام بُقعة حمراء، خطّ ناري أو مذنّب بيت لحم، على أنّ المجوس هذه المرّة لم يتبعوه، إذ لم يولد ملك يتعيّن عليهم تكريمه. ومع ذلك توجدُ في برلين امرأة شابة، ناعمة الوجه، تشبه ماريا، جاءها المخاض في قبو عمارة شبيهة بعمارة بودينغاس، أمّ كان وليدها يقول في زحمة الولادة: ادفعي، سأساعدك، لكن لم تكد تمضي لحظات حتّى قذفها دويّ قنبلة إلى الخلف. استيقظَ الأطفال الغاطّون في النوم، ومن كانوا مستيقظين منهم راحوا يصرخون، وتحوّل القبو إلى قبر جماعي

t.me/qurssan

تكدّست فيه أجسادهم بعد ان انطفأت أرواحهم اختناقاً. لم تكن بولين موجودة هناك.

لمّا توقّف قلب ماريا، فقدَ الطفل فرصته الوحيدة لكي يرى النور، وظلَّ يسبح في المشيمة دون أن يعرف أنّ مصيره هو الخروج. شيء غريب أن يحمل ميّت في أحشائه ميّتاً آخر.

أمّا في الخارج، فكان الهواء منعشاً، يغذّي ألسنة اللهب المتعالية في السماء لعشرات الأمتار، تضيء بنايات من دون سُقُوف. ذلك أنّ السُقُوف تطايرت عند الانفجار مثلما حدثَ لمنزل دوروثي في فيلم ساحر أوز. وفي الهواء كانت تدور كالدوّامة الأشجارُ والألواحُ الإشهارية. ولو أنّ أحداً نظرَ من خلال تصدّعات جدران بيته، لاطّلع على حياة جيرانه الحميمية: مرمدة مليئة بأعقاب السجائر ومزهريّة لا تزال واقفة رغم انهيار الجدران. لكن لم يبقَ أحد حتّى يتلصّص على الآخرين. كانوا مطروحين أرضاً أو متفحّمين. تماثيل سوداء تجمّدت على حالها وهي تشرب أو تصلي أو تداعب زوجة طلباً للصُّلح بعد شجار بليد. عمّال الفرقة الليلية ذابوا في الماء الحارق المتسرّب من صهاريج انفجرت، والمساجين دُفنوا أحياء تحت الحُطام قبل إنهاء مدّة عقوبتهم، وفي حديقة الحيوان تسمّرت الأسود والنمور في أمكنتها كما لو أنّها محشوّة بالقشّ.

على علوّ عشرة آلاف قدم، كان ما زال بإمكان طيّار القاذفة أن يشاهد من النافذة هذا الضوء المتوهّج، يشرب جرعة ماء أخرى، ويفكّ زرّ طوقه، ويقول في نفسه إنّ الأمر يتعلّق بكوكبة من النجوم: رغم أنّها ميّتة، فهي لا تزال مضيئة.

وفجأة تنبّهتُ إلى أنّني أنا هي الطائرة القاذفة. أنا من توجّهها وتتحكّم فيها، وفي اللحظة التي وعيت فيها ذلك، تذكّرت أنّني لا

t.me/qurssan

اعرف قيادة الطائرات واستخدامها: سأسقط. كانت الطائرة تنزلُ كما لو أنّها في دوّامة، وشعرت بثقوب هوائية تنفتح في صدري، والمدينة تقترب أكثر فأكثر. إنّها برلين، أو لعلّها نورمبرغ، ورأس الطائرة موجّه إليها، متأهّب للارتطام بأوّل جدار، أو لأن ينغرس في الأرض. شعرتُ بحبالي الصوتية مشلولة، غير قادرة على مناداة فرانز لكي ينقذني من الاختطاف، وعاجزة عن طلب النجدة.

- النجدة!

استيقظتُ وأنا أتصبّب عرقاً بارداً جمّد أطرافي.

- النجدة يا روزا!

كانت ليني هي من تطلب النجدة وهي تنتحب. استيقظت إلفريد أيضاً. أشعلتُ المصباح اليدوي الذي تحتفظ به تحت وسادتها. ذلك أنّ الحرّاس لم يفكّروا في تجهيز الغُرف بمناضد أسرّة ومصابيح ثابتة. رأتْ ليني جاثية كالعصفور قرب سريري، فبادرتها:

- ما خطبك؟

استويت جالسة لكي أضمّها بين ذراعيّ، لكنّها قاومتني. كانت تلمس بين فخذيها.

قالت إلفريد بنبرة ملحّة:

- أخبريني بما حدث؟

فتحت ليني يدها: كانت راحتها بيضاء، والخطوط مسنّنة وعميقة، تبدو كشبكة من الأسلاك الشائكة، يعلم الله ماذا كانت ستقرأ فيها بيت. وكانت أطراف أصابعها ملطّخة بالدم. وقالت وهي تنهار على الأرض:

- لقد آذاني.

t.me/qurssan

وتكوّمت على نفسها وصارت بالغة الصِّغر حتّى خيّل إليّ أنّها ستختفي.

جرَت إلفريد حافية إلى الممرّ، وأطلّت من النافذة الوحيدة المفتوحة، فرأت درجات سلّمٍ مسند على الجدار، ولاحت لها هيئة إرنست وهو ينزل الدرج الأخير ويضع قدميه على الأرض.

أمسكت بقضبان النافذة وقالت له متوعّدة: «ستؤدّي ثمن ما فعلت!»، لا بدَّ أنّ الحراس سمعوها، لكنّهم لم يحفلوا بوعيدها. أين كانوا بينما دخلَ جندي من الجيش إلى الثكنة؟ أكانوا لاهين أم أنّهم تواطؤوا معه؟ افعل ما تشاء، لكن سيكون دوري غداً.

رفع إرنست رأسه دون أن يجيب، واختفى.

حين ضرب لها موعداً منتصف الليل أمام النافذة الثالثة في الممرّ، لم تمانع. قالت في نفسها: أنتِ امرأة راشدة، لا يمكن أن تنكثي وعدك، لا سيّما أنّها، هي المتحفّظة الساذجة، مُعجبة بإرنست.

لم تكن ليني تستطيع أن تخيّب ظنّه فيها مخافة أن تفقده؛ لذلك لم تجد بدّاً من الموافقة، حسناً، سآتي. وعند منتصف الليل تماماً، ورغم الظلام والحرّاس، لحقت به عند النافذة التي تُرِكت مواربة بعد العشاء بحيث يسهل عليه فتحها من دون ضجّة حين يتسلّق السلّم. وبمجرّد ما تخطّى النافذة وأصبح في الداخل، تعانقا بابتهاج وقد وحّدهما هذا السرّ، وجمعهما هذا التواطؤ الرومانسي المتمثّل في مخاتلة عيون الحراس، والبحث عن مكان يخفيان فيه مداعباتهما. للأسف كلّ الغُرف مشغولة، وفي الغُرفة الوحيدة المتبقّية الخالية من الأسرّة، كان الحرّاس يلعبون الورق ليخفّفوا من سأم المناوبة الليلية.

t.me/qurssan

اقترح إرنست:

- هيّا بنا إلى المطبخ. الحرّاس لا يتفقّدونه بكلّ تأكيد.

فقالتليني:

- سيتحتّم علينا أن ننزل، سيرونك.

- ألا تثقين بي؟

ضمّها إليه، ودون أن تنتبه، وجدت نفسها تنزل الأدراج دون أن يتفطّن لهما أحد، ودون أن يعترض سبيلهما أحد. قادته ليني وهي تمسك بيده إلى المطبخ. كم كانت خيبتهما كبيرة حين اكتشفا أنّ كرومل وضع قفلاً على بابه: كان عليهما في الحقيقة أن يتوقّعا ذلك لا سيّما أنّ مخزون الفوهرر من الطّعام مكدّس هناك. كان الطبّاخ يقول: إن لم تحترم كرومل، فأنت لا تستحقّ طعامه. شعرَت ليني بالأسف لأنّها لم تكن تريد أن تسيء عليه الأدب. لا شكّ أنّ إرنست لاحظَ انزعاجها، فداعبَ خدّها وأذنَيها وعنقها وقفاها وظهرها وردفيها وفخذيها، وضمّها إليه حتّى التصقت به تماماً، وصارا قريبَين أكثر من أيّ وقت مضى، ومضى يقبّلها قُبلات طويلة. وبينما كانا يمشيان إلى الخلف ببطء دون أن يتباعدا، قادها إلى الغرفة الأولى التي كان بابها مفتوحاً.

كانت الغرفة هي المطعم، لكنّ ليني لم تنتبه إلى ذلك إلا حين اصطدم إرنست بأحد المقاعد في الضوء الخافت الداخل من إحدى النوافذ. والواقع، ماذا عساها أن تطلب أكثر من هذا؟ فهذا مكان مألوف لديها، بمائدته الخشبية الثخينة وكراسيه البسيطة، وجدرانه العارية: فهي تنفق، منذ ما يجاوز السنة، ساعات عديدة من اليوم في هذه القاعة، حتّى صارت بيتها الثاني. لا يمكن أن تخاف هنا.

t.me/qurssan

ستتغلّب على خوفها. اهدئي يا ليني، تنفّسي بعمق. لقد كبرتِ الآن، لا يصحّ أن تتراجعي. لمّا كان إرنست طفلاً، كان يرمي طائرات ورقية من نافذة قاعة الدرس بلوبيك ويحلم بأن يطير، بينما كنت أنت تتعلّمين القراءة وأنت تتابعين بإصبعك كلّ حرف من الحروف المطبوعة. كنت تحرّكينه على نحو آلي على الصفحة، وأنت تتهجّين المقاطع الواحد تلو الآخر إلى أن تنطقي الكلمة كاملة، وتحلمين بأن تصبري قوية ذات يوم، أقوى من أصدقائك الذين لا يحتاجون إلى استعمال أصابعهم، ويقرؤون بسُرعة بحيث ينفد صبرهم وهُم ينتظرونك. لم تكوني تعلمين أنّك ستلتقين، بعد سنوات من ذلك، بهذا الطفل الصغير الذي كان يحلم بأن يصبح طيّاراً. هكذا هو الحبّ: تمرّ كلّ هذه السنوات وأنتما بعيدان عن بعضكما، لا يعرف أحدكما بوجود الآخر، تفصل بينكما مئات الكيلومترات، تكبران وتستويان راشدَين، هو يفوقك طولاً ويحلِق ذقنه، بينما تستدير أردافك. تُصابين خلال هذه المدّة الطويلة بالحمّى وتشفين، تأتي العطلة وتحلّ أعياد الميلاد، وتتعلّمين الطبخ، ويؤدّي هو الخدمة العسكرية. يقع كلّ هذا دون أن يعرف أحدكما الآخر. كان بالإمكان ألا تتعارفا. يا له من خطر تعرّضتما له! مجرّد التفكير فيه يجعل قلبك ينقبض: كان يكفي أن يقع شيء غير ذي بال: تفاوت بسيط، خطوة أثقل، لقاء امرأة أجمل لحظة قبل لقائك، لحظة خاطفة، يا ليني، كان يكفي ألّا يجتاح هتلر بولندا، لكي لا تلتقيا.

نقلَ إرنست الكراسي من دون ضجّة، ضمّ ليني بين ذراعَيه وجعلها تستلقي على المائدة، تلك التي نأكل عليها، نحن الذائقات، تلك التي أشاحت عنها ليني لكي تقيء أوّل يوم، وبسبب هذا

t.me/qurssan

الضعف الصارخ اخترتُها صديقة، أو اختارتني. وحين وجدَت نفسها مستلقية على الخشب في قميص النوم الرفيع الذي لم يقِ فقرات ظهرها من الاحتكاك بالسطح الصلب. لم تقاوم ليني، ولم تطلب الانصراف.

استلقى فوقها: في البداية غمرها ظلّه، ثمّ شعرت بعد ذلك بردفَيها وركبتَيها التي أبت المباعدة بينهما ترزح تحت عضلات شابّ رفضته القوّات الجويّة.

عليها أن تتعلّم على غرار سائر النساء. ستتعلّم هي أيضاً. يتعوّد الإنسان على كلّ شيء، على أن يأكل حسب الطلب، على أن يبتلع كلّ شيء، وأن يتحكّم في الغثيان، ويتحدّى السمّ والموت وحساء الشوفان. هايكي ينبغي أن تذوقي، وإلا غضب عليك زيغلر. لا حاجة لنا بنساء غير مطيعات. أنتنّ هنا لتنفيذ ما أريد، أيّ ما يريد الفوهرر، أيّ إرادة الربّ. وأفلتت من فمها صرخة مخنوقة: «إرنست!».

وشوشَ لها:

- حبيبتي.

- ينبغي أن أخرج يا إرنست. لا يمكن أن نفعل هذا هنا. لا أريد.

وقع ذلك بينما كنتُ نائمة أحلم بالاختطاف، وبينما كانت إلفريد نائمة تتنفّس من أنفها على نحوٍ صاخب في غرفتنا المشتركة بالطابق الأوّل، حيث يوجد ثلاثة أسرّة، أحدها فارغ، وبينما جفا النوم النساء الأخريات بسبب التفكير في أطفال أودعوهنّ لدى جدّة أو أخت أو صديقة، بما أنّه لا يسمح لهنّ بأخذهم إلى الثكنة، ولا يستطعن الهرب من النافذة. في تلك اللحظة بالضبط كان إرنست

t.me/qurssan

يحاول إقناع ليني باللين، وبما أنّه لم ينجح، لأنّها تتخبّط، ولاحظ أن ضجيجها بدأ يتعالى، أغلق فمها ونال وطره منها. قدومها إلى الموعد معناه أنّها تعرف ما سيفعلان. وهو لم يأتِ هذه الليلة إلّا من أجل ذلك.

t.me/qurssan

37

لم تكن ليني تتمتّع بسرعة البديهة، لكنّها ما إن رأت إلفريد تنهض وتتّجه نحو الحارس الفارع حتّى فهمت. هتفت: «انتظري!» لكن إلفريد لم تنتظر. قامت ليني بدورها وقالت:

- هذا ليس شأنك. هذا الأمر لا يعنيك.

- تظنّين أنّك لا تملكين حقوقاً؟

أربكَ السؤال ليني التي تضرّج وجهها. وأضافت إلفريد:

- الحقّ مسؤوليّة.

- وماذا بعد؟

- إن كنتِ غير قادرة على تحمّلها، ينبغي أن يتحمّلها عنك غيرك.

قالت ليني بصوت واهن:

- لماذا تصرّين على إيذائي؟

نخرت إلفريد والتقطت نَفَساً عميقاً.

- أنا أؤذيك؟ أيعجبك دور الضحية؟

- هذه ليست مشكلتك.

فصاحت بها إلفريد:

- هذه مشكلتنا جميعاً، أفهمت.

t.me/qurssan

صرخَ الحارس بصوت أعلى من صوتيهما، وترك ركن القاعة آمراً إياهما بالصمت والعودة إلى الجلوس.

قالت إلفريد:

- ينبغي أن أتحدّث إليك.

- ماذا تريدين؟

قامت ليني بمحاولة أخيرة:

- أرجوك.

لكزتها إلفريد لتتخلّص منها، فهببتُ لإنقاذها. لم أكن أنوي الدفاع عنها، ولكن هكذا هي ليني. هي دائماً الأضعف.

قالت إلفريد موضّحة:

- ينبغي أن أخبر الملازم زيغلر بحادثٍ وقعَ في الثكنة. حادث يسيء لسمعتها.

بدت الدهشة على وجه الحارس. لم يسبق لإحدانا أن طلبت التحدُّث إلى زيغلر، بما في ذلك المسعورات. لا شكّ أنّه كان يجهل ما إذا كان من حقّنا تقديم ملتمس كهذا، لكنّ كلام إلفريد أربكه. ثمّ إن هذه المشاحنة بين الذائقتَين لا يمكن أن تكون بلا سبب.

قال آمراً وهو يشعر بالرضا من أنّ أوامره ما زالت مُطاعة:

- إلى الساحة جميعاً.

سحبتُ ليني، فهمستْ:

- هذه مسألة شخصية، فلماذا تصرّ على أن تذيعها للملأ؟ لماذا تصرّ على إهانتي؟

توجّهت النسوة الأخريات إلى الساحة في غير انتظام.

قال الحارس:

t.me/qurssan

- ابقي أنت هنا.

وقفت إلفريد ملتصقة بالجدار.

سألتُها هامسة حتّى لا يسمعني الحارس الذي كان متوجّهاً إلى الخارج.

- أأنت متأكّدة؟

أجابت بحركة من ذقنها موافقة ثمّ أغمضت عينيها.

تركت ليني نفسها تسقط على الأرض: لم يكن ذلك متعمّداً، لكنّها جلسَت وسط إطار لعبة الحجلة الذي بالكاد تظهر خطوطه، أيّ وسط المحيط السحري الذي فشلَ في حمايتها. قرفصتُ بجانبها بينما مضت الأخريات يرهقنها بالأسئلة، لا سيّما أوغيستين. فقلتُ:

- ألا ترين أنّ حالتها لا تسمح بالجواب؟

كنت أراقب المطعم بطرف عيني، على أنّ إلفريد لم تكن بادية. وحين تفرّقت النسوة من حول ليني، اقتربَت من الباب. سمعتُ وقع أقدام على الأرض فتراجعت. جاءني صوت الحارس: «هيّا!» تضاعف وقع الأقدام، وانتظرت إلى أن ابتعدت لكي أتقدّم إلى عتبة الباب. كانت إلفريد تسير في الممرّ مع الحارس.

لم يمانع الملازم، خلافاً لكلّ التوقُّعات، في استقبالها. لعلّه مللُ الأسابيع التي أعقبت محاولة الانقلاب: كان يبحث عمّا يسلّيه، وقد يكون ذلك راجعاً إلى تشديد الإجراءات الجديدة. لا ينبغي أن يقع شيء دون أن يُخبر به. وشعرتُ بنفسي في خطر كما لو أنّ إلفريد حين ستدخل إلى مكتبه يمكن أن ترى من ألبرت ما رأيته، يمكن أن تراني من خلال بؤبؤ عينَيه، فتكتشف كلّ شيء.

جاءت إلفريد إلى مكتب زيغلر لكي تبلّغ عن إرنست كوخ،

t.me/qurssan

ضابط صفّ بالقوات البرّيّة. صرّحت أنّه خلال الليلة السابقة، ورغم حظر الدخول، تسلّل إلى الثكنة حيث تنام الذائقات، وهنّ مواطنات ألمانيات في خدمة الفوهرر، واغتصبَ امرأة شابّة ألمانية مثله، هو من يُفترض أن يمثّل الرايخ، ومن يُتوقَّع منه الدفاع عنّا ضدّ العدو.

دوّن زيغلر أسماء الحرّاس الذين كانوا مكلّفين بحراسة الثكنة تلك الليلة، واستمعَ إلى كلٍّ منهم، كما استمع إلى إرنست ولِيني. كلّ ذلك يوحي برغبة حانقة في إحلال الحقّ وإنزال العقاب.

حكت لي ليني أنّها أجابت في عتمة مكتب المدير عن أسئلة الملازم بالصمت أوّلاً، ثمّ غمغمت بأنّها هي من أخطأت، وأنّ الضابط كوخ أساء فهمها، لأنّها لم تكن واضحة بما فيه الكفاية، وأنّها ضربت له موعداً في الثكنة، لكنّها ندمت على الفور. هل وقع الجماع، نعم أم لا؟ لم تكذّب ليني ما حكته إلفريد. سألها زيغلر عمّا إذا كان الجماع تمّ برضاها، فحرّكت ليني رأسها حركة سريعة وهي تتمتم بأنّها لم تكن راضية.

رغم تصريحاتها المتناقضة، لم يحفظ زيغلر القضيّة، بل بعث بتقرير عن إرنست كوخ إلى رؤسائه بالفيرماخت الذين سيقرّرون، بعد سلسلة تحقيقات وتحرّيات، ما إذا كان الشابّ سيمثل أمام المحكمة العسكريّة.

بحثت ليني عن هاينر لتسأله عن أخبار إرنست. تحدّث إليها بأدب، لكنّه بدا فاتراً كما لو أنّه خائف من ارتكاب حماقة بلقاء الضحية أو المدّعية. لم يدافع عن صديقه، بل سعى لأن ينأى بنفسه عن هذه القضية. كانت ليني تقول: لقد دمّرت حياته.

تجنّبتُ إثارة هذا الموضوع مع إلفريد خوفاً من أن يفتضح أمري

t.me/qurssan

«للما وقع مع حكاية العسل. سامحيني، قالت لي ونحن عائدتين إلى الثكنة عصر ذات يوم أحد. إنّ ذكرى اليوم الذي سمّمونا فيه، أو بالأحرى أطعمونا عسلاً فاسداً كما قلتِ، تحنقني. فأجبتها، لا تقلقي، ثمّ ما أدرانا إن كان العسل. . . ؟

كنت جبانة، لذلك لم أفهم الباعث الذي حملها على الدفاع عن قضية لا تعنيها رغم معارضة المعنية بالأمر. كان موقف الفارس النبيل هذا عبثياً. منذ سنوات وأنا أعتبر البطولة عبثاً، وأتضايق من كلّ أشكال الإقدام والإيمان، لا سيّما الإيمان بالعدالة التي كنت أرى فيها بقايا نزعة مثالية رومانسية، وسذاجة حالمة، واهمة ومفصولة عن الواقع.

شاعَ الخبر بين الذائقات، ولم تتردّد المسعورات في نكئ الجرح: أدخلتِه خفية إلى الثكنة، ثمّ تتهمينه بأنّه هو من أذنب؟ كلا يا صغيرتي، هذه لعبة بائخة.

حاولت أوغيستين أن تواسي ليني، وتقنعها بأنّ إلفريد قامت بعمل يستحقُّ الثناء، وأنّ عليها أن تكون ممتنّة لها. لكنّها لم تقتنع. هل ستمثل أمام المحكمة؟ لماذا تتسبّب لها صديقتها في كلّ هذا العذاب؟ هي من كان يصيبها الخرس كلّما دُعيت للقيام إلى السبّورة في المدرسة.

ضغطت على نفسي، وذهبتُ إلى إلفريد التي بدت فاترة معي.

قلت لها بضيق:

- إنّ حماية الشخص قسراً يعدُّ اعتداء عليه.

أزالت السيجارة المُطفأة من بين شفتيها وقالت:

- حقّاً؟ هل يصدق هذا على طفلة في نظرك؟

t.me/qurssan

- ليني ليست طفلة.

- هي عاجزة عن الدفاع عن نفسها، ومن ثمّة ما الفرق بينها وبين الطفلة؟

- من منّا هنا تستطيع أن تدافع عن نفسها؟ كوني موضوعية! لقد رضينا بكلّ أشكال الشطط. المسألة ليست مسألة اختيار دائماً.

- أنت محقّة.

سحقت سيجارتها على الجدار كما لو أنّها لم تكن منطفئة، إلى أن خرج التبغ من الورق الممزّق، ثمّ ابتعدت، واضعةً بذلك حدّاً للمحادثة.

- إلى أين تذهبين؟

ردّت دون أن تلتفت:

- لا يمكن للمرء أن يهرب من قدره. هذه هي المسألة باختصار.

هل نطقَت بهذه الجملة الجليلة حقّاً؟

كان بوسعي أن أتبعها، لكنّني أعرضت. مهما يكن، فهي لا تنصت لكلام أحد. كما تريدين، قلت في نفسي.

أأحسنتْ إلفريد صنعاً حين بلّغت عن إرنست رغم معارضة ليني؟ كنت عاجزة عن الجواب. لكن كان ثمّة شيء يزعجني في هذه القصّة، ويشعرني بضيق ملتبس.

t.me/qurssan

38

أبصرت زيغلر في الممرّ، فتظاهرت بالتواء كاحلي. خرجت قدمي من الحذاء، وخانتني ركبتي، فسقطت. هرع إليّ ومدّ لي يده، أمسكتها، فساعدني على النهوض. اقترب أحد الحرّاس أيضاً:

- كلّ شيء على ما يرام، سيّدي الضابط؟

- رجلها تؤلمها.

لم أنبس ببنت شفة.

- سأرافقها إلى المراحيض حيث يمكنها أن تسكب عليها ماءً بارداً.

- لا تزعج نفسك سيّدي الضابط، يمكن أن أطلب من إحدى...

- لا داعي.

تبعت زيغلر، ولمّا وصلنا إلى مكتبه، أدخلني وأغلق الباب بالمفتاح. تناول وجهي بين يديه بلهفة حتّى كاد يسحق وجنتَي، وقبّلني. وفكّرت بأنّ هذه العلاقة لن تنتهي قطّ، وأنّه يكفي أن ألمس صدره بإصبعي لكي تعود إلى سيرتها الأولى.

- شكراً على ما فعلت.

t.me/qurssan

لقد فضّل حماية إحدانا عوض التستُّر علي ضابط الصفّ من الجيش. وخُيّل لي أنّه من جانبنا، من جانبي.

قال وهو يرفع تنّورتي ليكشف عن فخذَيّ:

- اشتقتُ إليك.

لم يسبق لي قطّ أن لمسته نهاراً، ولم يسبق لي أن رأيت بهذا الوضوح التجاعيد التي تحفرها الشهوة على جبينه، وهذه النظرة، نظرة من يخشى أن يتبدّد كلّ شيء في لمح البصر، لهفة فتى مراهق. لم يسبق لنا اللقاء في مكان ليس مكاني، أو بالأحرى مكان غريغور. لقد دنّست المخزن، وها نحن الآن ندنّس الثكنة، مكان هتلر، مكاننا.

طُرق الباب، فسوّى زيغلر بعجلة سرواله، ونزلت من فوق المكتب وأنا أحاول أن أزيل انكماش تنورتي، وأعدّل شعري. بقيت واقفة بينما كان يتحدّث إلى الحارس الذي راح يسترق النظر إليّ. طأطأت رأسي واستدرت لكي لا أواجهه، وعدّلت من جديد شعري وأنا أنظر إلى رزم الورق الموضوعة على المكتب لكي أفلت من نظراته. وفي هذه اللحظة أبصرت الملفّ.

كُتِبَ على الصفحة الأولى: إلفريد كون/ إيدنا كوفشتاين.

وشعرتُ بالدم يتجمّد في عروقي.

همسَ زيغلر وهو يضمّني من الخلف:

- ماذا كنّا نقول؟

كان قد صرف الحارس دون أن أنتبه. جعلني أدور على نفسي ثمّ سحبني إليه وقبّلني على شفتَيّ ولثّتي وأسناني وزاويتَي فمي، وقال:

- ماذا بك؟

t.me/qurssan

- من تكون إيدنا كوفشتاين؟

تراجع ودار على المكتب بلا مبالاة ثمّ جلس.

تناول الملفّ، ووضعه في الدرج وهو يقول:

- انسي هذا الموضوع.

- قلْ لي ما الأمر، أرجوك. ما العلاقة بين هذه المرأة وإلفريد؟ لماذا أعددتم لإلفريد ملفّاً؟ أأعددتموه لي أنا أيضاً؟

- هذه معلومات سرّيّة، لا أستطيع الإفضاء بها لأحد.

كلا، لم يكن في جانبنا. فهو لم يبلّغ عن ضابط الصفّ إلا لأنّ ذلك يدخل ضمن سلطته، سلطة أراد أن يمارسها كاملة.

- وبماذا يمكن أن تفضي لي؟ قبل لحظة كنت تضمّني بين ذراعَيك.

- عودي إلى المطعم، من فضلك.

- الآن تعاملني معاملتك لمرؤوسيك. أنا لست تحت إمرتك يا ألبرت.

- ومع ذلك أنت ملزَمة بتنفيذ أوامري.

- ألأنّنا في ثكنتك البلهاء؟

- لا تستسلمي لنزواتك يا روزا، تصرّفي كما لو أنّك لم تري شيئاً. هذا أفضل لنا جميعاً.

مددت يدي من فوق المكتب، وأمسكت بطوق بزّته وقلتُ له بحنق:

- لن أسكت، فإلفريد صديقتي.

داعب زيغلر ظهر يدَيّ ورسغي.

- أأنت متأكّدة؟ إلفريد كون لا وجود لها، أو على الأقل، إن كانت موجودة، فهي ليست من تعرفين. وحرّرَ طوقه من قبضتي

t.me/qurssan

بفظاظة حتّى كدت أفقد توازني وأسقط. تراجعت إلى الخلف، فأمسك بمرفقي.

- إيدنا كوفشتاين غوّاصة حرب.

- ماذا تقصد؟

- صديقتك إلفريد امرأة متنكّرة يا روزا. إنّها يهوديّة.

لم أستطع تصديق كلامه. توجد يهودية بين ذائقات طعام هتلر.

- أرني ملفّها يا ألبرت.

نهض من مكانه واقترب منّي:

- حذار من أن تخبري أحداً بهذا.

كانت بيننا يهوديّة، وهي بالتحديد إلفريد.

- ما مصيرها؟

- هل سمعتِ ما قلت يا روزا؟

- ينبغي أن أخبرها، ينبغي أن تلوذ بالفرار.

- كلامك يضحكني.

ولمحت على وجهه التكشيرة نفسها التي رأيتها ذات يوم في المخزن.

- تريدين تدبير فرارها، وتخبرينني بذلك؟

- إلى أين ستبعث بها؟

- هذا عملي، لن يمنعني أحد من القيام به، حتّى أنت.

- ساعدها يا ألبرت، إن كنت تستطيع.

- لماذا سأساعد يهوديّة متنكّرة خدعتنا طوال هذه المدّة؟ غيّرت هويّتها واختبأت بيننا. أكلت طعامنا، ونامت على أسرّتنا. توهّمت أنّها تستطيع أن تتحايل علينا. لكن ها هي تخطئ وينكشف أمرها.

- أتوسّل إليك، اخفِ هذا الملفّ. من سلّمه لك؟

t.me/qurssan

- لا أستطيع إخفاء هذا الملفّ.

- لا تستطيع؟ أنت تقرّ إذاً بأنّ لا سلطان لك هنا؟

- كفى!

سدّ فمي بيده، فعضضتها. دفعني بقوة حتّى اصطدمَ رأسي بالجدار. راحت عيناي ترمشان منتظرة أن ينتشر الألم ويصل إلى ذروته، ثمّ يخفّ. وحين زال، بصقت على وجهه.

ألفيت فوهة مسدّسه تضغط على جبيني. لم يكن زيغلر يرتعد.

- نفّذي ما أمرتك به.

بهذه اللّهجة تحدّث لأوّل مرّة في الساحة، لمّا أخفقت عيناه المتقاربتان في إخافتي. البؤبؤان العسليان نفسهما يحدّقان فيّ الآن بينما يطبع المعدن دائرة باردة على بشرتي. كان العصب الموجود تحت وجنتي يتقافز، وأنا غير قادرة على ابتلاع ريقي، أحبس دمعتين في زاويتي عيني دون أن أبكي، وقد انقطعت أنفاسي.

قلت وأنا أزفر:

- حسناً.

حوّل زيغلر فجأة فوهة مسدّسه، وأعاده بحركة حادّة إلى غمده وعيناه لا تزالان مصوّبتين عليّ. ثمّ ضمّني بقوّة إليه، وحشر أنفه الصغير في رقبتي. طلب منّي المعذرة ومضى يتحسّس بيده ترقوتَيّ وردفَيّ وضلوعي، كما لو أنّه يريد أن يتثبّت من أنّني كاملة. وقال:

- سامحيني أرجوك.

ثمّ أضاف مبرّراً:

- ولكنّك أنت من تدفعينني دفعاً إلى هذا. سامحيني.

كنت في منتهى التأثّر وغير قادرة على الكلام. كنّا معاً في منتهى التأثّر.

t.me/qurssan

قال مؤكّداً وهو ينظر إلى شعري:

- سيكون الأمر أسوأ إن هربَتْ.

لم أجب بشيء، فأضاف:

- ينبغي أن تحتفظي بهذا لنفسك. أعدك بأن أفعل ما بوسعي.

- أرجوك.

- أعدك.

لمّا رجعت إلى المطعم، سألتني الأخريات أين كنت.

قالت إيلا:

- سحنتك غير عادية.

- صحيح، لونك شاحب. أكّدت ليني.

- كنت في المراحيض.

- كلّ هذا الوقت؟ سألَت بيت.

هتفت أوغيستين وهي تسترق النظر إلى هايكي:

- يا إلهي! لا تقلن لي إنّها فعلتها أيضاً.

طأطأت هايكي رأسها، وطأطأت بيت أيضاً رأسها متظاهرة بأنّها لم تسمع.

قلتُ محاولة تحويل الانتباه:

- تعجبني كياستك يا أوغيستين.

نظرت هايكي إليّ ثمّ نظرت إلى إلفريد، وخفضت رأسها. أنا أيضاً كنت أنظرُ إلى إلفريد طوال الغداء. كلّما باغتتني أنظر إليها، أشعر بقلبي ينفطر.

وبينما كنت أصعد إلى الحافلة، شعرتُ بأحدهم يسحب ذراعي، فالتفتُّ.

t.me/qurssan

- ماذا بك أيّتها البرلينية، أما زال منظر الدم يخيفك؟

كانت إلفريد تبتسم. لم تخزّني إبرة، ولم تؤخذ منّي عيّنة دم، لكنّ هذه الإشارة التي لا يفهمها سوانا، ذكّرتني بمنشأ صداقتنا.

كان يلزم أن أخبرها. قد أستطيع الوثوق بزيغلر، لكن ليس بضابط من الشرطة العسكرية: كان ينبغي أن تعرف إلفريد ما يجري. لكن ماذا عساها تفعل؟ تهرب؟ كيف لي أن أساعدها؟ وحده زيغلر يستطيع، لا أملك خياراً آخر. لقد وعدني بذلك. قال سيكون الأمر أسوأ إن هي فرّت. ينبغي أن أصدّقه. فما نحن سوى بيادق في يده. ينبغي أن ألزم الصمت. هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ إلفريد.

أجبتها:

- لم أتعوّد قطّ على رؤية الدم.

ثمّ جلستُ بجوار ليني.

في اليوم الموالي، ظلّت النسوة يردّدن أنّني صرت غريبة الأطوار: ألأنّني تلقّيت أخباراً عن غريغور، رسالة أخرى من الرسائل التي يبعثها المكتب المركزي لأسر الجنود؟ كلا. من حسن حظّك. لقد قلقنا عليك. ماذا بك إذاً؟

وددت لو أبوح بالسرّ لهيرتا وجوزيف، لكنّهما كانا سيسألانني كيف علمت بذلك، وهو أمر لا أستطيع أن أبوحَ به. في المساء الذي مشّطت لي فيه إيلا شعري، وشربت إلفريد وليني الشاي، بعد انصرافهنّ، أسرّت هيرتا لجوزيف بأنّها لم تعرف كيف تصنّف إلفريد. فيها شيء ما غريب، علّق جوزيف وهو يملأ غليونه بالتبغ، شيء مؤلم بالأحرى.

قضيت الأسبوع مرعوبة من أن يأتوا لأخذ إلفريد مثلما أخذوا

t.me/qurssan

أستاذي وورتمان. لم أكن أجرؤ على النظر من النافذة إلى الخارج. لم يكن شيء يسلّيني: لا العصافير ولا الأشجار. كان عليّ أن أظلّ مترصّدة أحرس إلفريد. كانت جالسة هناك، في الجانب الآخر من المائدة، تأكل بطاطس بزيت الكتّان مطبوخة في الفرن.

t.me/qurssan

39

دخل زيغلر بينما كنّا على وشك الانتهاء من تناولِ وجبة الفطور. لم نلتقِ في مكتبه مرّة أخرى، وانقطع كلّ اتصال بيني وبينه.

كانوا قد قدّموا لنا حلوى بالتفاح وجوز الهند والزبيب، سمّاها كرومل حلوى الفوهرر. لم أكن أعرف ما إذا كانت وصفة هذه الحلوى من إيحاء الفوهرر أم أنّ كرومل مزجَ فيها كلّ ما يحبّه قائده، تكريماً له. ومنذئذ لم آكل الزبيب.

أعلن زيغلر وهو واقف عند مدخل المطعم، مباعِداً ما بين قدمَيه، واضِعاً يدَيه على ردفَيه:

- إيدنا كوفشتاين.

رفعتُ رأسي بغتة وقد انقطعت أنفاسي. تجنّب النظر إليّ.

التفتت الأخريات يَمنة ويَسرة مذهولات: من تكون إيدنا هذه، ليس فينا من تحمل هذا الاسم. ما معنى هذا؟ كوفشتاين، قال الملازم، اسم يهودي. وضعن السكاكين والملاعق والشوك على المائدة أو على طرف صحونهنّ، وشبكن أيديهنّ على بطونهنّ. إلفريد أيضاً تركت شوكتها تسقط رغم قطعة الحلوى العالقة في طرفها، لكنّها لم تلبث، بعد تردُّد قصير، أن رفعتها إلى فمها ومضت تمضغ ببطء. شدهتني رباطة جأشها: هكذا كانت تتصرّف إلفريد

t.me/qurssan

دائماً، لا تُظهر الخوفَ أبداً، ولا تسمح لأحد، حتّى لو كان من الشرطة العسكرية، أن يمتهن كرامتها.

تركها زيغلر تنهي الأكل. أيّ لعبة يلعب؟

لمّا فرغ صحن إلفريد، كرّر:

- إيدنا كوفشتاين.

قمتُ باندفاع متهوّر بحيث أسقطت الكرسي الذي أجلس عليه.

فقالت إلفريد وهي تتّجه نحو الملازم:

- لا داعي لأن تسرقي منّي الأضواء أيّتها البرلينية.

بادرها:

- هيّا بنا.

وتبعَته دون أن تلتفت إلى الخلف. كان اليوم يوم سبت، وكنّا سنعود إلى بيوتنا في المساء.

أقلعت الحافلة من دون إلفريد.

سألتني ليني:

- أين هي؟ لم تحضر وجبة الغداء ولا العشاء.

فأجبتها لكي أطمئنها:

- ستحكي لنا كلّ شيء لمّا تعود غداً.

- وما علاقتها بإيدنا كوفشتاين؟

- لستُ أدري يا ليني، كيف لي أن أعرف؟

- أتراهما تحدّثا عن إرنست من جديد في نظرك؟

- كلا، لا أظنّ.

- لماذا قمتِ واقفة بتلك الطريقة يا روزا؟

t.me/qurssan

أشحت عنها، فكفّت عن السؤال. كنّا جميعاً ذاهلات، وكانت أوغيستين تسترق النظر إليّ بين الفينة والأخرى. كانت تهزّ رأسها أفقياً ولسان حالها يقول: **هذا مستحيل، لا أستطيع تصديقه، يهوديّة بيننا، كنت تعلمين ذلك يا روزا؟** كانت كما لو أنّها تقول: **ماذا سنفعل الآن وقد كشفوا أمرها، أتعرفين ماذا علينا أن نفعل؟**

في اليوم الموالي، في المكان الذي اعتادت إلفريد أن تنتظر فيه الحافلة، لم يكن ثمّة ولو عقب سيجارة يشير إلى أنها كانت تقف هناك.

أعلنوا لنا في المطعم أنّ الفوهرر سيغادر يوم الاثنين، وسيتغيّب عشرة أيّام، عشرة أيّام سنتخلّص فيها من الثكنة. لم يقف زيغلر تحت نافذتي تلك الليلة ولا الليلة الموالية. أمّا إلفريد، فانقطعت أخبارها.

بينما كانت إيلا تتحدّث إلى مجموعة جنود كانت تخالطهم باستمرار -أجهل ما إذا كان هاينر من بينهم، لكن القضيّة كانت قد شاعت بين الناس على كلّ حال- اكتشفت أنّ من بلّغ عنها هو إرنست: **أتصدّقين ما تقول هذه المرأة؟ أتعرفين ماذا فعلت؟ رافقت ذائقة إلى رجل يعيش مختبئاً في الغابة لكي يجهضها. لا أحد يعرف من يكون ولا لماذا يختبئ. قد يكون فارّاً من الجيش أو مُعادٍ للرايخ.**

ليني هي من حكت له هذا. وجدت فيه ربّما نكهة المغامرة، فأسرّت له به متبجّحة، ربّما لتثير إعجابه. لقد كانت تثق في إرنست ثقة عمياء.

زارَ زيغلر بيت هايكي، واستنطقها لساعات. أنكرت في

t.me/qurssan

البداية، لكنّه حين شرع يهدّد طفليها، تكلّمت. شرحت أنّ ذلك وقع في غابة غورليتز، ناحية بحيرة تاوخل.

لم يكن للرجل أوراق هوية، لكنّ الاستعلامات لم تواجه صعوبة في معرفة من يكون. طبيب يهودي مُنع من مزاولة مهنته، استطاع البقاء على قيد الحياة طوال تلك المدّة. وإلفريد تعرفه حقّ المعرفة: إنّه والدها.

كانت أمّها، وهي ألمانية العرق، قد طلبت الطلاق. ورغم أنّ إلفريد كانت نصف ألمانية، رفضت التخلّي عنه وإن لم تكن تعيش معه. عندما كانت تسكن دانتزيغ قبل سنوات، تنازلت لها إحدى صديقات الأسرة عن بطاقة هويّتها. مسحتا معاً تاريخ الولادة، وغيّرتاه. نزعتا الصورة وعوّضتاها بأخرى، وأعادا بالفرشاة رسم الأختام وتوضيح جناحَي النسر والدائرة المُحيطة بالصليب المعقوف، وبذلك صارت إيدنا كوفشتاين إلفريد كون.

نجحَت في خداع البوليس السرّي لسنة كاملة. كان يوجد بين ظهرانيهم عدو يطعمونه كلّ يوم أطباقاً شهية، دون أن يساورهم شكّ في أنّه ليس منهم.

لا بدّ أنّ إلفريد عاشت في ترقُّب دائم، تشعر بالخوف من أن يكتشف أمرها مع كلّ لقمة، يساورها خلال كلّ رحلة بالحافلة شعور بالذنب ممّن يركبون القطار ولا يعودون، ممّن لا يملكون ما يكفي من الذكاء والموهبة لكي يكذبوا: هذا أمر ليس بمستطاع الجميع.

ربّما استعادت اسمها وأوراقها بعد الحرب، وستتذكّر الفترة التي عاشتها متخفّية برباطة جأش، رغم أنّ هذه السنوات ستأهل كوابيسها كلّ ليلة. وحتّى تتخلّص منها، ستحكيها لأحفادها خلال

t.me/qurssan

وجبات عيد الأنوار، أو لعلّها ستضرب صفحاً عن هذه الفترة مثلما فعلتُ أنا.

لو أنّ إلفريد لم تُستدعَ للعمل كذائقة، لكانت ربّما بقيت على قيد الحياة. لكنّها رحلت في الوقت نفسه الذي رحل فيه أبوها.

هيرتا هي من حكتها لي، سمعتِ النساء يتحاكينها وهنّ ينتظرن دورهنّ في الطابور لجلب الماء من البئر. كانت قصّة اليهودية التي حيّرت النازيين قد انتشرت في المقاطعة بكاملها. أكان سكّان غروس-بارتش ورازتنبورغ وكراوزندورف، يعلمون منذ البداية بوجودنا، وبطبيعة عملنا؟

«رحّلوها» قالت هيرتا جازمة دون أن تضع شفتها العليا بين أسنانها بحيث تصير أشبه بسلحفاة، بل ظلّت، بكلّ بساطة، أشبه بوالدة. عرفَت في حياتها حزناً عميقاً واحداً، وهو فقدان غريغور، ولم يكن بإمكانها أن تتألّم من أجل غيره.

غادرتُ المنزل صافقة الباب من خلفي. كان الوقت مساء. سألني جوزيف:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

لكنّني لم أجبه. همتُ على وجهي، إذ كنت أشعر بتوتّر في ساقاي لا يمكن أن يبدّده أو يفاقمه إلا مجهود عضلي.

كانت توجد على أعمدة الكهرباء أعشاش، لكنّها فارغة، لا لقالق فيها. لن تعود إلى هذا المكان، بروسيا الشرقية، لأنّه مكان موبوء، يغشاه مستنقع واسع، ورائحة العفن منتشرة حيثما ولّيت وجهك. ستغيّر طريقها، وستنسى هذا السهل إلى الأبد.

مشيتُ بلا توقّف وأنا أقول في نفسي: لماذا ورّطتِ نفسكِ؟

t.me/qurssan

كان بإمكانك أن تلزمي الصمت. أيّ حاجة دعتكِ إلى الدفاع عن ليني، لا سيّما أنّها لم تطلب منك شيئاً؟

كان ذلك انتحاراً: استسلمت إلفريد لشعورها بالذنب نحو الضحايا. أو لعلّها مجازفة لم تقدّر عواقبها، تهوّر عابر قادها إلى حتفها. الاندفاع نفسه الذي لم تعرف كيف تلجمه حين دفعتني على الجدار المبلّط ذي الجنبات السوداء. الآن أدركت أنّها كانت تشعر بأنّها مراقبة، وعاشت في خوف دائم من أن يُكتشف أمرها. أكانت تقصد، ذلك اليوم في المرحاض، أن تمتحنني؟ أم أنّ الحيوان المحبوس في القفص، المهووس بالرغبة في الخروج، يجازف بفعل أيّ شيء لكي يفتحوا له الباب، حتّى إن كان ذلك الباب لا يقود إلى الحرية؟ بالنسبة إلى إلفريد، المتحفّظة الأنوفة، ربّما كان ذلك ببساطة سبيلها الوحيد لتتقرّب منّي.

لم ننل الحظ نفسه من القسمة. اعتقلت هي بينما لم يصبني أنا مكروه. وثقتُ بزيغلر، لكنّه خانني. سيقول لي: هذا عمله، ولكلّ عمل إكراهاته. كلّ عمل هو نوع من الرقّ: حاجة إلى لعب دور في هذا العالم، أن يكون المرء مسيّراً في اتّجاه محدّد لكي يتجنّب خطر الزيغ عن السكة، ليتجنّب التهميش.

لقد عملت لدى هتلر. إلفريد أيضاً، وجدَت نفسها في وكر الذئب، وأمِلَت أن تخرج منه سالمة. لست أدري ما إذا كانت من شدّة تعوّدها على التخفّي، كانت تشعر بأنّها في أمان تامّ، وهذا هو السرّ في تلك الخطوة غير المحسوبة، أم أنّها استسلمت لقدر لم يكن بوسعها أن تفلت منه دون أن تشعر بالخسّة.

كلّنا وجدنا أنفسنا في وكر الذئب مكرَهات. لم يرَنا الذئب قطّ، رغم أنّه التهمَ الطعام الذي مضغناه، وطرح فضلاتنا نفسها، دون أن

t.me/qurssan

يعلم عنّا شيئاً. كان رابضاً في وكره، الفولفشانزي. وددت لو أدخله، لو يشفطني. قد تكون إلفريد محبوسة هناك في أحد المخابئ المحصّنة، تنتظر البتّ في أمرها.

مضيت أتسكّع على طول السكّة الحديدية، وسط العشب الطويل الذي كان يخزُ ساقي، وتجاوزت النقطة حيث تتقاطع الطريق والسكة الحديدية، وحيث نُصب جذع سمّرت عليه خشبتان على شكل صليب، مصبوغتان بالأحمر والأبيض. واصلت السير دون أن ألتفت إلى الخلف. تمتدّ السكّة بثبات خلف ركام من الأزهار البنفسجية: ليست نفل المروج، لا وجود لجمال هنا يمكن أن يوقظني. كنت أتقدّم كالمسرنمة. وبتصميم امرأة مسرنمة تابعت طريقي إلى أن بلغت الحدّ الأقصى. وددت لو أخترقه، وأتوغّل في قلب الغابة النابض، وأذوب فيه إلى الأبد، مثل خرسانة المخابئ المحصّنة تحت الأرض والطحالب ورقائق الجصّ المعدّة للتمويه، والأشجار المغروسة على السقوف. وددت لو يبتلعني: ربّما تقذف بي الفولفشانزي لآلاف السنين فتحوّلني إلى سماد.

لم يوقظني من سهوتي إلا طلق ناري، فسقطت إلى الخلف. «توقّف، من هناك؟»، تذكّرت القنابل التي حدّثني عنها زيغلر، أين كانت؟ لماذا لم تدُس قدماي إحداها؟ «ارفع يديك!»، ألأنّني سلكت طريقاً آخر غير مفخّخ؟ أين كان زيغلر؟ «لا تتحرّك!»، مجرّد طلقة في الهواء على سبيل التحذير. لقد تساهلوا معي.

صوّب الحرّاس أسلحتهم عليّ وأنا رافعة يدَيّ، ونطقت باسمي: «روزا ساور، أعمل لفائدة الفوهرر، أتنزّه في الغابة، لا تؤذوني، أنا إحدى ذائقات طعام هتلر».

t.me/qurssan

ارتموا عليّ مسدّدين أسلحتهم إلى ظهري وهم يصرخون بكلام لا أذكره. كلّ ما بقي في ذهني هو صوتهم الخانق الذي دوّى في أذني، وأفواههم المُشرعة، وشَدّة قبضتهم والكيفية العنيفة التي ساقوني بها: لعلّهم ماضون بي إلى الفولفشانزي حيث سيسجنونني أنا أيضاً في أحد المخابئ المحصّنة.

أين كان جوزيف؟ أكان يبحث عنّي؟ هيرتا تنتظر في المطبخ شابكة يديها المعوّجتين. أتراها تنتظرني أنا أم تنتظر غريغور؟ لكنّ الليل ما لبث أن حلّ، لن يعود ابنها إلى البيت جائعاً، أمّا أنا فلم أعد أشعر بالجوع.

قادوني إلى ثكنة كراوزندورف. كم كنت ساذجة حين اعتقدت أنّهم سيتركونني أدخل إلى مكان مخصّص لمن اصطفاهم الفوهرر. أجلسوني إلى مائدة المطعم. لم يسبق لي أن ألفيت نفسي هناك بمفردي. على هذه المائدة فقدَت ليني بكارتها. قال إرنست في نفسه: أيّ ضير في ذلك؟ أقسم لك أنّ ليني كانت تبدو مبتهجة. كلّنا نبدو راضين في ألمانيا. أغلقوا الباب، وبقيت هناك أحصي المقاعد الفارغة، وحارس واقف في الجهة الأخرى من الباب.

بعد نصف ساعة أو خمسين دقيقة، فتح كروملِ الباب.

– ماذا تصنعين هنا؟

قلت مستجدية تعاطفه:

– ماذا تفعل هنا؟ ألم تكن في إجازة؟

– طبعاً، لا يمكن أن أترك فرصة العطلة تفلت منّي.

ابتسمتُ له وذقني يرتجف.

قال غير عابئ بحضور الحارس:

t.me/qurssan

- أتأكلين شيئاً؟

وقبل أن أتمكّن من الإجابة، وصل زيغلر. نادوا عليه لكي يبتّ في النازلة المؤسِفة: إحدى الذائقات حاولت التسلّل إلى المنطقة الأولى من مدينة المخابئ المحصّنة.

حيّا كرومل الملازم بمجاملة مبالغ فيها، وأومأ إليّ برأسه دون أن يغمز بعينه كما كان يفعل قبل ذلك بشهور، أيّام كنّا نتبادل أطراف الحديث في مطبخه. صرف زيغلر الحارس أيضاً، وأغلق الباب.

ودون أن يجلس، أعلن أنّه سيرافقني إلى البيت، لكن في المرّة القادمة، لن تنتهي الأمور هكذا.

- فيمَ كنت تفكّرين، لا تخفي عنّي؟

اقتربَ من المائدة، وأضاف:

- أنا ملزم بأن أقدّم توضيحات غداً حول ما وقع. سأواجه متاعب بسببك. عليّ أن أشرح لهم أنّك كنت تتنزّهين، وأنّه مجرّد خطأ، وهي مهمّة ليست باليسيرة. أفهمتِ؟ بعد ما وقع في شهر يوليو، بإمكان أيّ كان أن يكون خائناً أو جاسوساً أو عميلاً...

- مثل إلفريد؟

لاذَ زيغلر بالصمت، ثمّ سأل:

- أكنت تبحثين عنها؟

- أين هي؟

- أبعدناها.

- أين؟

- المكان الذي تبادر إلى ذهنك.

مدَّ لي ورقة.

t.me/qurssan

- بإمكانك أن تكاتبيها. فعلتُ كلّ ما بوسعي، صدّقيني. لا تزال على قيد الحياة.

نظرت إلى اليد التي تمسك بالورقة، ولم أتناولها.

كمّشها زيغلر ورماها على المائدة، وهمّ بالخروج. ظنّ ربّما أنّني لم أتناول الورقة غطرسة، وأنّني لو كنت بمفردي، لدسستُ العنوان في جيبي. لم تكن لي جيوب، ولم أحضر حقيبتي الجلدية.

- لم أعد أرغب في الكتابة إلى أُناس لا يجيبونني.

توقّف زيغلر، ونظرَ إليّ بإشفاق. هذا ما كنت أبحث عنه، لكن ذلك لم يواسني.

- إنّهم ينتظرونك بالخارج.

نهضت ببطء وأنا مرهقة. ولمّا مررت بجانبه، أعلن:

- لم يكن لديّ اختيار آخر. فعلت ما تحتّمه عليّ وظيفتي.

- أرقّوْكَ؟ أم ما زالوا يعتبرونك عاجزاً مسكيناً؟

فتحَ الباب، وقال:

- اغربي.

في الممرّ، شعرت كما لو أنّني أمشي في الماء، وهو ما تنبّه إليه زيغلر، فسارعَ إلى مساندتي، لكنّني تجنّبته. فضّلت أن أسقط. لم يلتوِ كاحلي، وواصلت السير.

وسمعته يقول لمّا لحقت بالحرّاس الذين كانوا ينتظرونني عند مدخل الثكنة:

- الخطأ ليس خطئي.

فأجبته دون أن ألتفت:

- بلى، إنّه خطؤنا.

t.me/qurssan

40

صعقني اختفاء إلفريد. لم أحقد على ليني، لكنّني لم أستطع مسامحتها أيضاً. لم تكن حسرتها وحزنها على ما وقع كافيَين في نظري. هممتُ بأن أقول لها إنّ الحسرة لا تجدي، وأنّه كان عليها أن تصون لسانها، على أنني لزمت الصمت. لم أعد أتحدّث لأحد. ورغم أنّ الأصوات خفتت في المطعم، لم أعد أطيقها. فإلفريد تستحقّ شيئاً من الاحترام، وأنا كنت بحاجة إلى الهدوء.

كانت زميلاتي يأكلن مطأطآت الرؤوس، ولا يجرؤن على السؤال: ماذا كنت أعرف؟ ولماذا قمتُ ذلك اليوم من مقعدي؟ كنت أشعر بعيونهنّ مصوّبة عليّ، ليس عيون المسعورات فحسب، اللواتي لم يكنّ يتحرّجن من الشتم. ولو أنّ أوغيستين لم تمسكني، لكنت ارتميت على تيودورا وطرحتها تحت مقعدها، هي من كانت تجلس طوال هذه الشهور بجانب إلفريد، ومع ذلك لم تُبدِ أسفاً على اختفائها. المسعورات أيضاً كنّ يخالطن إلفريد كلّ يوم، واجهن الموت معاً، ونجون منه أيضاً معاً، لكن كلّ ذلك لم يؤثّر فيهنّ، ولم يبعث في نفوسهنّ مشاعر التعاطُف. مضت سنوات وعقود وأنا أتساءل: «كيف أمكن ذلك؟»، وما زلت لم أفهم.

مرضت هايكي، ومنحها الطبيب شهادة طبّية تثبت أنّها تعاني من

t.me/qurssan

«وعكة»، فتغيّبت عن العمل لأسابيع. لا أدري ما إذا كانوا صرفوا لها الأجر مع ذلك. لم تكن بيت تجهر بالشكوى من التكفّل بالطفلَين، ربّما حياء. أمّا أنا فكنت أدعو الله أن يستغرق شفاء هايكي وقتاً أطول ريثما يخفّ غضبي عليها، وكنت واثقة من أنّه لن يخفّ أبداً. وددت لو أضربها، لو أقتصّ منها.

ولكن بأيّ حقّ؟ فأنا لم أكن بأحسن منها.

لم يشغّلوا ذائقة جديدة عوض إلفريد. بقي مقعدها بجانب ليني فارغاً شأن سريرها بجواري. ربّما كان ذلك مقصوداً لكي يذكّرونا باستمرار بما ينتظر من تسوّل لها نفسها شقّ عصا الطاعة، أو ربّما لأنّ الفوهرر كان مشغولاً بأمور أخرى. فجيشه يتعرّض للإبادة. أن تزيد ذائقة أو تنقص، فذلك آخر ما يمكن أن يشغل باله.

بينما كنت أنتظر الغسيل بعد ظهر يوم من الأيام تعطّلت فيه بسبب غياب آخر للفوهرر، اقتربت منّي هيرتا. كانت رائحة الصابون الطيّبة، وأشعّة الشمس الناعمة، ونداوة الملابس بين الأصابع، كلّ ذلك كان يبدو كشتيمة.

كان صوت المذياع يتردّد في البيت، ومن النافذة كانت تصل أصوات وأنغام احتفالات يوم الأمّ الألمانية. هذا إذاً هو سبب سفر الفوهرر. ذهب لتوشيح الأمّهات الولودات. تساءلت في نفسي وأنا أنشر غطاء المائدة على الحبل: أحلّ 12 أغسطس؟ ما عدت أعدّ الأيّام. كان يوم الثاني عشر سيكون عيد ميلاد كلارا لو أنّها لم تمت منذ سبع وثلاثين سنة، يوم كان هتلر لا يزال ولداً مضطرباً بعد أن رحلت والدته.

بقيت هيرتا واقفة تنظر إليّ عوض أن تهبّ لمساعدتي. كانت

t.me/qurssan

...و كما لو أنّها تهمّ بقول شيء، لكنّها لزمت الصمت في الأخير، ...مت تنصت للمذياع. يقدّم الفوهرر ميداليات الشرف للأمّهات الجديرات بها، اللواتي نجحن في إنجاب ثمانية أطفال أصحّاء، ولا ...مّ بعد ذلك إن كان منهم من سيموت بالجوع أو حمّى التيفوس قبل ان تزغب أذقانهم، إن كانوا فتياناً، وتنبت نهودهنّ إن كنّ فتيات. ...لا يهم ما إذا كانت الحرب ستلتهم من سينجو. المهمّ هو أن يوجد مجنّدون جُدد يعوّضون من ماتوا في الجبهة، ونساء جديدات قادرات على الإنجاب. كانت أوغيستين تقول إنّ الروس الذين لم تعد تفصلهم عنّا مسافة كبيرة، سيحبلوننا جميعاً. فتعلّق إيلا: من الأفضل حمل جندي روسي على البطن من حمل أميركي على الرأس.

نظرتُ إلى السماء، لم تكن تجوبها أيّ طائرة، سوفييتية كانت ام أميركية. كانت تكسوها طبقة خفيفة من السُّحب، تتسلّل عبرها أشعة الشمس بين الفينة والأخرى. كانت هيرتا قد شرحت لي أنّنا سنهرب إلى الغابة إن بدأ القصف. سنأخذ معنا الطعام والماء وبعض الأغطية. فغروس-بارتش لا توجد فيها ملاجئ محصّنة تأوي سكّان القرية، كما لم تكن فيها مسارب تحت الأرض. قالت إنّها تفضّل أن تنام بهدوء واضعة خدّها على جذور شجرة من أن تنام في قبونا. مجرّد التفكير في القبو يصيبها بالاختناق. قلت لها: حسناً، سنفعل ما تشائين، وكنت أكرّر لها هذه العبارة كلّما أثارت هذا الموضوع، رغم أنّني لم أكن أنوي مغادرة البيت رغم دويّ الانفجارات، مثلما كان يفعل أبي: سأربت بأصابعي على الوسادة وأنقلب على جانبي الآخر.

والحال أنّ المذياع يكذّب كلّ المخاوف. لماذا هذه الأفكار

t.me/qurssan

السيّئة في هذا اليوم بالضبط؟ إنّه يوم عيد، يوم احتفال بأطفال الرايخ. فالألمان، وهو أمر معروف، يحبّون الأطفال، وأنت؟ بعض النساء استجبن للدعوة بحماس، لكنّ كفاءتهنّ لم تصل إلى المدى المطلوب: رغم إنجابهنّ ستّة أطفال، لم يحصلن سوى على ميدالية فضّيّة. لكنّه خير مع ذلك. فهذا سيحفّزهنّ على بذل مزيد من الجهد، ومن يدري؟ فقد يُتوّجن في السنة القادمة. لا ينبغي الاستسلام والاعتراف بالهزيمة أبداً. هذا ما يلقّننا إيّاه الفوهرر. أمّا الأخريات، فسيكتفين بميدالية نحاسية، لأنّهنّ لم يلدن سوى أربع مرّات، لا غير. وبذلك لا يمكن أن يطمحن لأكثر من ذلك. لو شاركت حماتي مثلاً، فلن تنال شيئاً. لم تحبل سوى ثلاث مرّات، لا أقلّ ولا أكثر. طفلان ماتا مبكّراً، والثالث فقدته أيضاً. فالألمان يحبّون الأطفال حتّى إن دُفنوا أو فُقدوا. أنا لم أنجب ولو مرّة.

- منذ متى انقطع عنك الحيض؟

تركت فوطة مبلّلة تسقط من يدي في حوض الغسيل، وشددت قبضتي على ملقط النشير.

- لستُ أدري.

أجهدت ذهني لكي أتذكّر، لكن عبثاً. ما عدت أعدّ الأيام. التقطت الفوطة، ونشرتها، لا لشيء إلّا لكي أتمسّك بالحبل.

- لماذا؟

- لاحظت منذ مدّة أنّك لم تعودي تغسلين خرقاتك. لم أعد أراها منشورة.

- لم أنتبه إلى ذلك.

وضعت هيرتا يدها على بطني، وتحسّسته.

قلت وأنا أبتعد:

t.me/qurssan

- ماذا تفعلين؟

لولا حبل النشير، لكنت سقطت على الأرض.

- كلا، ماذا تفعلين أنت؟ ماذا فعلت؟

مضت شفتاي وفتحتا أنفي ترتجف. كانت هيرتا قبالتي، باسطة يديها، كما لو أنّها تريد أن تمسك ببطن لا وجود له. بطن قد ينتفخ.

- لم أفعل شيئاً.

أكنتُ حبلى من زيغلر؟

- لماذا تجفلين هكذا إذاً؟

أيلزمني التخلُّص من الجنين مثل هايكي؟ ولكن أين هي إلفريد لكي تساعدني؟

- لم أفعل شيئاً يا هيرتا.

لم تجب حماتي. لطالما وددت لو أنجب طفلاً. إن كانت الأمور قد اتّخذت هذا المنحى، فغريغور هو من يتحمّل المسؤولية. مدّت هيرتا يدها من جديد. ماذا لو أنّني صمّمت على الاحتفاظ بهذا الطفل؟

وصرخت:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

في تلك الأثناء، أطلّ جوزيف من النافذة. أطفأ المذياع وسأل:

- ماذا جرى؟

انتظرت أن تجيبه زوجته، لكنّها أومأت له بأنّ هذا شأن لا يعنيه. منذ اختفت إلفريد وأنا مكتئبة، متقلّبة المزاج. ألم يكن يعرف إذاً؟ جريت إلى غرفتي، ولزمتها إلى صباح اليوم الموالي. لم أنم تلك الليلة.

t.me/qurssan

خلال الأشهر التي كنت أعاشر فيها زيغلر، كنت أتأمّل جسدي كما لو أنّه شيء جديد. كنت وأنا جالسة على حوض المرحاض أتأمّل التجاعيد على خاصرتي، ولحم الجانب الداخلي من فخذَيّ، وبشرة ردفَيّ، فلا أتعرّفها. لم تعد منّي، صارت كما لو أنّها من جَسَد امرأة غيري. وبينما كنت أغتسلُ في حوض الغسيل، تحسّست كتلة ثديَي وهيكلي العظمي، ومُرتكَز قدميّ على الأرض، وتشمّمت رائحتي لأنّها كانت رائحة زيغلر، وقد كان يجهل إلى أيّ مدى هي شبيهة برائحة أمّي.

كانت علاقتنا على حساب زمن النوم، بعيداً عن شؤوننا الشخصية. أنكرنا كلّ ما له صلة بالواقع، وظننّا أنّه يكفينا حجب وجوهنا لكي نجعل ذلك الواقع في حكم العدم. لم يخطر ببالي يوماً أنّني يمكن أن أحبل منه. كنت أرغب في طفل من غريغور، لكن غريغور اختفى، ومعه اختفى حُلمي بأن أصير أمّاً.

كان ثدياي ثخينَين ومؤلمَين. لم أكن أستطيع تفحُّص لعوتيهما في الظلام حتّى أتثبّت ممّا قد يكون لحقهما من تغيُّر في اللون والشكل. لم أكن أجرؤ على جسّ غُدَدي التي صارت كعناقيد صلبة أو كعُقَد في حبل. في الليلة السابقة فقط، لم أكن أشعر بألم في كليتي، والآن أحسّ كما لو أنّ ضربات سوط تلهبُ أسفل ظهري.

وبينما كان العالم بأسره يُلقي القنابل، وهتلر يصنع آلة إبادة تزداد فعاليتها باطّراد، كنّا أنا وألبرت نحضن بعضنا كما لو أنّنا في حُلم، كما لو أنّنا نائمان في مكان بعيد موازٍ، وصلنا إليه من دون داعٍ. لا توجد للحب دواع أبداً. لا توجد دواع لتقبيل نازي ولا حتّى لإنجابه.

ثمّ أوشكتْ سنة 1944 على الانتهاء، وتنبّهت إلى أنّ وجودي

t.me/qurssan

بدأ يتضاءل منذ لم يعد يلمسني. وكشف جسدي عن بؤسه، عن سباقه الحتمي نحو التحلُّل. لقد خُلق من أجل هذه الغاية، شأنه شأن بقيّة الأجساد: كيف يمكن أن يعشق؟ كيف لشيء منذور للتعفُّن أن يعشق؟ من يعشقه كمن يعشق الديدان التي سيتحوّل إليها.

لكن، ها هو هذا الجسد ينبعث الآن من جديد، يبعثه زيغلر رغم بُعده عنّي، ورغم عدم شوقي إليه. لقد وُهبت طفلاً، فلماذا لا أحتفظ به؟ وإذا عاد غريغور؟ عندئذ -وأنا أطلب من الله ألا يعود في هذه الحالة، وأن يغفر لي هذا الدعاء- سأكون مضطرة إلى مقايضة -ماذا تقولين؟- حياة غريغور بحياة طفلي. أتقدّرين خطورة ما قلت؟ ولكن من حقّي أن أتعلّق بهذا الطفل، أن أنقذه.

حين خرجتُ لكي أتوجّه إلى الثكنة، كانت هيرتا تجمع النشير. هي من أتمّت نشره. وكان قد يبس في تلك الأثناء. لم نقل شيئاً سواء في تلك اللحظة أو عند عودتي من العمل بعد العصر. جاءت الحافلة في إثري وبذلك انتهى يوم الأحد. سأنام تلك الليلة في كراوزندورف ولن أعود إلى البيت إلا يوم الجمعة الموالي.

مددت ذراعي وأنا مستلقية على فراشي، ومسندة ظهري على الجدار، لأتحسّس فراش إلفريد. كان فارغاً. شعرت كما لو أنّ شيئاً يُنتزَع بعنف من بطني. كانت ليني نائمة بينما كنت أبحث عن حُلول. وقد قضيت الأسبوع بكامله في البحث. أأخبر زيغلر وأقبل مساعدته؟ قد يعثر على طبيب يجهضني، ربّما في مقرّ القيادة. يشتري صمته، فيقوم بالمتعيّن في مراحيض الثكنة، ولكن، إن تعالى صراخي؟ إن لطّخت البلاطة بالدم؟ هذا المكان غير مناسب. سيحملني زيغلر في سيارته، ويدخلني إلى الفولفشانزي بعدما يلفّني

t.me/qurssan

في طبقات عديدة من الأغطية العسكرية، ويخفيني في صندوق السيارة. سيتشمّم الحرّاس رائحتي من خلال الأغطية. إنّهم كلاب حراسة مدرّبة أحسن تدريب. لن أنجو منهم. سيكون من الأفضل أن يرافق الملازم الطبيب إلى الغابة حيث سأكون بانتظارهما واضعة يدي على بطني. كلا، هو غير منتفخ، ومع ذلك هو موجود بداخله. وعلى غرار هايكي، سيخرج ابني وأنا متمسّكة بشجرة، لكن بمفردي: سيقول الطبيب إنّ عليه أن يعود بسرعة، فيرافقه زيغلر. سأحفر حفرة عند جذع شجرة بتولا، وأواريه التراب، وأنقش صليباً على اللحاء، من دون اسم، لأن طفلي لا اسم له. لا داعي لأن أسمّيه بما أنّه لم يولد.

أو بخلاف كلّ التوقُّعات، قد يرغب زيغلر في الاحتفاظ به. سيقول: لقد اشتريت لنا منزلاً هنا في غروس-بارتش. لا أرغب في البقاء هنا في غروس-بارتش. أريد العودة إلى برلين. ها هي المفاتيح، سيقول وهو يضعها في يدي، سننام معاً هذه الليلة. هذه الليلة سأنام في الثكنة مثل أمس وأوّل أمس وغداً. لا بدَّ أن تضع الحرب أوزارها، سيجيب، وسأجد تشبّثه بهذا الأمل أمراً ساذجاً. ربّما كان ذلك مجرّد فخّ ليجبرني على الاحتفاظ بالطفل، ثمّ يسرقه منّي، ويأخذه إلى ميونيخ ويرغم زوجته على العناية به. كلا، لن يرضى أبداً بالاعتراف أمام أُسرته وأمام الشرطة العسكرية بأنّه أب طفل لقيط. سيتخلّص منّي: تدبّري أمرك، من يضمن لي أنّه ابني؟

شعرتُ بالوحدة. فأنا لا أستطيع أن أخبر هيرتا ولا جوزيف ولا بقيّة الذائقات. على كلّ حال، لا أحد منهم قادر على مساعدتي بشيء. وبذلك تخيّلت أنّه لم يعد أمامي إلّا التحالف مع زيغلر. كنت في منتهى الحيرة والجَزَع. ليت غريغور كان حاضراً. كنت أحسّ

t.me/qurssan

بحاجة شديدة إلى التحدّث إليه. كان سيقول لي وهو يضمّني بين ذراعَيه: لا تجزعي. إنّه مجرّد حلم مزعج.

ولم تلبث العقوبة أن حلّت: لم تكن سمّاً ولا موتاً، بل حياة. لقد عاقبني الربّ بالحياة. حقّق حلمي، وها هو الآن يطلُّ عليّ من علياله، ويسخر منّي.

لمّا عدت الجمعة، وجدت هيرتا وجوزيف قد تناولا عشاءهما ويتأهّبان للنوم. كان الجوّ بارداً وحماتي قد غطّت كتفيها بكنزة صوفية. بالكاد حيّتني. أمّا هو فبدا ودوداً كعادته ولم يسألني عن فتور زوجته.

انتابتني تشنّجات في السرير، وكنت أشعر بالتهاب كليتيّ، وبإبرة تنغرس في حلمتي اليسرى كما لو أنّ أحداً يخيطها ويغلقها. لن تُرضعي طفلك: اسرقي الحليب من كرومل إن كنت فعلاً مصمّمة على الولادة. كان الدم يضجّ في رأسي، وأحسّ كما لو أنّه عالق بين فكّي ملقط. وحين استيقظت في الصباح، كنت منهكة.

بينما كنت أفرك عينيّ، لاحظت بُقَعاً داكنة على الغطاء. كان قميصي ملطّخاً أيضاً... نزيف، يا للهول، إنني أفقد الجنين! سقطت على ركبتَيّ، وحشرت وجهي في الفراش. لقد فقدت طفل زيغلر. طوّقت بطني بيدي لكي أستبقيه. لا ترحل، لا تفعل ما فعل الآخرون، ابقَ بجانبي. تحسّست ثديَيّ. كانا ليّنين. لم أعد أشعر فيهما بشيء، مجرّد ألم خفيف لا يكاد يُلحظ، كنت معتادة عليه.

لم أحبل من زيغلر قطّ.

كانت إلفريد ستقول: هذا شيء مألوف. أعجب كيف تجهلينه أيّتها البرلينية. أكنت تجهلينه؟ يكفي أن تتعرّض المرأة لكرب شديد

t.me/qurssan

أو يُضعف الإنهاك جسدها لكي ينقطع عنها الحيض. الجوع أيضاً قد يتسبّب في ذلك، ولكنّك غير جائعة مثلي. أنا أيضاً انقطع عنّي الحيض في هذا المكان الذي أوجد فيه. إنّ دوراتنا الشهرية متناغمة كما تقول ليني.

بينما كان خدّي مضغوطاً إلى الفراش، رحت أنتحب على الفريد إلى أن ابتلّ الغطاء، وسمعت صوت المنبّه. ارتديت ملابسي على عجل، وتركت البقعة الحمراء على الفراش بارزة لكي تراها هيرتا.

حين ركبت الحافلة، أسندت صدغي على زجاج النافذة، وواصلت البكاء على الطفل الذي لن أرزقه أبداً.

t.me/qurssan

41

لم تخطئ بيت. أمور الفوهرر ساءت. لم يخنه بعض مناصريه في شهر يوليو، وكاد يفقد حياته فحسب، بل فقد بعد شهر تقريباً نصف مليون رجل على الجبهة الغربية ووجدَ نفسه يواجه نقصاً في الرجال والعَتاد، بينما عانقت باريس الحرية. وفي الجبهة المقابلة، كان تفوّق ستالين العسكري واضحاً: غزا رومانيا، واستسلمت له فنلندا، ودفع بلغاريا إلى الانسحاب رسمياً من الحرب، وأوقع بخمسين كتيبة ألمانية في منطقة البلطيق. كان الجنرالات يحذّرون باستمرار من العدوّ الزاحف، وقادة الأركان يتعرّضون للتوبيخ والزجر لأنّهم يحاولون إقناع هتلر بذلك، بينما يصمّ هو أذنيه: ستواصل جيوشه القتال طالما لم يستسلم العدو ويتمكّن منه اليأس كما كان يقول فريديريك الأعظم. سننهكهم، وننقذ الشرف. طالما أنّه على قيد الحياة، لن نكرّر ما وقع سنة 1918. ولكي يقسم على ذلك، يضرب صدره باليد اليُمنى بينما يخفي اليُسرى خلف ظهره، لأنّها مصابة برجفة مزمنة، لم ينجح بعد موريل في تشخيص سببها. ويصيح الفوهرر: **كفّوا عن ترديد أنّ الجنود السوفييت على أبواب المدينة، هذه مؤامرة.**

لم نكن نعرف شيئاً عن كلّ هذا، أو على الأقلّ شيئاً مضبوطاً.

t.me/qurssan

كنّا ممنوعين من الإنصات لإذاعة العدو. وإذا كان جوزيف يستقبل أحياناً أمواج الإذاعة البريطانية أو الفرنسية، لم نكن نفهم منها شيئاً ذا بال. ولكنّنا كنّا نرى بأعيننا أنّ هتلر يكذب، وأنّه عوض التسليم بالواقع، يفقد السيطرة، ويمضي إلى حتفه جارّاً معه الأمّة بكاملها. ومنذئذ صار الكثير من الألمان يكرهونه. أبي كرهه منذ البداية. لم نكن نازيين أبداً. لا يوجد نازيّ في أسرتي، باستثنائي أنا.

وفي شهر نوفمبر، استدعيت إلى مكتب زيغلر، من دون تمويه هذه المرّة. قادني الحارس بتكتُّم بحيث اعتقدت الأخريات أنّني ذاهبة إلى المراحيض. تساءلت، وقد شددت قبضتي من الغضب، عمّا يريده منّي الآن، لا سيّما بعد انقطاع العلاقة بيننا منذ شهور.

التقيته طبعاً بعد الليلة التي رفضتُ فيها تناول الورقة والكتابة لإلفريد: صادفته في الممرّ أو في المطعم. لكنّه بدا لي ذلك اليوم مختلفاً، خفّ الشعر قليلاً فوق صدغيه، وبشرة وجهه المشدودة كانت دهنية تلمع على جانبي أنفه وذقنه.

تشبّثت بمقبض الباب متأهّبة لمغادرة المكتب.

– ينبغي أن تهربي.

مِن مَن سأهرب إن لم أهرب من الملازم زيغلر؟

قامَ وغادرَ مكتبه ليقف على بعد مترين منّي، مسافة أمان بنحو من الأنحاء. شبك ذراعيه وأعلن أنّ السوفييت على وشك الوصول، وأنّهم ينهبون البيوت ويهدّمونها، ومن ثمّة ينبغي الفرار. عارض الفوهرر ذلك إلى آخر لحظة، لم يشأ الابتعاد عن الجبهة، وقال إن وجوده هناك يعتبر بمثابة منارة للجنود، لكنّ الطائرات كانت تجوب السماء فوق الفولفشانزي، وأنّ البقاء في ذلك المكان سيكون

t.me/qurssan

جنوناً. سيسافر هتلر في غضون أيّام إلى برلين مع كتّابه وطبّاخيه وبعض معاونيه، وسيرحل الباقون شيئاً فشيئاً، لكن ينبغي تفجير الملاجئ الحصينة والثكنة.

- بماذا تنصحني إذاً؟ بأن أطلب من هتلر ما إذا كان ثمّة مكان شاغر في سيارته؟

- كُفّي من فضلك يا روزا. لعلّك ما زلت لم تدركي أنّها الهزيمة؟

حلّت النهاية. إن شئتُ أن أحصي كلّ من فقدتهم، فقد فقدت أباً وأمّاً وأخاً وزوجاً وماريا وإلفريد والأستاذ وورتمان أيضاً. لم يبقَ أحد سالماً سواي، لكن هذه هي بداية النهاية.

- سيسافر هتلر يوم 20 مع قيادة الجيش الألماني العليا. لكن على المدنيين العاملين بمقرّ القيادة أن يهتمّوا بالجوانب اللوجستية قبل أن يغادروا: أوراق الهوية، العدّة العسكرية... سيركبون القطار بعد أيّام. ستذهبين معهم.

- وكيف سيستقبلونني بينهم؟

- سأجد طريقة لإخفائك.

- من قال لك إنّني أقبل أن أتخفّى؟ ماذا سيصنعون بي إن هم عثروا عليّ؟

- هذا هو الحلّ الوحيد. سيشرع الناس في المغادرة حين سيدركون أنّ هذا الخيار هو الوحيد الذي أمامهم. بإمكانك أن تغادري الآن، عبر القطار.

- لن أركب القطار. إلى أين تريد أن تبعث بي؟

- قلت لك إلى برلين.

t.me/qurssan

- وكيف سأثقُ بك؟ ولماذا سأهرب من مصيري بينما بقية الذائقات سيبقين هنا؟ لمجرّد أنني عاشرتك؟

- لأنّك أنت.

- ليس من العدل.

- لا شيء عادل في الحياة. ولكن هذا على الأقل ليس من مسؤوليتي.

لا شيء عادل، بما في ذلك الحبّ. أشخاص أحبّوا هتلر، وبلا تحفُّظ، أمّ أو أخت أو جيلي أو إيفا براون. كان يقول لها: «أنت يا إيفا من علّمتني كيف أقبّل...».

تنهّدتُ تنهيدة قصيرة. اقترب منّي زيغلر، ولمسَ يدي، فسحبتها بعنف.

- وحماي وحماتي؟

- لا أستطيع إخفاء جميع الناس، تعقّلي قليلاً.

- لن أغادر من دونهما.

- كفاك عناداً. اسمعي كلامي.

- سمعت كلامك مرّة، وكانت النهاية سيّئة.

- إنّما أقصد مساعدتك.

- لم أعد أطيق الاكتفاء بالبقاء يا ألبرت. أريد أن أعيش، عاجلاً أو آجلاً.

- اذهبي إذاً.

التقطتُ نَفَساً عميقاً، وقلت:

- ستغادر أنت أيضاً؟

- نعم.

هناك من ينتظره في بافاريا، أمّا أنا فلا ينتظرني أحد في برلين.

t.me/qurssan

سأكون وحيدة بلا سرير وسط القنابل. عدم جدوى هذه الحياة كانت تمزّقني: لماذا كلّ هذا العناء للحفاظ عليها؟ كما لو أنّه واجب، ولكن من ذا الذي ما زلت أدين له بواجب؟

كان غريغور سيعترض عليّ قائلاً باتّزانه المعهود: **إنّها غريزة بيولوجية، لا أحد يفلت منها. لا تظنّي نفسك مختلفة عن بقيّة البشر.**

كنت أجهل ما إذا كان باقي البشر يفضّلون حياة بئيسة على الموت، ما إذا كانوا يفضّلون العيش في الحرمان والوحدة عوض أن يغرقوا في بحيرة موي وقد شُدّت أحجار ثقيلة إلى أعناقهم. ما إذا كانوا يعتبرون الحرب غريزة طبيعية. البشر كائنات معتوهة: لا ينبغي تغليب الغرائز.

لم يسألني جوزيف وهيرتا عن الشخص القادر على إركابي خلسة قطاراً نازياً. لعلّهم يعرفونه منذ مدّة طويلة. وددت لو أنّهما يمنعاني من السفر: **ابقي هنا. لقد حلّت ساعة التكفير عن ذنوبك.** بالعكس، داعبت هيرتا خدّي وقالت:

- انتبهي لنفسك يا ابنتي.

- اعتنيا أنتما أيضاً بنفسيكما!

سأقنع زيغلر. سيجدُ وسيلة لكي يخفيهما هما أيضاً.

أجابت هيرتا:

- إنّني طاعنة في السنّ.

قلت وأنا أفكّر في فرانز:

- إن لم ترافقاني، سأبقى أنا كذلك، لن أترككما لوحدكما.

لمّا كنت أستيقظ مرعوبة بعد الاختطاف، أمسك بيديه، فيهدّئ

t.me/qurssan

دفئهما من روحي. أصعد إلى سريره، وألتصق بظهره. «كلا لن أترككما لوحدكما». كان منزل هيرتا وجوزيف دافئاً مثل أخي.

قال جوزيف بنبرة جازمة لم أسمعها منه قطّ:

- سترحلين في أقرب وقت. من واجبك أن تنقذي نفسك.

كانت نبرته كنبرة ابنه.

قالت هيرتا:

- سيكون غريغور بحاجة إليك لمّا يعود.

فقلت بصوت جادّ:

- لن يعود.

تشنّج وجه هيرتا، تراجعت وتركت نفسها تسقط على أحد الكراسي، بينما شدّ جوزيف فكّيه وخرج إلى الباحة الموجودة خلف البيت، غير عابئ بالبرد.

لم أجرِ خلفه، ولم أنهض من مكاني لأساعد هيرتا: شعرت بأن افترق بعضنا عن بعض، وأنّ كلاً منّا غارق في وحدته، كلّ على طريقته.

لكنّه حين عاود الظهور عند عتبة الباب، عبّرت عن اعتذاري. أمّا هيرتا، فلم ترفع عينيها.

كرّرت مرّة أخرى:

- اعذراني. مضت سنة وأنا أعيش معكما. ما عاد لي من أهل سواكما، لذلك أنا خائفة من فقدكما. من دونكما، أشعرُ بالخوف.

رمى جوزيف قطعة حطب في المدفأة، وجلسَ هو أيضاً.

كنّا لا نزال معاً، نحن الثلاثة، تدفئ النار وجوهنا كدأبنا حين كنّا نحلم بعودة غريغور ونحن نعدُّ لحفلة أعياد الميلاد.

t.me/qurssan

- ستأتيان لزيارتنا، أنت وغريغور. عديني بذلك.

لم يكن بوسعي إلا أن أومئ برأسي موافقة.

قفز زارت عليّ وقد قوّس ظهره ومدّد قوائمه، ثمّ وهو متكوّم على ركبتي، انخرط في حصّة طويلة من الخرخرة كما لو أنّه يودّعني.

بعد ثلاثة أيّام، لم تأتِ الحافلة. رحل هتلر، وزميلاتي لا علم لهنّ بأنّه لن يعود أبداً. لم أودّع ليني ولا الأخريات. لم أكن قادرة على ذلك. كنت قليلاً ما أخرج خلال الأسبوع الأخير من إقامتي بغروس–بارتش بذريعة البرد.

وذات ليلة أيقظني صوت أظافر على الزجاج. أشعلتُ مصباح الزيت، وتوجّهت إلى النافذة. كان زيغلر واقفاً هناك بالقُرب منها. وبفعل الضوء بدا وجهي في مربّع الزجاج منعكساً على وجهه. لبست معطفي على عجل، وخرجت. أخبرني بساعة ومكان لقائي بشخص يدعى الدكتور شوايغوفر: فهو يعرف جميع التفاصيل، وهو رجل ثقة. تأكّد من أنّني فهمت الأمر جيّداً قبل أن يتمنّى لي ليلة سعيدة وهو يهزّ كتفيه كما كان يفعل في السابق، ويختفي.

وقلت:

- إلى الغد إذاً في محطة القطار.

هزّ رأسه دون أن ينبس.

بعد ظهر اليوم الموالي، ضمّتني هيرتا بين ذراعيها بقوّة وهي واقفة عند عتبة الباب بينما اقترب جوزيف بخجل، ووضع يديه على كتفينا، وطوّقنا معاً بذراعيه. ثمّ افترقنا، وظلّ حماي وحماتي

t.me/qurssan

يتابعاني ببصريهما وأنا أبتعد إلى أن اختفيت عند منعطف غروس-بارتش لآخر مرّة.

كنّا في نهاية نوفمبر وكنت ذاهبة إلى برلين على متن قطار غوبلز. لم يكن غوبلز هناك، وألبرت زيغلر لن يركب.

t.me/qurssan

42

كنت أتصوّر قطار غوبلز مثل قطار أميركا، أو بالأحرى قطار براندنبورغ الذي حدّثني عنه كرومل. أتُراه سيسافر هو أيضاً؟ أسألتقيه على الرصيف؟ كلا، لا بدَّ أن يكون سافر مع الفوهرر: من سيحضّر له حساء السميد غيره؟ فالفوهرر يعاني من المعدة، والسفر يوتّره، لا سيّما في هذه الأثناء التي يخسر فيها الحرب، لكنّ السميد علاج خارق، سترى، فكرومل موجود هنا لكي يعتني بك.

ذهبتُ إلى لقاء الدكتور شوايغوفر في الموعد بمقهى مغمور في غروس-بارتش على الساعة السادسة مساء تماماً، حسبما أرشدني زيغلر. كانت القاعة خالية، وصاحب المقهى يمسح بإحدى يديه حبّات السكّر المتناثرة على المنضدة لكي تَسقط في اليد الأخرى. ولم يأتني بشاي إلّا بعد أن فرغ. لكنّني لم أذقه. كان زيغلر قد أخبرني أنّ الطبيب ذو شنب شبيه بشنب هتلر، وبهذه العلامة سأعرفه. قال لي يوماً ونحن في المخزن إنّ كثيراً من الناس نصحوا الفوهرر بحلاقة ذلك الشنب، لكنّه كان يعترض بأنّ ذلك سيكشف ضخامة أنفه. على أنّ أنف شوايغوفر دقيق وشنبه فاتح اللون، يميل إلى الصفرة، ربّما بسبب النيكوتين. حين دخل، جالَ ببصره على الموائد الفارغة، فرآني. اقترب منّي، وناداني باسمي، فنطقت باسمه، ومددت له يدي فصافحها على عجل، وقال: هيّا بنا.

t.me/qurssan

خلال الرحلة بالسيارة، شرح لي أنّ حارس المدخل شخص ثقة: سيتركني أدخل إلى محطّة الفولفشانزي من دون تفقّد أوراقي.

- بعد أن تدخلي، اتبعيني ولا تنظري حولك. سيري بخطى واثقة، ولكن دون أن تُظهري التوتّر.

- وإذا ألقوا علينا القبض؟

- لقد حلّ الليل والرؤية ليست واضحة. بقليل من الحظ لن يلاحظونا. وفي حال ما وقع العكس، سأدّعي أنّك إحدى ممرّضاتي.

هذا هو السبب الذي جعل ألبرت لا يرافقني بنفسه. كنت قد أوّلت غيابه بأنّه دليل آخر على دناءته: رغم السُّلطة التي تخوّلها له وظيفته، فهو خائف من مرافقة عشيقته لتركب قطار غوبلز، كما أنّه غير قادر على إرسالها مع العاملين الدائمين في الفولفشانزي. ومن خلال الحديث مع الطبيب، فهمت أنّ زيغلر عهد بي إليه لأنّ لديه خطّة: سأتظاهر بأنّني من فريقه الطبّي. وهي خطّة ذات حظوظ كبيرة للنجاح.

ألقى الحارس علينا نظرة خاطفة دون أن يبرح كشكه، وألفيت نفسي بين رجال يذهبون ويجيئون، يشحنون صناديق خشبيّة من مختلف الأحجام في عربات القطار، بينما يراقبهم رجال الشرطة العسكرية والجنود وهم يصرخون بالأوامر، ويتفقّدون السلع. كان القطار متوقّفاً على الرصيف ورأسه موجّه في الاتجاه المعاكس لمقرّ القيادة العامّة. وكانت الصلبان المعقوفة على الجنبات بهرجة سخيفة، مثلما هي دائماً مخلّفات الخاسرين. وتهيّأ لي كما لو أنّه يضرب الأرض بقوائمه: لم يكن غوبلز هناك، والقطار لم يعد يستجيب له. لم يعد يستجيب إلا لغريزة البقاء.

t.me/qurssan

كان شوايغوفر يشقّ طريقه بخطى واثقة دون أن يتأكّد من أنّني أتبعه.

سألته:

- إلى أين نذهب الآن؟

- ألديك على الأقل غطاء في هذه الحقيبة؟

لم أحمل في حقيبتي سوى ثلاثة قمصان أو أربعة -قلت في نفسي: سأعود بعد بضعة أشهر لأحمل ما بقي من متاع، وأقنع حماي وحماتي بالرحيل معي إلى برلين- وغطاء نصحني به ألبرت، وبضع سندويتشات حضّرتها لي هيرتا لأنّ السفر سيدوم ساعات طوالاً.

- نعم، لديّ غطاء. اسمع، أريد أن أعرف ما إذا كنت أستطيع ان أزعم بأنّني ممرّضتك مع أنّني لا أملك أوراقاً. ماذا أفعل إن هم سألوني عنها؟

لم يجب. كان يحثّ الخطى، وكنت أجهد نفسي لألحق به.

- إلى أين نذهب يا دكتور؟ لقد تجاوزنا عربات المسافرين.

- تجاوزنا عربات المدنيّين.

لم أفهم قصده إلا لمّا أدخلني إلى عربة سلع في آخر القطار، بعيداً عن الحشد المتزاحم على الرصيف. دفعني من ظهري براحتيه لكي أدخل، وتسلّق العربة بدوره دون أن يأبه بذهولي. نقل بعض الصناديق، وهيّأ لي ركناً خلف كومة من الصناديق، وأومأ لي بأن أختبئ هناك.

- ستحميك هذه الصناديق من البرد.

- ما معنى هذا؟

يا له من كرم! ساعات وأيّام من السفر في عربة سلع، محبوسة

t.me/qurssan

في الظلام ومعرّضة للموت برداً. وشعرت بنفسي بأنّني لا أزال مجرّد بيدق في يد زيغلر.

- لا أستطيع البقاء هنا، يا دكتور.

- كما يحلو لكِ. لقد قمت بواجبي. اتّفقت مع الملازم على أن أضعك في مكان آمن، وهذا كلّ ما بمستطاعي فعله من أجلك. أنا آسف إن كنت لم أتمكّن من تسجيلك على لائحة المدنيين لأنّ العربات ممتلئة عن آخرها، والناس سيسافرون واقفين أو جالسين على الأرض. لا نستطيع حمل كلّ سكان القرية.

قفزَ إلى الرصيف، ونفض سرواله بيديه، ومدّهما لي لكي يساعدني على النزول، لكنّ صوت رجل لفت انتباهه.

قال لي:

- اختبئي بسرعة. ثمّ توجّه إلى الرجل الذي نادى عليه.

- مساء الخير سيّدي الضابط. تأكّدت من أن أجهزتي الثمينة في أمان، وأنّ لا شيء منها تكسّر.

- وكيف تأكّدت، لا بدَّ أن الصناديق محكمة الإغلاق.

كان الصوت يتّضح أكثر فأكثر.

- صحيح، هذا ما وجدت. لقد كانت فكرتي سخيفة حقّاً، لكنّني لم أستطع منع نفسي من تفقّدها مع ذلك. فمعرفة أنّها في مأمن هنا، طمأنني. واغتصبَ ضحكة.

ردّ الضابط بضحكة خاطفة، وبينما كان يقترب، بقيت مختبئة خلف الصناديق. ماذا سيفعل بي إن اكتشف أمري؟ مهما يقع، لم يعد لي شيء أخسره. لولا إلحاح زيغلر ما كنت فكرت في الرحيل. ورغم أنّني كنت قد تعبت من محاولات الهرب، ما زالت الشرطة العسكرية ترهبني كما كان الأمر في أوّل يوم.

t.me/qurssan

لمّا قفز الضابط إلى داخل العربة، اهتزّت أرضيّتها من تحتي، وسمعت الصناديق تردّ صدى ضرباته، فانقطعت أنفاسي.

- لقد قمنا بعملنا على أحسن وجه. شكوكك ليست في محلّها يا دكتور.

- لا تسئ فهمي. ما قمت بهذا إلا احتياطاً. . .

- لا عليك، الأطبّاء أناس غريبو الأطوار. هذا أمر معروف.

ضحك ثمّ أضاف:

- اذهب لكي ترتاح الآن. فالسفر سيكون طويلاً. سننطلق بعد بضع ساعات.

اهتزّت الأرضية من جديد، ودوّى وقع جزمة الضابط على الرصيف. كنت واضعة رأسي بين ركبتي اللتين طوقتهما بذراعَيّ.

ثمّ سُمع صوت معدني عالٍ تعتّمت بعده العربة، ووجدت نفسي في ظلام دامس. قمت بقفزة واحدة، ورحت أبحث عن المخرج، شقّ ينفذ منه قليل من النور. كنت أتحرّك على نحو مرتبك، حريصة على ألا أثير ضجّة، كما لو أنّني في كابوس، وتعثّرت قدمي فسقطت.

كان بإمكاني أن أنهض وأروح أبحث عن الباب غير عابئة باصطدام قدمي بالصناديق، وأضرب بقوّة بقبضتي على جنبات العربة، وأصرخ إلى أن يسمعوني، ويفتحوا لي، وليفعلوا بي ما شاؤوا حينئذ، لأنّ الموت لم يعد يخيفني. مضت شهور وأنا أتوق إلى الموت. لكنّني بقيت هناك مستلقية على الأرضية. أهو الخوف شلّني، أم هي فقط غريزة البقاء. لم يسبق لي أن ضجرت من الحياة هكذا.

وضعت يدي على بطني، فانبعث فيه الدفء، وكان هذا كافياً، مرّة أخرى، لكي أحجم وأستسلم.

t.me/qurssan

43

أيقظتني جلبة مفاجئة. كان أحدهم يفتح باب عربة السلع، فزحفت على أربع نحو مخبئي خلف الصناديق، وثنيت ركبتيّ بحيث التصقتا بصدري. نفذَ ضوء خافت، وإذا بأُناس، لم أستطع تقدير عددهم، شرعوا يصعدون إلى العربة الواحد تلو الآخر وهم يشكرون أولئك الذين رافقوهم. جلسوا بين الصناديق وهم يتهامسون بكلام لم أفهمه. تساءلت عمّا إذا كانوا قد لاحظوا وجودي، ولكي أتشجّع، شددت على مقبض حقيبتي. وما إن سُمع صرير إغلاق الباب حتّى لاذَ الجميع بالصمت. تساءلتُ عن الساعة في تلك الأثناء، وعن موعد انطلاق القطار. شعرتُ بالجوع وأنا خائرة القوى، غير قادرة على فتح عيني. كنت قد فقدت الإحساس بالزمان والمكان وأنا غارقة في الظلمة، يلسع البرد أسفل رقبتي وكليتَيّ، ومثانتي على وشك أن تنفجر. سمعتُ الآخرين يتهامسون دون أن أراهم. كنت بين اليقظة والنوم، في شبه غيبوبة، في عزلة صقيعية. لم يكن شعوراً بالوحدة، بل كنت أحسّ كما لو أنّ لا أحد وُجد على هذه البسيطة، بما في ذلك أنا نفسي.

أرسلتُ مثانتي، وبُلت في سروالي. أشعرني تدفّق السائل الدافئ بشيء من المواساة. سال البول ربّما على الأرضية إلى أن بلغ

t.me/qurssan

أقدام الركّاب الآخرين. كلا، ستعترض الصناديق طريقه. لا شكّ أنّ الرائحة ستصل إلى رفاقي في الرحلة، فيتساءلون، لا محالة، عن محتوى الصناديق، وسيقولون في أنفسهم لعلّها رائحة مادّة منظّفة.

وعُدت إلى النوم رغم بلل فخذَيّ.

تعالى بُكاء يائس. فتحت عينيّ في الظلام. بكاء طفل امتزج باهتزاز القطار المتأهّب للانطلاق. نحيب مخنوق في حضن أمّ تضمّه إليها على الأرجح بينما يهمس الأب سائلاً عن السبب، آمراً بالتوقُّف حالاً عن البكاء. أأنت جائع؟ يبدو أنّ الأمّ حاولت أن ترضعه، فلم تفلح. وفي خضمّ الضوضاء الناجم عن تمايل القطار، أخرجتُ غطائي، ووضعته على كتفي. أين بلغنا؟ كم ساعة نمت؟ رغم شعوري بالجوع، لم تكن لدي شهية للطعام: لكي يحتمي جسدي، عمدَ إلى النوم. كنت عالقة في سُبات لم ينجح بكاء الصبي في إخراجي منه. مجرّد صدى مبهم، هلوسة. وحين شرعت أغنّي، لم أتعرّف صوتي. كان كالغفوة أو البول في الملابس أو الشعور بالجوع من دون رغبة في الأكل، حالة سابقة عن الحياة، ليس لها بداية ولا نهاية.

كانت الأغنية نفسها التي غنّيتها لأورسولا في بيت هايكي، ثمّ لألبرت في المخزن، والتي حفظتها عن أبي. هكذا، خاطبت، بين نحيب الطفل وصرير العربات، في الظلام الدامس، الثعلبَ الذي سرق الإوزّة وذكّرها بأنّ الصيّاد سيجعله يدفع الثمن. لم أفكّر في أوجُه الركّاب الآخرين المذهولة. لا بدَّ أنّ الأب قال: تبّاً! من هنا؟ لكنّني لم أسمعه. ضغطت الأمّ وجه صغيرها على ثديها، ومسحت على رأسه، بينما مضيت أغنّي: ثعلبي الصغير الغالي، لست بحاجة

t.me/qurssan

إلى إوزّة مشويّة، حسبك فأراً، فكفّ الصبي عن البكاء. أعدت الأغنية من البداية. غنّ معي يا أورسولا، لقد حفظتِها الآن. كرّرتُها من تحت غطائي فنامَ الصبي أو لعلّه بقي مستيقظاً من دون بكاء. كان بكاؤه دليلاً على أنّه حيّ. لكنّه هو أيضاً أحجم واستسلم.

لذت بالصمت، ومضيت أفتّش في حقيبتي بحثاً عن ساندويتش. سألَت المرأة:

- من هناك؟

رسم شعاع ضوء خافت ظِلاً على الأرضية، فتبعته وأنا أزحف ببطء خارج مخبئي، وظهرت من خلف متراس الصناديق المحيطة بي.

كان الطفل مغلّفاً بالأغطية. قدح الأب عود ثقاب، وفي ضوء شعلته المتراقصة، بدا وجه الأم مرتجفاً.

شكرتني كريستا ورودولف على الأغنية التي هدّأت من روع طفلهما. كيف فعلت هذا؟ كان اسمه توماس. لم يجاوز شهره السادس، من شدّة اضطرابه رفض أن يرضع.

كان أوّل سؤال تبادر إلى ذهني هو:

- هل ينتظركما أحد في برلين؟

قال رودولف:

- كلا، لم نزر برلين قطّ، لكن هذا هو سبيلنا الوحيد للمغادرة. سنعثر على حلّ هناك.

أنا أيضاً لا أحد ينتظرني في برلين. يمكن أن أفوّض له أمري، قد يعثر لي على حلّ أنا أيضاً. سألت رفيقَيّ إن كانا يرغبان في الطعام. وضعت كريستا الطفل على أغطية مثنية بعضها فوق بعض.

t.me/qurssan

لقد نام أخيراً. أشعلَ رودولف عود ثقاب آخر بعد أن انطفأ الأوّل، وأخرجا ما جلبا معهما من طعام، ونشرنا كلّ ذلك على قطعتَي قماش وأكلنا معاً، كما لو أنّ البشر يمكن أن يقتسموا وجبة، بما في ذلك البشر المكدّسون في مكان مخصّص للبضائع، المحرومون من عربات المسافرين. بهذا النحو تنشأ الصداقة من الإقصاء.

لم أحفظ ذكريات كثيرة عن هذه الرحلة. رغم توقّفات القطار المتكرّرة، لم تكن ثمّة ثقوب نستطيع أن نرى منها المدن والغابات والأرياف، ولم نكن نعرف أين بلغنا، ولا ما إذا كان الوقت ليلاً أم نهاراً. خيّم صمت صقيعي، ولربّما كان الثلج قد سقطَ فعلاً، لكن لم يكن بوسعنا أن نراه. التصقنا بعضنا ببعض لكي نستدفئ، وكنّا نتنهّد من الملل والهواجس. كنت أسمع تنفّس الصبي النائم وتذكّرت بولين، الله وحده يعلم أين هي، وما إذا كانت كبرت، وهل سيُكتب لي أن أراها في برلين. كنّا نرتعد تحت الأغطية، ونشعر بالعطش، إذ كان الماء الذي معنا يتناقص أكثر فأكثر. كنّا نكتفي بتبليل شفاهنا، ونحصي كم بقي من أعواد الثقاب. لم يكن رودولف يشعلها إلا حين تهمّ كريستا بتغيير حفّاظات الصبي القطنية المليئة بالغائط، لتكوّمها في أحد الأركان وهي تفوح برائحة اعتادتها أنوفنا. كنّا نتحدّث همساً تحت جناح الظلام، بل وجدنا الوقت لكي نلاعب توماس ونسمع ضحكاته بينما تدغدغه كريستا، ولكي أهدهده ورأسه موضوع على عنقي أو أدعك بطنه. ما علق بذاكرتي من هذه الرحلة هي الساندويتشات التي كنّا نمضغها في الظلمة، نقضم منها لُقماً صغيرة، وسطل كريستا المعدني حيث يسمع شخيخ البول كأحجار طوق تتحرّك بين الأصابع، والرائحة اللاذعة التي تذكّرني بملجأ

t.me/qurssan

بودينغاس، والكبرياء الذي كبحنا به كلّ الحاجات الجسدية الأخرى إلى أن نقضيها في مكانها. تذكّرت التعاطُف الذي تثيره أجساد رفقائي، سفالتهم العضوية التي لا يد لهم فيها، وبدت لي هذه السفالة في تلك الأثناء السبب الوحيد المقبول لكي أحبّهم.

لمّا توقّف القطار من جديد، كنّا نجهل أنّنا بلغنا برلين أخيراً.

t.me/qurssan

القسم الثالث

t.me/qurssan

t.me/qurssan

44

كانت المحطّة ضاجّة ومزدحمة. يسير الناس بسرعة حتّى أنّني خشيت من أن أصطدم بهم فأسقط. الذين يأتون من خلفي يتجاوزونني، ومن يأتون من الاتجاه المُعاكِس لا ينحرفون عنّي إلا في آخر لحظة، وحين يتجنّبونني تحتكُّ بي أردافهم وأنا متسمّرة في مكاني كقطّة بهرتها أضواء سيارة في وسط الطريق. كنت أمشي مائلة إلى اليمين بفعل ثقل حقيبتي، لكنّ مقبضها في يدي كان يمنحني الثقة في نفسي. كنت كعادتي بحاجة إلى شيء أتشبّث به.

رحتُ أبحث عن المراحيض. فقد أبيْتُ أن أقضي حاجتي في القطار، عدا أنّني الآن لم أعد قادرة على إمساكها أكثر. وبما أنّ الطابور لم يكن طويلاً، قضيتها بسرعة ثمّ نظرت إلى نفسي في المرآة. كان بؤبؤا عينَيّ يطفوان داخل تجويفَي الهالتَين السوداوين. بدا وجهي كما لو أنّه تعرّض لانهيار فترنّحت عيناي طويلاً قبل أن تستقرّا هناك، في العمق. عدّلت المشبك على فودي، سوّيت شعري بأصابعي ووضعت الأحمر على شفتيّ حتّى أبعث في سحنتي الشاحبة شيئاً من الضوء. كانت هيرتا تقول لي: أنت دائماً مزهوّة بنفسك. لكن هذا اليوم يوم مهمّ، يستحقّ هذا العناء.

الضجّة تربكني. مضى وقت طويل لم أركب فيه القطار، لكنّني ركبته اليوم مضطرّة. لعلّها كانت فرصتي الأخيرة.

t.me/qurssan

شعرتُ بالعطش. وجدت طابوراً هناك أيضاً: انتظرت دوري. قالت امرأة: «تقدّمي يا سيّدتي من فضلك». لم تبلغ الثلاثين، بقع نمش تغطّي كلّ جسدها، منتشرة على الوجه والصدر والذراعَين. التفت من هم أمامها، وقال رجل: «نعم سيّدتي، مُرّي أمامي»، سألَت المرأة النمشاء بصوت عالٍ: «هل بإمكانك أن تترك هذه المرأة تمرّ؟»، تمسّكت بحقيبتي وقلت: «لا داعي لذلك». لكنّها دفعتني من الخلف ورافقتني. وجه متمسّخ وذراعان ذابلتان: هكذا بدوت لهم.

بعد أن شربت وشكرت، توجّهت إلى المخرج. كانت الشمس ساطعة، تسقط أشعتها على الواجهات الزجاجية وتنعكس قوية بحيث تمحو ملامح المدينة في محيط محطّة القطار. وضعتُ يدي على جبيني وأنا خارجة لأخفّف من الوهج، ورمشت مرّات عديدة قبل أن أتبيّن الميدان. ينبغي أن أعثر على سيارة أُجرة. عند زاوية الواجهة تشير الساعات إلى الواحدة وأربعين دقيقة.

جميلة محطة هانوفر.

سلّمت العنوان لسائق التاكسي، خفضت الزجاج، أسندت رقبتي على المقعد ورحت أنظر إلى المدينة وهي تمرُّ على الجانب بينما يذكّر صوت المذيع بأنّ معاهدة شنغن ستوقّع اليوم. المعاهدة التي تقضي بفتح الحدود بين ألمانيا الغربية وفرنسا وبلجيكا والأراضي المنخفضة.

- أين تقع شنغن؟

- في لوكسمبورغ فيما أظنّ.

أجاب السائق دون أن يضيف شيئاً. هو أيضاً لا يرغب في الحديث.

t.me/qurssan

نظرتُ إلى صورتي في مرآة السيارة. بدا لي خطّ أحمر الشفاه على شفتيّ غير مستوٍ بسبب القشور رغم أنّني حاولت أن أنزع ما برز منها بظفري: لا أريد أن أظهر في حال مهملة أمامه. يعلّق المذياع على كأس العالم في كرة القدم بإيطاليا دورة 1990. ستواجه ألمانيا الغربية عصر هذا اليوم كولومبيا. هذا موضوع مناسب للحديث. هو لا يحبّ كرة القدم، وأنا لا أعرف عنها شيئاً، لكنّ كأس العالم شيء مختلف. كلّ الناس يشاهدون مبارياتها. على كلّ حال، ينبغي الحديث في شيء ما.

توقّفت السيارة، نزلَ السائق، تناول حقيبتي ومدّها لي. وفي اللحظة التي هممت فيها بالدخول، أبصرت من جديد وجهي منعكساً على زجاج الباب. أحمر الشفاه يُظهرني أكثر شحوباً، ورسمه يطمس محيط شفتَيّ. أخرجت منديلاً من جيبي ومسحت إلى أن زال لونه تماماً.

حين انفتح بابَ المصعد، تعرّفت إلى هيئة أغنيس. كانت تنتظر أن يتدفّق سائل ساخن من الموزّع الآلي. هي تصغرني بعشر سنين، لكنّها تبدو أصغر من سنّها رغم امتلاء بطنها الذي شدّ قماش سروالها حتّى كاد ينفتق. بيد أنّها لا تزال تملك وجهاً ناعماً، وجهاً لم ينهدّ. تناولت الكأس وراحت تنفخ عليه وهي تدير العود البلاستيكي لتذيب السكّر، ثمّ لمحتني.

- وصلتِ يا روزا؟

تسمّرتُ في مكاني والحقيبة في يدي كقطّ فاجأته أنوار سيارة.

- مرحباً أغنيس.

- أنا مسرورة جدّاً بمجيئك. هل كان السفر طيّباً؟

t.me/qurssan

ضمّتني بين ذراعَيها محاذرة من أن تحرقني بالكأس الذي يتصاعد منه البخار.

- كم مرّ من الوقت على لقائنا؟

قلت وأنا أنفلت من بين ذراعيها:

- منذ وقت طويل جدّاً.

مدّت يدها الخالية وقالت:

- دعيني أحمل عنك...

- كلا، شكراً. سأحملها، ليست ثقيلة.

ظلّت أغنيس واقفة في مكانها، ولم تدلّني على الطريق.

سألتها:

- كيف حالك؟

- كحال كلّ من هو في وضعي.

خفضت بصرها قليلاً، وسألت:

- وأنت؟

كانت تحملُ الكأس في يدها دون أن تشرب منه.

ولمّا لاحظَتْ أنّني أراقبها، مدّته إليّ:

- هل ترغبين؟

لكنّها سرعان ما تداركت. استدارت ناحية الموزّع، وقالت:

- قصدت، هل تشربين شيئاً؟ لا بدّ أنّك جائعة وعطشى؟

هززتُ رأسي.

- لا داعي، شكراً. أين مارغو وفيبكي؟

- إحداهما ذهبت لإحضار الصغير من المدرسة، ستأتي لاحقاً، والثانية تشتغل. لن تستطيع القدوم هذا اليوم.

لم تشرب أغنيس، وأنا لم أكن جائعة ولا عطشى. وسألت بعد لحظة:

t.me/qurssan

- وهو، كيف حاله؟

هزّت كتفيها وابتسمت، وخفضت بصرها لتنظر إلى الكوب وهي تشرب. انتظرتُ في صمت إلى أن انتهت ورمت الكأس في القمامة. مسحت يديها في سروالها، وقالت:

- هيّا، تعالي!

فتبعتها.

كان مستلقياً وقد خرج أنبوبان من منخريه، حليق الرأس، أو لعلّه فقد شعره، مغمض العينين. كان ضوء يونيو المتسلّل من النافذة يطمس ملامحه، لكنّني تعرّفته.

دعتني أغنيس لوضع حقيبتي في ركن من أركان الغرفة ثمّ اقتربَتْ من السرير. أحنت عليه: كان الحزام يحزّ بطنها، لكنّها لا تزال تملك يدَين مخمليتَين. يدان راحتا تداعبان الغطاء.

- ألنت نائم يا حبيبي؟

نادته حبيبي بمحضري، وهي ليست المرّة الأولى. فقد حدث ذلك من قبل، لكنّ طول الأمد جعل اللفظة تبدو غريبة بالنسبة إليّ. نادته حبيبي، فاستيقظ. عيناه زرقاوان، نديّان، بالكاد بهت لونهما.

كان صوت أغنيس في منتهى اللُّطف حين قالت:

- هناك زوّار جاؤوا لعيادتك.

وتراجعت لتسمح له برؤيتي دون أن يضطرّ لتحريك جذعه.

شلّتني عيناه الزرقاوان، ولم أجد شيئاً أتمسّك به. ابتسم في وجهي، فابتلعت ريقي وقلت:

- مرحباً غريغور.

t.me/qurssan

45

أعلنت أغنيس أنّها ستستغلّ وجودي لكي تغادر لتناول فنجان قهوة. لم تكن تلك سوى ذريعة لتتركنا معاً. فقد شربت كأساً قبل لحظات. تساءلت عمّا إذا كانت فعلت ذلك من أجلي حتّى تخفّف من انزعاجي، أو لأنّها هي من شعرت بالضيق من حضورها في الغرفة نفسها مع زوجها وزوجته السابقة، وهو على فراش الموت.

قبل أن تخرج، قدّمت له الماء ليشرب. مرّرت يدها من تحت قفاه لكي ترفع رأسه، فوضعَ غريغور شفتَيه على طرف الكوب كصبيّ ما زال لم يتعلّم كيف يشرب. سالَ قليل من الماء، فبلّل منامته. مسحت عنقه بمنديل ورق نزعته من لفافة موضوعة على منضدة السرير، سحبت الغطاء وهمست في أذنه شيئاً لن أعرفه قطّ، قبّلته على جبينه، وسوّت الستارة لكي لا يؤذيه النور، ثمّ ودّعتنا وانسحبت.

كان غريباً أن أرى امرأة أخرى تعتني بغريغور، ليس لأنّ هذا الرجل كان زوجي، بل لأنّني غذّيت جسده وغسلته ودفّأته حين عاد بعد سنة على نهاية الحرب.

يوم ظَهَر غريغور من جديد، كانت البطاطس تغلي في مطبخ

t.me/qurssan

امي. كنّا نسكن ثلاثتنا، أنا وبولين وهي، وكان الوقت صيفاً مثل الآن. كانت بولين تلعبُ الغُمّيضة بين الحطام ببودينغاس بينما كنّا، أنا وآني، قد عدنا من توّنا من العمل، وصعدنا إلى المطبخ لنهيّئ الطعام. كانت شقّتي لا تزال غير صالحة للسكن، فاقترحت عليّ آني، وكانت من دون زوج أيضاً، أن أقيم معها. كنّا ننام ثلاثتنا في السرير نفسه.

غرستُ شوكة في حبّة بطاطس لأرى ما إذا كانت نضجت. وكنت أشعر بألم في قدمي كالعادة، إذ تستغرق المسافة بين البيت والعمل ساعة ونصف من المشي السريع. ومن حسن حظّي أنّني كنت سآخذ بعد العشاء حمّام أرجُل تحضّره لي آني كلّ مساء. نحشر أقدامنا المكسوّة بالبثور معاً في الحوض نفسه، ونتنفّس الصعداء. أمّا بولين فلم يكن ينال منها التعب رغم يوم كامل من الجري بين الأنقاض مع بقية الأطفال بينما نكون نحن نحمل الدلاء وندفع العربات، ونجمع الطوب مقابل سبعين بفنغ للساعة وبطاقة تموين خاصة.

لمّا نضجت البطاطس أطفأت النار. وفي الشارع كانت بولين تنادي:

- روزا!

أطللت من النافذة:

- ماذا هناك؟

رأيت رجلاً نحيلاً يستند عليها، بدا كما لو أنّه يعرج. لم أتعرّفه.

وبصوت لا يكاد يُسمع، قال:

t.me/qurssan

- هذا أنا.

فانفطرَ قلبي.

جلستُ قرب السرير وشبكت يديّ على بطني، ثمّ وضعتهما على ركبتيّ. سوّيت تنّورتي وشبكت يديّ من جديد: لم أكن في الواقع أعرف أين أضعهما.

- شكراً على مجيئك يا روزا.

صوته ضعيف واهن، كذاك الذي سمعته من نافذة آني ذات مساء قبل أربعين سنة. كانت بشرته مشدودة، فبدا أنفه أضخم، وعظام وجهه بارزة.

بحثتُ بإبهامي عن آثار أحمر الشفاه، لم أشأ أن يراني مُهملة المظهر. شيء سخيف، لكن الأمر هكذا. كنت أخشى أن يسأل أغنيس من تكون هذه المرأة الواقفة في غرفة المشفى، بعينيها الغائرتَين ووجهها المجعّد، لكنّه عرفني بمجرّد ما رآني، وابتسم لي.

قلت:

- حرصت على أن أراك.

- أنا أيضاً، لكنّني لم أكن أتوقّع أن تأتي.

- لماذا؟

لم يجب، فرحت أنظر إلى أظافري وأطراف أصابعي. لا أثر لأحمر الشفاه.

- ما الجديد في برلين؟

- كلّ شيء على ما يرام.

t.me/qurssan

رغم أنّني اجهدت ذهني، لم أجد ما أحكيه عن برلين وعن حياتي هناك. غريغور أيضاً لزمَ الصمت، ثمّ سأل:

- كيف حال فرانز؟

- هو منشغل في هذه الأثناء بحفيداته. أتى بهنّ والدهنّ لقضاء العطلة في ألمانيا. وهو يحرسهما في الصالون بينما يحلق لحى زبائنه أو رؤوسهم. وهم يسألون بدافع الأدب أكثر منه بدافع الاهتمام: ما اسمك؟ وكم عمرك؟ فتجيب الصغيرات بالإنجليزية، فلا يفهم الزبائن كلامهنّ، وهو أمر يسلّي فرانز كثيراً. هو فخور بكون حفيداته تتكلّمن لغة أخرى. منذ صار جدّاً أصابه الخرف.

- كلا، أخوك كان دائماً غريب الأطوار.

- صحيح؟

- لم يكاتبك لسنوات يا روزا!

- أنت تعلم أنّه كان يرغب في قطع صلاته بالألمان. صورتهم صارت سيّئة بعد سنة 1918. بل إن بعضهم حاولوا تغيير أسمائهم... ثمّ إنّه بعد انضمام الولايات المتّحدة إلى الحرب، عاشَ في رعب من أن يُعتقل.

- هذا صحيح. هذه أشياء أعرفها. ما اسم الطبق المشبوه؟ انتظري...

- الطبق المشبوه؟!

ثمّ أضفت وأنا أضحك:

- تذكّرت: زاوركرووت. أطلقوا عليه اسماً آخر: ليبيرتي كابادج. هذا ما حكاه فرانز.

وكرّر ضاحكاً هو أيضاً:

- بالضبط: زاوركرووت.

t.me/qurssan

سعلَ سُعالاً عميقاً أجبره على رفع رأسه. عليّ ربّما أن أسنده وأساعده. «ماذا ينبغي أن أفعل؟».

تنحنحَ وتابعَ الحديث كما لو أنّ شيئاً لم يقع:

- أما زلت تذكرين البرقية التي بعث؟

هو متعوّد على السُّعال. كلّ ما يريد هو أن يتحدّث.

قلت:

- كلّ ما كتب فيها هو: «أما زال أحدكما حيّاً؟» علاوة على رقم هاتفه وعنوانه.

- بالضبط. فاتّصلت أنتِ هاتفياً لكي تتأكّدي من أنّ الأمر ليس مزحة.

- صحيح! صُعق فرانز حين سمع صوتي.

ضحك غريغور من جديد. لم أعتقد يوماً أن لقاءنا سيكون بهذه البساطة.

- سترين كيف سيتنكّد حين يعود الصغار إلى بيتسبورغ في نهاية الشهر. ثمّ إنّه هو من قرّر العودة إلى برلين. هناك أناس يحتاجون، في لحظة من اللّحظات، إلى أن يعودوا لأسباب لا يعلمها أحد.

- أنت أيضاً عدت إلى برلين.

- أنا تركت غروس-بارتش مضطرّاً. حالتي مختلفة.

صمت غريغور والتفتَ إلى النافذة. لعلّه يفكّر في والديه اللذين ماتا قبل أن يتمكّن من لقائهما. أنا أيضاً لم يُكتب لي أن أراهما.

قلت:

- أنا أيضاً افتقدتهما.

لكن غريغور لم يردّ.

t.me/qurssan

كان يرتدي منامة بأكمام طويلة، والغطاء مسحوب إلى نصف جذعه.

- تشعر بالحرّ؟

لم يجب، فبقيتُ جالسة على المقعد، شابكة يدَيّ. لقد أخطأت: ليس اللقاء سهلاً.

وبعد لحظة، قال:

- بما أنّك جئت حتّى هنا، فأنا ميّت لا محالة.

لم أجب بدوري.

وهبَّ غريغور لنجدتي:

- هراء! لن أموت الآن وقد عدت.

ابتسمتُ، واغرورقت عيناي.

هذا ما كنت أقول له كلّما دبّ اليأس إليه: هراء! لن تموت الآن وقد عدت... لن أسمح بذلك.

فقد خمسة عشر كيلوغراماً من وزنه عمّا كان عليه قبل أن يرحل إلى الجبهة. عانى هناك من الجوع، وأصابه التهاب رئوي أورثه ضعفاً مزمناً في التنفّس. ورثَ أيضاً العرج، ذلك أنّ ساقه لم تعالج كما ينبغي لأنّه فرّ من المشفى خلال نوبة هذيان: لم يكن يرى سوى الأطراف المبتورة على الأسرّة، خُيّل له أنّهم سيبترون ساقه هو أيضاً. أضعفه الألم، وحوّله إلى فريسة سائغة. وبدا لي من المستحيل أن يكون ارتكب تلك الحماقة، لأنّها ليست من شيمه.

قال لي يوماً:

- ماذا لو عدت معطوباً؟

- يكفيني أن تعود.

t.me/qurssan

- كنّا سنقضي أعياد الميلاد معاً يا روزا، لكنّني لم أفِ بوعدي.

- اسكت، يلزم أن تنام الآن. نمْ، ينبغي أن تتعافى غداً.

لم يكن يستطيع أن يأكل شيئاً بسبب تعفّن معوي ناتج ربّما عن الأضرار التي لحقت جهازه الهضمي بعد كلّ تلك الأشهر من الحرمان. كنت أحضّر له حساء باللّحم، حين أنجح في الحصول عليه، لكنّه كان لا يكاد يتناول ثلاث ملاعق، حتّى يقيئها. وكان غائطه سائلاً، أخضر اللون، تنبعث منه رائحة لم أكن أتصوّر أنّها يمكن أن تصدر من جسد كائن بشري.

وضعناه في غرفة بولين، وفي الليل، كنت أسهر جالسة على الكرسي بجوار سريره. وفي بعض الأحيان، كانت الصغيرة تستيقظ، وتلحق بي.

- أتنامين معي؟

- ينبغي أن أبقى مع غريغور يا عزيزتي، وإلا فإنّه سيموت. ما دمت بجانبه، أقسم لك لن يموت.

وفي بعض الصباحات، كان نور الشمس يوقظني، فأجدها متكوّمة فوقه. لم تكن بنتنا، ومع ذلك كنت أراقب تنفّسها وهي نائمة.

لا مجال للمقارنة بين جسد غريغور الواهن وزوجي. لم تعد رائحة بشرته كما كانت، لكن بولين لا تستطيع أن تدرك ذلك. كان مبرّر وجودي الوحيد هو أن أحافظ على هذا الرجل حيّاً. كنت أطعمه بالملعقة، وأغسل وجهه وذراعَيه وجذعه وساقيه وقدميه، بأن أغطّس قطعة قماش في مغسلة القدمين التي لم تعد آني تهيّئها إلا لنفسها في المساء، لأنّني توقّفت عن العمل حتّى لا أتركه بمفرده.

t.me/qurssan

، كنت أقلّم أظافره، وأحلق شعره، وأرافقه لقضاء حاجته، وأنظّفه إن
.هيّا أو سعل أو بصق على يدي. لم أكن أشعر بالتقزّز قطّ لأنّني كنت
احبّه. هذا كلّ ما في الأمر. صار غريغور ابني.

ما إن كان يستيقظ حتّى تستيقظ بولين أيضاً. وكانت تهمس لي لكي لا يسمعها: «ما دمنا بجانبه يا روزا، أقسم لك إنّه لن يموت».

لم يمت غريغور بل شُفيَ.

- حين أخبرتني أغنيس أنّكِ اتّصلتِ بها وأنّك آتية، تذكّرت حادثاً وقع أثناء الحرب. لعلّني حدّثتك عنه في إحدى الرسائل.

قلت بنبرة تشي بالعِتاب:

- لا أظنّ، يا غريغور. لم تكن تحكي لي شيئاً عن الحرب تقريباً.

لم يداخله شكّ، وراح يضحك:

- أما زلت تلومينني على ذلك، غير معقول!

واستحالت ضحكته سُعالاً، وتضاعفت التجاعيد على جبينه، ومضت البُقَع السوداء على وجهه ترتعد.

- هل أناولك ماء؟

كان يوجد على منضدة السرير كأس نصف مملوء.

- لم نكن نعرف ما يُسمح لنا بكتابته. كان من الخطير أن تبدو محبَطاً، وأنا كنت في منتهى الإحباط...

- أعرف ذلك، لا تقلق. كنت أمزح. ما الحادث الذي تذكّرت؟

- يتعلّق الأمر بامرأتين جاءتا تبحثان عن زوجيهما. لا أدري كم عدد الكيلومترات التي قطعتاها مشياً، مئات الكيلومترات في

t.me/qurssan

الثلج، وكانتا تنامان في البرد، لكي تعثرا عليهما. لكن عند وصولهما، اكتشفتا أنّ زوجيهما غير موجودَين. لا يمكن أن تتصوّري حالهما.

- وأين كانا؟

- لست أدري. ربّما في معسكر آخر، أو أعيدا إلى ألمانيا حيث لقيا حتفهما. من يعلم؟ لم يكونا بين من اعتقلناهم. وقد قطعت هاتان المرأتان الطريق نفسه في الاتجاه المعاكس في الثلج والبرد نفسيهما، دون أن تعرفا شيئاً عنهما. أفهمت؟

حين يتحدّث طويلاً، تتقطع أنفاسه. عليّ أن أدعوه ربّما إلى الكفّ عن الكلام، وأبقى معه في صمت ممسكة بيده. ليتني أستطيع أن ألمسه!

- ولماذا تذكّرت هذه الواقعة؟ فأنا لم آتِ مشياً في الثلج.

- صحيح؟

- ولم تعد زوجي.

يا لها من جُملة تعيسة تفوّهت بها! لم يكن قصدي أن أبدو قاسية.

قمت ورحت أذرع الغرفة. كانت ثمّة خزنة صغيرة لا بدَّ أن أغنيس تضع فيها الفوطات والمنامات، وكلّ ما تحتاج. لماذا تأخّرت؟

سأل غريغور:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- لن أذهب. أنا باقية هنا.

تعثّرت قدمي بشبشبه الموجود قرب السرير، فعدت إلى الجلوس.

t.me/qurssan

- رغم أنّكِ لم تمشي في الثلج، فقد تحمّلت ثلاث ساعات ونصف من السفر على الأقل لكي تزوريني.

- هذا صحيح.

- لماذا يحتاج الناس إلى هذا النوع من الزيارات في نظرك؟

- ماذا تقصد؟

- لم تأتي إلى هانوفر صدفة: لا بدَّ أنك فهمت قصدي.

- طيّب... لأنّهم بحاجة ربّما إلى ألّا يتركوا الأشياء معلّقة. هذا ما يبدو لي.

- أتيتِ إذاً لكي تغلقي الدائرة.

شوّش سؤاله ذهني.

- لقد قلت لك إنّني إنّما جئت لكي ألقاك.

- اسمعي يا روزا، منذ سنة 1940 ونحن نترك الأشياء معلّقة.

رغم أنّنا افترقنا على وفاق، كان فراقنا مؤلماً. عادة ما يقول الناس إنّهم قرّروا شيئاً بالتوافُق قاصدين أنّه لم تكن ثمّة معاناة، وحتّى إن وجدت فهي خفيفة، لكنّ ذلك غير صحيح. من المؤكّد أنّ المعاناة تكون أشدّ إن رفض أحد الطرفين التسليم بالأمر الواقع، وأصرّ على إيذاء الآخر عمداً. لكنّ الفراق تجربة مؤلمة حتماً. لا سيّما في الحالة التي يحظى فيها الطرفان بفرصة ثانية. بالنسبة إلينا، فرّقتنا الحرب، والتقينا بعدها.

عشنا معاً ثلاث سنوات، ثمّ افترقنا. لا أفهم الناس الذين يقولون: انتهى الأمر بيننا منذ زمن بعيد. لا نستطيع أن نحدّد بدقّة الوقت الذي تنتهي فيه علاقة زوجية، لأنّ الزواج ينتهي حين يقرّر الزوجان ذلك. الزواج نظام متذبذب ومتموّج، يمكن أن ينتهي ثمّ

t.me/qurssan

يبدأ من جديد. فهو لا يتبع مساراً خطّياً، ولا يخضع لمراحل منطقيّة. فالنقطة الأقرب إلى الحضيض في زواج ما لا تمثّل بالضرورة نهايته: قد تكونان بالأمس في الدرك الأسفل، وفي اليوم الموالي تعودان إلى القمّة دون أن تعرفا كيف تمّ ذلك، ولا تعودان تذكران ولو سبباً واحداً يستدعي فراقكما. لا تعود المسألة حتّى مسألة مع أو ضدّ، جمع أو طرح. كلّ الزيجات، في نهاية المطاف، منذورة لأن تنتهي، وكلّ زواج من حقّه، بل من واجبه، أن يبقى على قيد الحياة.

زواجنا نحن ظلّ حيّاً لفترة من الزمن يقتات على العِرفان بالجميل: لا يمكن أن ننكر أنّنا استفدنا من معجزة. كنّا من المصطفين والمحظوظين. لكن حتّى حماس المعجزات ينتهي إلى السقوط. كنّا قد انخرطنا في إعادة بناء زواجنا بكلّ ما أوتينا من قوّة وحماس، لأنّ شعار المرحلة آنذاك كان هو: إعادة البناء، التجاوز والنسيان. لكنّني لم أنسَ أبداً، والأمر نفسه بالنسبة إلى غريغور. كنت أقول في نفسي أحياناً: ليتنا تقاسمنا ذكرياتنا. لم نكن نستطيع فعل ذلك. كان سيتهيّأ لنا أنّنا نفسد المعجزة بينما كنّا نحاول حمايتها، حماية أحدنا للآخر. وفي بقية الأوقات، كنّا من شدّة استغراقنا في هذا المجهود الدفاعي نلفي نفسينا غير قادرين على فعل شيء سوى وضع الحواجز.

- مرحباً بابا.

دخلت امرأة شابة ذات شعر خشن يبدو مَفرَقُه في وسط رأسها، ترتدي فستان كتّان بحمالات، فاتح اللون، وتنتعل صندلاً.

قالت حين رأتني:

t.me/qurssan

- صباح الخير.

قمت من مكاني. قال غريغور:

- صباح الخير مارغو.

وبينما اقتربت منّي وهممت بأن أقدّم نفسي، دخلت أغنيس.

- وصلتِ يا عزيزتي؟ أين الصغير؟

- تركته عند حماتي.

كانت بنت غريغور تلهث والعرق يغطّي جبينها.

قالت أغنيس:

- هذه روزا.

مدّت لي مارغو يدها:

- تشرّفنا.

مددت يدي وصافحتها. عيناها تشبهان عينَي غريغور. وقلت وأنا أبتسم:

- شكراً، سعدت بمعرفتك. رأيتك في صورة وأنت لا تزالين رضيعة.

التفتت إلى أبيها، وقالت مازحة بينما همّت بتقبيله:

- نشرت صوري من دون إذني إذاً؟

بعث لي غريغور بصور ابنته دون أن يتنبّه إلى أنّ ذلك يمكن أن يؤذيني. لم يكن قصده سوى أن يشعرني بأنّني ما زلت موجودة في حياته. بادرةٌ صدرت عن عاطفة لا عن رغبة في الحماية. كان قد كفَّ عن حمايتي، ونسي كيف يمكن أن يفعل ذلك. تزوّج من أغنيس، وكنت قد حضرت عرسهما، وتمنّيت لهما بصدق كلّ

t.me/qurssan

السعادة. لا يهمّ أنّني عدت حزينة إلى برلين. كونه وجد شريكة لم يضاعف وحدتي.

لمّا توقّف القطار في فولفسبورغ، جفلتُ. أعلن مكبّر الصوت فولفسبورغ، محطة فولفسبورغ. كيف أنّني لم أنتبه إلى ذلك في رحلة الذهاب؟ لعلّي كنت نائمة. مررت عبر مدينة الذئب لكي أفترق نهائياً عن زوجي.

- أحضرت لك هديّة يا بابا.

أخرجت مارغو من حقيبتها ورقاً مطويّاً عليه مربعات، ومدّته لأبيها.

ثمّ قالت:

- انتظر سأفتحه.

صورة مرسومة بقلم باستيل: رجل أصلع في سرير تحت سماء مكسوّة بغيوم ورديّة. وبين أرجل السرير تنبت زهور ذات بتلات بلون قوس قزح.

قالت مارغو موضّحة:

- بعثها لك حفيدك.

كنت هناك في الجانب، ولم أستطع تجنُّب قراءة ما كتب الطفل: افتقدتك يا جدي، عجّل بالشفاء.

سألته مارغو:

- أأعجبتك؟

لم يجب غريغور.

- أيمكن تعليقها على الجدار، ماما؟ أيمكن تعليقها؟

- نعم... سنحتاج إلى دبوس وقطعة شريط لاصق.

t.me/qurssan

- أراك لا تقول شيئاً يا بابا؟

كان واضحاً أنّ التأثُّر منعه من الجواب. وفي تلك الأثناء، شعرتُ بأنّني لست في مكاني بين هذه الأُسرة التي ليست أُسرتي. ابتعدت، ووقفت عند النافذة أنظر إلى الساحة عبر فجوات الستارة. كان ثمّة مرضى في كراسي متحرّكة وممرّضات يدفعنها، وأُناس جالسون على المقاعد: من الصعب الجزم بأنّهم مرضى أو زوّار.

في المرّة الأولى التي حاول فيها غريغور الاقتراب مني من جديد، بعد كلّ تلك المدّة، جفلتُ. لم يكن رفضاً ولا تعلُّلاً. كلّ ما في الأمر هو أنّني تصلّبت. داعبني بلطف معتقداً أنّه الحياء: لم يلمس أحدنا الآخر منذ أمد بعيد. كانت ملامسة جسده عادة، وكنت ألمسه بنوع من الأُلفة. إلا أنّ الحرب أعادت لي جسد محارِب سابق، وكنت من الشباب والحيوية بحيث لم أعرف كيف أعتني به. لم نعد نتلامس باشتهاء. كانت الشهوة شعوراً نسيناه. وكان غريغور يرى أنّ علينا أن نتعلّم من جديد شيئاً فشيئاً، عبر تمارين متدرّجة. أمّا أنا فكنت أعتقد أنّ الرغبة هي التي تولّد الحميميّة، تولّدها دفعة واحدة تماماً مثلما يحدث التمزُّق، لكن العكس كان ربّما ممكناً أيضاً، الانطلاق من الحميمية وتملّكها شيئاً فشيئاً إلى أن تنشأ الرغبة، كما يحدث للنائم حين يحاول، بعد استيقاظه، أن يستعيد حُلماً خاطفاً رآه، لكنّه تبدّد: يتذكّر الأجواء، لكنّه لا يتذكّر أيّ صورة. كان هذا ممكناً على الأرجح، وقد استطاعت بعض الزوجات تحقيقه بكلّ تأكيد. لكنّني أجهل كيف فعلن. ربّما نتوفّق نحن في العثور على الطريقة الصحيحة.

t.me/qurssan

46

لم يكن الطبيب يرتدي نظارات. حين دخل، نظر إلى ساعته: كان النهار على وشك أن ينتهي. تبادلت أغنيس ومارغو معه أطراف الحديث. تحدّثوا عن كأس العالم لكرة القدم وعن الحفيد؛ ذلك أنّ الطبيب صادفه مرّة في هذه الغرفة. كان رجلاً بالغ اللُّطف، ذا لياقة بدنية، جهير الصوت. لم يقدّموني له، ولم يحفل بوجودي. طلب منّا إخلاء الغرفة لأنّه سيفحص غريغور.

سألتُ أغنيس ونحن في الرَّدهَة:

- ستبيتين معنا هذه الليلة، أليس كذلك؟

- ممتنّة، لقد حجزت غرفة.

- كيف فعلت ذلك يا روزا؟ البيت شاسع، ثمّ إنّني بحاجة إلى من يؤنسني.

أجل، يمكن أن يؤنس أحدنا الآخر، لكنّني متعوّدة على العيش بمفردي، ولست راغبة في أن أقيم مع أحد في بيته.

- فضّلت ألا أزعجك. ثمّ إنّني حجزت الآن، في فندق صغير غير بعيد.

- اعلمي أنّك تستطيعين أن تغيّري رأيك في أيّ لحظة: نادي عليّ وسآتي في إثرك.

t.me/qurssan

- إن كنت لا ترغبين في أن تبقي بمفردك، يا ماما، يمكن أن تنامي عندنا.

لماذا قالت مارغو هذا؟ لكي تشعرني بأنّني أخطأت؟

انتهى الطبيب من الفحص ولحقَ بنا. سألَت أغنيس عن أخبار غريغور بينما مضت مارغو تنصت باهتمام وتطرح بعض الأسئلة. شعرت بأنّني غريبة عن الأسرة، فدخلت إلى الغرفة.

كان كُمّ غريغور مشمّراً وذراعه الأيمن ما زال عارياً علِقَت به إبرة الحقن بينما كان ذراعه الآخر مغطّى بثوب المنامة القطني الأزرق الداكن. لعلّه لون أغنيس المفضّل. لا بدَّ أن غريغور رفع كُمّه لكي يحكّ: بشرته جافّة تعلوها ثُلوم بيضاء تركتها أظافره.

قلت له دون أن أجلس:

- لم نترك الأمور معلّقة بل مضينا قُدماً.

ظلَّ غريغور يثابر عبثاً من أجل أن يبسط كُمّه، لكنّني لم أساعده. لم أجرؤ على لمسه.

- رجعتَ، عالجتكَ إلى أن شفيت، وأعدنا فتح المكاتب مثلما أعدنا بناء الشقّة، وقطعنا شوطاً معاً.

ترك كمّ منامته وقال بصوت أجشّ خشن:

- أمِنْ أجل هذا أتيتِ؟ أهذا هو موضوع زيّارتكِ؟

- ألا توافقني الرأي؟

تنهّد وقال:

- لم نظلّ كما كنّا سابقاً.

- ومن ظلَّ كما كان سابقاً يا غريغور؟ من استطاع أن يظلّ؟

- بعضهم تمكّنوا.

t.me/qurssan

- تقصد أنّ أُناساً آخرين كانوا أحسن منّا، منّي؟ كنت أعرف هذا.

- لم أنظر إلى الأمر أبداً من باب الأحسن أو الأسوأ.

- وكنتَ مخطئاً.

- جئتِ لتقولي لي إنّني أخطأت.

- ما جئت لأقول لك شيئاً، يا غريغور!

- ولماذا جئتِ إذاً؟

- إن كنت لا ترغب في لقائي، كان عليك أن تخبرني بذلك! كان بإمكان زوجتك أن توحي لي بذلك في الهاتف.

لا ينبغي أن أستشيط غضباً.

ها هي زوجته تدخل مستعجلة وقد بدا على وجهها القلق. قالت:

- روزا.

كما لو أنّ اسمي يختزل كلّ التساؤلات.

دنت من غريغور، وأنزلت كُمّ منامته وسألته:

- أنت بخير؟

ثمّ التفتت إليّ:

- سمعتك تصرخين.

كنت الوحيدة من تستطيع أن تصرخ. أمّا غريغوز فلا يستطيع بسبب رئتيه. أنا من سمعتْ أغنيس.

قالت لزوجها:

- لا أريدك أن تتعب.

قلت:

- عفواً.

t.me/qurssan

وخرجتُ. مررتُ بجانب الطبيب ومارغو دون أن أودّعهما. عبرت الردهة، ومشيت على غير هُدَى. أصابتني أضواء النيون بالصداع. وتهيّأ لي وأنا أنزل الأدراج أنّني سأسقط، لكن عوض أن أتمسّك بالدرابزين، أمسكت بالسلسلة المتدلّية تحت طوق قميصي، أزحتها وشددت قبضتي عليها. كان معدنها صلباً وبارداً. ولم أفتح قبضتي إلا عند أسفل السلّم: كان الخاتم المعلّق في السلسلة قد حفر دائرة عميقة في راحتي.

لم أزر بيتها قطّ. ما كان عليّ إلا أن أدفع الباب لأدخل إلى حجرة معتّمة -ليس لها سوى نافذة واحدة ضيّقة- تؤثثها مائدة وأريكة. كانت الكراسي منقلبة وسط حُطام أواني الفخار والزجاج، وأدراج البوفيه مسحوبة من مكانها ومرميّة على الأرض. بدت الفتحات التي تدخل فيها كحُفرٍ في مقبرة تنتظر من يشغلها.

كان رجال الشرطة العسكرية قد قلبوا الغرفة عاليها سافلها. هكذا كان يجري الاستئصال. الآن بعد أن غابت إلفريد، بقيت لي أشياؤها، ما كانت تملكه.

التقطتُ نَفَساً عميقاً، وتقدّمت إلى أن بلغت الستارة. أزحتها بيد متردّدة وقد ملأني شعور من يرتكب محظوراً. كانت الملابس متناثرة على أرضية الغرفة، والأغطية المنزوعة من السرير تشكّلُ كومة من الخِرَق انتصبت فوقها وسادة مبقورة.

تصدّع العالم بعد اختفاء إلفريد. ومرّة أخرى بقيت في هذا العالم من دون حتّى أن أجد جسداً أبكيه.

جثوتُ على الملابس، ورحت أتحسّسها. لم ألمس أبداً وجهها الحجري، ووجنتيها، كما لم ألمس الكدمات التي تسببتُ لها فيها.

t.me/qurssan

أقسمت لها في مراحيض الثكنة أن أظلّ إلى جانبها. وفي تلك اللحظة تبدّدت بهجة بنات الثانويات التي كانت تغمرنا.

استلقيت وجمعت الملابس حولي، وضعتها تحت عنقي ووجهي مضغوط إلى الأرض. لم تكن تفوح منها أيّ رائحة، رائحتها، أم تراني نسيتها؟

حين تفقد شخصاً، تتألّم لأنّك لن تراه، ولن تسمع صوته، وتقول في نفسك إنّك لن تستطيع صبراً. فالألم أنانيّ: وهذا هو ما كان يغيظني.

لكن، بينما كنت راقدة على تلك الملابس، تبدّت لي المأساة بكامل حجمها. كان حدثاً من الجسامة والإيلام بحيث دوّخ الألم وسحقه، وتمدّد بحيث شغل كلّ سنتيمتر من الكون، وصار دليلاً قاطعاً على ما يستطيع الإنسان أن يفعله.

لقد نظرت إلى دم إلفريد الداكن لكي أتلافى رؤية دمي. سألتني: ودم الآخرين، أتتحمّلينه؟

وفجأة شعرت بالحاجة إلى الهواء. وحتّى أهدأ، رحت أجمع الملابس قطعة قطعة، أنفضها لكي أزيل انكماشها، وأعلّقها في مكانها. يا للعبث! كنت أرتّبها كما لو أنّ ذلك يفيد في شيء، كما لو أنّها ستعود. طويت الملابس الداخلية، ورتّبتها في أدراج خزانة الملابس، ومددت الأغطية على السرير، وسوّيتها لكي أعالج بعد ذلك الوسادة المبعوجة.

هكذا عثرت عليه بينما أدخلت يدي في غطاء الوسادة لكي أضغط الصوف. شيء صلب وبارد. أخرجته من الحشوة الخشنة، فاكتشفت خاتماً من الذهب: خاتم خطوبة.

t.me/qurssan

جفلتُ. أكانت إلفريد متزوّجة أيضاً؟ من يكون الرجل الذي أحبّت؟ لماذا لم تحدّثني عنه قطّ؟

أشياء كثيرة أخفتها إحدانا عن الأخرى. أيمكن للإنسان أن يحبّ ويكذب على من يحبّ؟

تأمّلت الخاتم طويلاً، ثمّ تركته يسقط في علبة فارغة كانت موضوعة على الخزنة. كانت تبدو من أحد الأدراج المفتوحة علبة معدنية. علبة سجائر. فتحتها. كانت لا تزال فيها سيجارة، السيجارة الأخيرة التي لم تدخّنها، فتناولتها.

تفحّصتها بين أصابعي -والخاتم الذي قدّمه لي غريغور ذات يوم في بنصري، قبل خمس سنوات-، وتذكّرت يد إلفريد وهي تقرّب السيجارة من شفتيها. الإبهام والوسطى اللذان تتركهما لحظة ممدودين في هيئة مقص خلال الساعات التي أمضيناها في الساحة، أو في اليوم الذي أغلقت على نفسها معي في المرحاض. تذكّرت يدها بأصابعها العارية.

صارَ شعوري بالاختناق لا يُطاق، وحاجتي إلى الخروج ملحّة. ودون أن أفكّر التقطت خاتم إلفريد، وشددت عليه قبضتي وانطلقت جارية.

t.me/qurssan

47

حين عدت، وجدت غريغور بمفرده من جديد، مغمّض العينين. جلست بجواره مثلما فعلت تلك الليلة في غرفة بولين. ودون أن يفتح عينيه، قال:

- سامحيني، لم أقصد إغاظتك.

كيف عرف أنّني أنا من دخلت؟

- لا تؤاخذني، فأنا منفعلة قليلاً اليوم.

- جئت لزيارتي بحثاً عن لحظة هدوء بيننا، لكن ليس من السهل أن تعرفي أنّ ساعتي قد حلّت.

- أنا آسفة حقّاً يا غريغور.

كلّ ما كنت أريد هو أن ألمسه، أن أغطّي يده بيدي. فيشعر بدفئي. وهذا يكفيني.

فتح غريغور عينَيه والتفتَ إليّ. لست أدري كيف بدت سحنته، مزيج من الجدّيّة والذهول واليأس.

قال وهو يبتسم بكلّ ما أوتي من لطف:

- كنتِ صعبة المراس. من الصعب العيش مع إنسان صعب المراس.

غرست أظافري في راحة يدي، وشددت فكي.

t.me/qurssan

قرأت يوماً في إحدى الروايات أن الصمت داخل الأسرة الألمانية لا يوازيه في عمقه صمت بين الأسر في العالم. بعد نهاية الحرب، لم أستطع الكشف عن أنّني اشتغلت لدى هتلر: كنت ربّما سأؤدي حياتي ثمناً لذلك. لم أخبر حتّى غريغور. ليس لأنّني لم أكن أثق به، فأنا أثق به طبعاً، بل لأنّني كنت عاجزة عن أن أصفَ له مطعم كراوزندورف دون أن أحكي له قصة أولئك اللواتي كنّ يأكلن معي: شابّة ذات وجه محمرّ، وامرأة بارزة الكتفين وذات لسان متدلٍّ، وأخرى أجهضت، ورابعة تعتبر نفسها عرّافة، وخامسة يهودية، وسادسة تقضي اليوم كلّه تلهج بأسماء ممثلات السينما. كان عليّ أن أحدّثه عن إلفريد، وعن خطئي. ذاك الذي يفوق كلّ الأخطاء الأخرى في قائمة الأسرار. ما كنت أستطيع أن أعترف له بأنّني وثقت بضابط نازي، ذاك الذي بعث بها إلى معسكر الاعتقال، ذاك الذي أحببته. لم أحدّثه عن شيء من كلّ ذلك، ولن أحدّثه. كلّ ما تعلّمته من الحياة، هو أن أُحافظ على بقائي.

- كلّما كنت أقول لكِ إنّك صعبة المراس، ازددت انغلاقاً، وها أنت ما زلت تفعلين ذلك الآن.

وسعلَ غريغور من جديد.

- اشرب من فضلك.

تناولتُ الكأس، وقرّبته من شفتيه، وتذكّرت الحركة نفسها في غرفة بولين، تذكّرت نظرته المرعوبة. يضع غريغور شفتيه على جانب الكأس ويستغرق في التفكير، كما لو أنّ الشرب يكلّفه مجهوداً لا يطاق: لم يسبق لي قطّ أن لمست رأسه من دون شعر. لم ألمس زوجي منذ أمد بعيد.

سالَ الماء على ذقنه، فدفع الكأس.

t.me/qurssan

- أأزيدك؟

قال وهو يمسح يده:

- لا أشعر بالعطش.

أخرجت المنديل من جيبي، ومسحت ذقنه: أشاح بوجهه في البداية، ثمّ تركني أفعل. لاحظ غريغور أنّ منديلي ملطّخ بأحمر الشفاه، ونظر إليّ بحنان لا يُحتمل.

t.me/qurssan

48

ملأتْ عربةُ الطعام الممرّ صخباً ورائحة، ثمّ دخل موظّفو الخدمة. تبعتهم أغنيس، ناولوها الصينيّة، فوضعتها على منضدة السرير وشكرتهم. وحين انتقلوا إلى الغرفة الموالية، قالت لي:

- أراك ساهمة يا روزا؟ ألست على ما يرام؟

- نعم، أشعر بقليل من الصداع.

- ودّت مارغو أن تودّعك، لكنّها اضطرّت للعودة إلى البيت. على كلّ حال، فهم سيطردوننا كلّنا قريباً.

نزعتْ قطعة من ورق التنظيف، وأدخلتها في فتحة المنامة الزرقاء، ثمّ جلست على جانب السرير، ومضت تطعم غريغور بالملعقة على مهل، وبين الفينة والأخرى، تضع الملعقة لتمسح جنبات فمه. تنفخ على الحساء وهي تتمطّق. من حين إلى آخر يضع رأسه على الوسادة لكي يستريح. فحتّى الأكل ينهكه. وبينما كانت تقطّع لحم الدجاج إلى قطع بالغة الصغر، جلست في الجانب الآخر قبالتها.

أومأ غريغور بأنّه شبع، فأعلنت أغنيس:

- سأذهب لأغسل يدي.

- حسناً.

t.me/qurssan

- بعد ذلك سأعود إلى البيت. أنت متأكّدة من أنّك لا ترغبين في مرافقتي، على الأقلّ لتأكلي شيئاً؟

- لا أشعر بالجوع، شكراً.

- على كلّ حال، إن شعرت بالجوع، هناك مطعم المشفى. يرتاده الأطباء والممرّضون، لكن أيضاً أقرباء المرضى. ليس باهظ الثمن، ولا بأس به.

- دُلّيني فقط على موقعه.

بقينا أنا وغريغور رأساً لرأس، وكنت أشعر بالإنهاك.

كانت السماء في الخارج متقلّبة، وحلّ الغروب ببطء، ثمّ تسارع ليخيّم الظلام.

قال:

- لو أنّني لقيت حتفي في الحرب، لعاش حبّنا طويلاً.

كنت أعلم أنّ ذلك غير صحيح.

- كما لو أن الحبّ هو جوهر الخلاف.

- فما هو جوهر الخلاف إذاً، يا روزا؟

- لا أعرف. كلّ ما أعرف هو أنّك قلت الآن حماقة. لعلّه خرف الشيخوخة.

بدا كما لو أنّه يسعل، لكنّه ضحك، وضحكتُ أنا أيضاً.

- وضعنا فيه شغاف قلوبنا، لكنّنا لم ننجح.

قلت وأنا أبتسم:

- لقد عشنا سنوات معاً، وهذا أمر لا يُستهان به، ثمّ بعد ذلك استطعتَ أن تنشئ أُسرة. أحسنت صنعاً بالبقاء حيّاً.

- لكنّك بقيت وحيدة، ومنذ أمد بعيد، يا روزا.

t.me/qurssan

داعبت خدّه. بشرته خشنة كالورق القضيم، أو لعلّها أصابعي. لم أداعب زوجي قطّ في شيخوخته. كان ذلك إحساساً أجهله تماماً.

مرّرت إصبعَين من أصابعي على شفتيه، وحرصت على أن أتتبّع طرفيهما، وتوقّفت في الوسط وضغطت بلُطفٍ، بلُطفٍ شديد، ففتح غريغور فمه، بالكاد واربه، وقبّلهما.

يقدّم مطعم المشفى أطعمة متنوعة: خضار مبخّرة -جزر وبطاطس وسبانخ وفاصولياء خضراء- أو نصف مقلية، ولا سيّما القرع. هناك أيضاً بازيلاء بلحم خنزير مقدّد، وفاصولياء يابسة بالمرق، كما يوجد ضلع الخنزير ولحم دجاج مشوي، هذا علاوة على الحساء وشرائح سمك بالبطاطس المهروسة وسلطة الفواكه واللبن، بل حتّى حلوى بالزبيب، لكنّني لم أعد آكل الزبيب.

طلبت فقط طبق فاصولياء خضراء وماء وتفّاحة. لم أكن أشعر بالجوع. أعطوني أيضاً حين ذهبت لجلب الملعقة والشوكة رغيف خبز كاملاً، وقطعة زبدة صغيرة. لم يكن المطعم حاشداً، فلم أجد صعوبة في العثور على مائدة شاغرة. بين موائد الفورميكا المتزاحمة، ذات اللون الأزرق الفاتح، المكسوّة بالفتات والملطّخة بالدهن، يمرّ رجال ونساء بوزراتهم غير مبالين، يجرجرون نعالهم المطاطية، حاملين صينياتهم في أيديهم. قبل أن أختار مكاني، راقبتهم حيث يجلسون، فلاحظتُ مائدة نظيفة بعيدة.

رغم أنّ رؤيتي لم تكن واضحة من تلك المسافة، رحتُ أنظر إلى الجالسين. أردت أن أعرف ما إذا كان ثمّة أحد يأكل نفس ما آكل. استرقت النظر إلى كلّ الصحون، وانتهيت بأن عثرت على شابّة سمراء، ترسل شعرها على شاكلة ذيل حصان. كانت تلتهم

t.me/qurssan

الفاصولياء الخضراء بشهيّة. تناولت من صحني شوكة، ذقتُها فشعرت بدقات قلبي تتثاقل. ورحت أتناول لُقماً موزونة، الواحدة تلو الأخرى إلى أن انتفخ بطني. أحسست بغثيان خفيف، وقلت في نفسي لا بأس. وضعت يدي على بطني لأدفّئه. وبقيت جالسة على تلك الحال متسمّرة في مكاني. لم يبقَ في القاعة أحد سواي، وكلّ ما كان يُسمع ضجّة خافتة. مكثت هناك ساعة تقريباً، ثمّ غادرت.

t.me/qurssan

ملاحظة وشكر

في سنة 2014، قرأتُ مقالة قصيرة في إحدى الصحف الإيطالية عن مارغو وولك، آخر ذائقة لطعام هتلر كانت لا تزال على قيد الحياة. ظلّت فرو وولكر تلزم الصمت عن تلك التجربة التي عاشتها، لكنها قرّرت، وهي في السادسة والتسعين من العمر، أن تكشف عنها للملأ، فراودتني رغبة على الفور في أن أقوم بتحريات حول حياتها وماضيها. وحين توفّقتُ بعد أشهر في العثور على عنوانها في برلين لكي أراسلها طلباً لموعد للقائها، بلغني أنها ماتَت منذ مدة قصيرة، ومن ثمة تبدّدَ أملي في لقائها، وسرد ما عاشت، لكن ذلك لم يمنعني من السعي إلى اكتشاف سبب تأثري بقصتها. وكان من نتيجة ذلك أن كتبت هذه الرواية.

الشكر موصول لتوماسو سبيتشر على التدقيق التاريخي.

الشكر موصول أيضاً لإلاريا سانتوريلو وميمو سوما وفرانشيسكو داماندو وبينيديتو فارينا على ما قدّموه لي من خبرة علمية.

ولولا دعم فيكي ساتلو ما كان لهذه الرواية أن ترى النور، لذلك أنا أهديها لها، كما أهديها لدورلي بلونك وسيمونا ناسي اللذين مدّا ليَ يدَ المساعدة منذ شرعت في كتابتها. وأهديها في الأخير إلى سيفيرينو سيزاري الذي قرأ كل ما كتبت، وإن كان هذه المرة لم يجد الوقت لذلك.

t.me/qurssan

روزيلا بوستورينو

ذائقة طعام هتلر

«امتصّ جسدي طعام الفوهرر، وصار بذلك يجري في دمي.
لقد نجا هتلر، أما أنا فشعرت بالجوع من جديد».

إنها قصة من تلك القصص التي قد نظن أنها نتاج خيال الكاتبة، لكنها في الواقع إحدى القصص الحقيقيّة التي خلّفها لنا التاريخ. تذكُر بوستورينو، وهي تهيئ لروايتها، أنها علمت بأنّ إحدى ذائقات طعام هتلر لا تزال على قيد الحياة، وأنها كشفت عن سرّها وهي في التسعين من العمر. وبذلك أرادت لهذه الرواية أن تكون تكريماً لها.

في خريف عام 1943، كان هتلر منعزلاً في «وكر الذئب»، ملجئه الواقع في بروسيا الشرقية، مُحاطاً بدائرة من الأتباع الأوفياء، ومحروساً بحامية غفيرة من القوات الخاصة. وخوفاً من أن يُدسّ له السم في الطعام، وظّف قسراً عشر نساء ليتذوّقن طعامه قبل أن يُقدّم له.

من بين هؤلاء الذائقات نجد الراوية، شابة برلينية تُدعى روزا، اعتُبر زوجها في عداد المفقودين في الحرب. وفضلاً عن مهمّتها الصعبة التي فُرضت عليها وعلى رفيقاتها، وهي محنة تحكيها من الداخل، كانت حالتها حرجة: لقد وقع الملازم زيغلر في غرامها. أمّا هي، فوجدت نفسها تشعر تجاهه بمشاعر متناقضة من المتعذّر أن تعترف بها حتى لنفسها.

تصوّر لنا هذه الرواية الآسرة، الفائزة بثماني جوائز من بينها جائزة كامبييلو الإيطالية المرموقة، غريزة البقاء، وتسبر خفايا العلاقات، وتُسائل معنى الحب والصمود. رواية رائعة تجمع بين القوة والرهافة. رواية لا تُنسى.

«هذا الكتاب الذي يتحدث عن الحب والجوع والندم والصراع من أجل البقاء يظل محفوراً في القلب».
- مجلة ماري كلير الإيطالية -

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء، ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت، ص.ب 113/5158
markz@wanadoo.net.ma
ccacasabey@yahoo.com

t.me/qurssan